

تأملات في الشعر المعاصر

الأستاذ الدكتور

مسعد بن عيد العطوي



استاذ الدراسات العليا بجامعة تبوك

تأملات في الشعر المعاصر

الأستاذ الدكتور

مسعد بن عيد العطوي

أستاذ الدراسات العليا بجامعة تبوك

عالم الكتب الحديث

Modern Books' World

إربد - الأردن

2014

فهرس الموضوعات

الصفحة	العنوان
5	تصدير
8	المدخل
10	حروف وأفكار
15	الحدائث عند العرب
19	الحدائث الشعرية إكسير الحياة الأدبية
25	قضية الأدياء والأحداث
27	التيه وانوثة الفكر العربي
31	الصحافة والادب ام القرى نموذجاً
53	تعليم المرأة في الادب السعودي
99	التحول في شعر ابن ادريس
119	قراءة في ملحق ابداع
123	حسين عرب شعره نبض لامال الامة في امالها والامها
126	الشاعر محمد حسن فقي
130	الجاسر الشعلة المضيئة
132	الشاعر محمود عارف
136	منوعات الغزوي تكشف عن مشاعر متعددة
140	الغزوي والشباب
144	بين الغزوي وعواد
147	الغزوي بين جامعتين
150	ابن خميس النجم الافل

الصفحة	العنوان
159	نازك الملائكة والمعاناة
163	قبضة من اثر جميل
168	الدكتورة مريم البغدادي ورحلة المعاناة
179	الصدق الشعوري في شعر سلطانة السديري
185	القصيدة الحديثة
190	الأيدولوجية الشعرية عند باشراحيل
200	الشعر في القصيم
206	التكوين الثقافي في شعر محمد العطوي
215	وظيفة الشعر المباشر من خلال شعر سعد الغامدي
225	معالم التجديد في شعر علي ادم
236	رقية ناظر والتجربة الشعرية
240	مابعد الرحيل ليحي توفيق
243	قراءة في شعر حسن الزهراني
250	الجوهرة الحمد واللوحات الوجدانية
257	شعر غرامة سوط عذاب
263	محمد الشبتي
267	الوطن زمانا ومكانا في شعر مسلم العطوي
271	قائمة المراجع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

الحمد لله، خالق السموات والأرض، وجاعل الظلمات والنور، وخالق البشر بتكوينه العظيم، رب الأكوان، الواحد القهار، كل شيء في الوجود هالك إلا هو، فالعالم بسماواته وأراضيه يدور في تلاقٍ وتعانق، وتبادل منافع، وكلٌّ إلى ربه راجع، في كبائر الأمور وصغائرها.

ونصلي ونسلم على رسل الله وأنبيائه، وعلى المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم. رسول الهداية والاستقامة، ورائد الفكر والعمران الإنساني والكوني والمعرفي، الذي حمل إلى البشرية الحائرة آفاق الخير في شتى مناحي الحياة.

فإن الشعر هو ديوان العالم بأسره، وليس ديوان العرب وحدهم، يرصد تاريخ الأمم والشعوب عبر الأزمان والأحقاب، ويحكي آمالها وتطلعاتها عبر مسيرة الحياة الممتدة، وهو كنز لا ينضب من الأفكار والرؤى، والقضايا المتجددة في أعماق الكون وأعماق الإنسان في مراحل تطوره، وظهور حضاراته، وأطوار تفاعله الاجتماعي في الحياة عموماً.

لقد ارتبط الشعر منذ بداياته بتصوير معاناة الإنسان، والتعبير عن مكونات وجدانه، والكشف عن مستور خلجاته، والبحث في المجهول، ورصد ما يعنّ له من أفكار ورؤى إزاء ذاته في معاناتها مع الحياة، وإزاء ذاته فيما يتسنى لها من خبرات، وما يتفتح لها من آفاق أرحب للمعرفة الإنسانية.

والشاعر المبدع صاحب البصيرة الثاقبة، والفكر النافذ، والشعور الدافق المرهف يكون مهندساً للقضايا الإنسانية المصيرية، يبث المشاعر الصادقة، ويُجلي المستور، ويكشف

المجهول، ويميط اللثام عن مناطق الضوء والعممة في أعماق الحياة، ويخلق في فضاءات لغته وتراكيبه مغزداً للقيم السامية، داعياً إلى الفضائل، قارحاً نواقيس الخطر والإنذار عند مواطن الانحراف، ومواضع القبح، وأماكن التيه والحيرة، ويستشرف مستقبل الحياة من خلال قراءة واعية لمعطيات الواقع.

وفي الشعر العربي جمال وعذوبة، ولكنه أيضاً ينطوي على عيوب نسقية في الشكل تارة، وفي المضمون تارة أخرى، الأمر الذي دعا إلى ضرورة وجود اتجاه فكري ناقد يبحث في تحليل النص الشعري، ويبرز مناطق الوهج والخفوت، ومواضع القوة والضعف في النص الشعري.

أما النقد ذاته فهو عمل أكاديمي يقوم على فكر داخلي للمتلقي، يعتمد على مكوناته الذهنية والثقافية والاجتماعية، وعلاقته بالشعر علاقة بعدية وليست قبلية، غير أن ثمة قضية كبرى تجعل الناقد أكثر سلطة من المبدع، فالمبدع يفيض بمكوناته الوجدانية والفكرية في شعره، ثم ينتهي دوره، ويبقى شعره من بعده ميداناً خصيباً لعدد من النقاد في مختلف العصور، يبحث بعضهم في المكونات اللغوية، ويبحث بعضهم في التجربة الشعورية، وفريق آخر يبحث في الأخيلا والصور البلاغية. وكل ناقد له توجهه

الخاص ورؤيته المستقلة وكل له شرعة ومنهاج وقد قيض الله للشعر نقاداً كانوا أكثر موضوعية، وأعمق تبحراً، وأشد استنارة واعتدالاً، فجاءت دراساتهم النقدية نموذجاً للعمل النقدي المنصف، الذي يوظف اللغة لدلالاتها الأقرب موضوعية، حتى تصل إلى المتلقي ويستوعبها بغض النظر عن فكره وحظه من الثقافة والإدراك.

وقد رفع راية النقد جماعة من العلماء والفلاسفة والمفكرين، وضعوا له أسسه ومعايره ونظرياته وقواعده، التي ما فتئت موضع تداول ومحاكاة في الدراسات النقدية المعاصرة. يسير بمقتضاها كثير من نقاد العصر، ويهتدي بإشعاعاتها جبهة النقاد في أعمالهم النقدية.

ومن بين النظريات النقدية القديمة التي تأثر بها نقاد العصر نظرية أفلاطون في المحاكاة، وهيمنة المعتقد عليها، ونظرتها للكون، وعلاقة الإنسان بالطبيعة، وقد رأى العلماء

أن نقده يقوم على ترسيخ الفكرة الإلهية، وعلى النظرة الواقعية للأشياء، وعلى ضرورة تصوير تلك الأشياء في الشعر.

وكذلك نظرية أرسطو التي تقوم على التوصيف واكتشاف الكون من خلال الشعر، حتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان في طرحه رأيه في شعر زهير بن ابي سلمى ناقداً منهجياً منصفاً.

على أن الأدب العربي قد شهد في مسيرته المتواصلة أعلاماً من النقاد العرب، برزوا في فن النقد المنهجي العلمي، ووضعوا قواعد معيارية سبقوا بها النظريات الغربية النقدية الحديثة، إلى الحد الذي جعل بعض الدارسين المستشرقين المنصفين يذهبون إلى أن النظرية الغربية في النقد الحديث تمتد جذورها الأولى عند علماء العربية القدامى، وأن نقاد الغرب لاشك قد تأثروا بابن قتيبة، وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم من علماء العرب القدامى.

غير أن مهنة النقد لا يمكن أن تتأتى بسهولة لأي إنسان، فالتقيد فن له أسسه وقواعده، ويستلزم ناقداً ذا همة وعزيمة، وموهبة، وقدرات خاصة، وإدراك معرفي وثقافي هائل، وتمرس بالأساليب اللغوية واللسانية، والبلاغية، ودراية كاملة بآليات النقد وأدواته ومناهجه، ثم التجرد من الهوى، والقدرة على إنتاج أحكام منصفة لا تخضع لأهواء شخصية، أو مطامع ذاتية...! ومن ثم كانت الحاجة ملحة إلى ناقد عدل منصف، مثقف ثقافة عالية.

على أنني لا ازعم مطلقاً أنني أمتلك تلك المكونات، ولكنني أضع خواطري إزاء بعض الأعمال الشعرية المتميزة التي جادت بها قرائح الشعراء السعوديين من خلال كتابي المتواضع هذا، وهي في الواقع انطباعات ذاتية جاءت عفواً الخاطر، ولكنني توخيت الأمانة والتجرد فيما عرضت له من أعمال شعرية، وكنت قد نشرت بعضها في مراحل تاريخية متفرقة من عمري في شكل مقالات أدبية، طالعها القارئ الكريم عبر صفحات الجرائد السعودية.

وأخيراً... لقد حرصت على قراءة عدد كبير من قصيد الشعر العربي، وتوقفت عند بعضها، وكتبت دراسات عنها في مراحل متنوعة، وها أنا ذا أشرف بتقديم ذلك الكتاب إلى

القارئ العربي العزيز، أنموذجاً لمعايشتي الذاتية لبعض قصائد الشعر العربي الحديث، وأدعو الله أن يُيسر لي من أمري ما يعينني على مواصلة المسيرة في هذا الشأن؛ فهو زاد حياتي ، كما أدعوه سبحانه أن أكون قد قدمت لقارئتي فكرياً راقياً، ورؤى بناءة، تُعينه على إدراك جماليات اللغة العربية الأصيلة، وقدراتها في وصف خلجات الخاطر وشوارد الفكر، وإعلاء شأن القيم الفاضلة والمثل العليا.

والله من وراء القصد

أ.د مسعد عيد العطوي

masd_300@hotmail.com

0505495623

المدخل الأدب والفكر

إن توالد الفن بأشكاله المختلفة إنما هو وليد الأمم البشرية، واللغة أو النطق إنما هو خاصية بشرية. والله سبحانه وتعالى قد أوجد اللغة وهياً لها من أسباب التطور والثراء ما جعلها تفيض بدلالات داخلية للفرد البشري.

وما مكونات الفرد البشري الفكرية والوجدانية، والسلوكية إلا وليدة التكوين الجمعي والاجتماعي، وما يقدرح الأحاسيس والمشاعر، ويثير البنية الشعورية إلا الفكر بأشكاله الفلسفية أو الشعورية، ومن ثم يكون الثراء الفكري والدلالات الكثيفة.

والدارس الباحث الذي يمتلك قوام الدراسة النقدية التحليلية الجادة يستطيع كشف التاريخ الفلسفي، وتطور الفكر، وتأثر البشرية في رحلة حياتها الممتدة على البسيطة بالأديان السماوية والمذاهب الوضعية وذلك من خلال استقراء آداب الشعوب وفنونها؛ فالأدب الهندي سجل للفكر الهندي، والأدب الفارسي مرآة صادقة تعكس تطور الفكر الفارسي، بل إن أطروحات الشعر والأدب والنقد معاً تسجل تلاحم هاتين الحضارتين وتأثر كل منهما بقرينتها. كما أن الحصيلة الحضارية الفلسفية والفكرية والدينية مما تفتقت به قرائح علماء العرب المسلمين في قديم عهودهم وحاضر عصرهم لتعكس بصورة صادقة مراحل تطور الفكر العربي عموماً والإسلامي خصوصاً. وما أدب ابن سينا، وابن رشد، والفارابي، وقصة "حي بن يقظان" لابن الطفيل إلا نسيج من ذلك التلاحم الفكري الإنساني.

والأدب عامل رئيس في تخليد الفلسفة الإغريقية واللاتينية، والحفاظ عليها ضد عوامل النسيان البشري. والدارس يستطيع أن يلمس في وضوح ذلك الدور الذي اضطلع به الفلاسفة في تطوير النظرة إلى الأدب والتنظير له لاسيما الشعر والقصص؛ ومن هنا تلازمت النظريات الفلسفية لأفلاطون وأرسطو مع التنظير النقدي فتكون الأدب الكلاسيكي الذي يحمل فكر الشعوب الأوروبية عامة.

خلاصة القول: إن الشعر وسائر فنون الأدب ديوان تاريخي واجتماعي يسجل مراحل تاريخ الفكر عند شعوب العالم، ويكشف عن الدور الذي يلعبه الأديب والفيلسوف في ارتقاء شأو الفكر الإنساني وتطوره؛ ألم تر أن النظريات الأدبية لا تكاد تخلو من ذكر الفلاسفة والشعراء ودورهم البارز في تحقيق النهضة الفكرية الإنسانية، فهذاك الفيلسوف (هيجل) ونظرية الجمال، وذاك المفكر (جوته) ونظرياته الأدبية، وربما كان الأديب هو نقطة الشرارة التي تشعل الثورة على الظلم والحياة الفاسدة، على نحو ما رأينا من قيام الثورة الفرنسية، وكان أديبها اللامع (فيكتور هيجو).

اللغة والإبداع

تأتي اللغة في مرتبة عالية في حياة ذلك الوجود الإنساني، إذ هي الأداة التي تحمل الأفكار، وتنقل المفاهيم، وتقوي روابط الاتصال بين الناس. واللغة ذات أهمية كبرى في حياة كل أمة، لأنها الوسيلة التي تكشف عن عمق الفكر أو سطحيته، وعن سعة الأفق أو محدوديته، وهي وسيلة التعبير عما يجيش في النفس البشرية، وهي أيضاً أداة رصد للمجتمع كوامنه وظواهره. وتتضافر جملة من العوامل ساعدت على تطور اللغة عبر الأحقاب الزمنية منها انبثاق أفكار ورؤى واحتياجات أفرزتها طبيعة كل عصر ومتطلباته، الأمر الذي أدى إلى تراكم الفكر الإنساني وسعته عبر مراحل التاريخ المتعاقبة، ناهيك عن الثقافة البشرية وتنوعها، وقد انعكس ذلك بالضرورة على اللغة، فسرى التطوير في عروقها، ودبت الحداثة في أوصالها.

ولاشك أن اللغة كانت وما زالت أهم ما وصل إليه الإنسان من وسائل التفاهم، لذلك فهي تؤدي لكل من الفرد والمجتمع عدداً من الوظائف المهمة، تتمثل في:

- اللغة وسيلة التواصل بين الناس بما تحمل من دلالات نفسية واجتماعية ومعرفية.
- اللغة مطية الفكر وقربته؛ لا تكاد تنفصل مطلقاً عن مضمونها الفكري والعاطفي، فهي الصور الكلامية التي تعبر عن المشاعر والعواطف واحتياجات الإنسان، أو هي

مجموعة من الأصوات التي يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، وكما يقولون: اللغة فكر ناطق، والفكر لغة صامتة.

■ اللغة أداة رصد للسلوك الإنساني وحركته الدائبة عبر الحقب الزمنية المختلفة،

ووسيلة تدوين آمنة لتتاج الفكر البشري عبر مراحل تطوره المختلفة، ولاشك أن

الكتابة اللغوية حافظت على موروثات الشعوب من الضياع، وكانت ولم تنزل وسيلة

مثلى لتسجيل ذلك الانفجار المعرفي الهائل في شتى مناحي الحياة.

■ اللغة تختزل الأساطير والصور والخيال، وكلما أمعن الكاتب في أسرار الكون،

وتجليات الحياة، نما خياله، وتبلورت لغته، وارتقت تعابيره، وهُدّب فكره.

■ ذهب نعوم تشومسكي أحد أبرز فلاسفة اللغة المعاصرين إلى أن دراسة اللغة ترتبط

بدراسة الفكر البشري، فاللغة تفرض بشكل أو بآخر على الإنسان طريقة التفكير،

واللغة العربية أكثر اللغات تطوراً في عصورها الأولى، ولذا فقد استطاع العرب

تكوين أكبر ثروة أدبية في الشعر والقصص والبلاغة.

حروف وأفكار (الفن والحياة)

(جريدة الرياض 1406/12/24هـ)

"وربما كان ذلك مدعاة لأن نثير هنا قضية في غاية الأهمية تلك هي الجدل الدائر حول العلاقة بين الأدب والدين عموماً، وبين الشعر والدين على وجه الخصوص، وهي قضية لاشك قديمة وحديثة.."

إن أي نظرية أدبية يكتب لها البقاء والخلود والانتشار والحضور لا بد وأن تكون فلسفتها ومنهجيتها مبنية على العقلانية والجدلية التي تجنح إلى المنطقية أحياناً، وإلى الأحاسيس الشعورية أحياناً أخرى، أو توائم بينهما وذلك هو الأفضل. وليس ذلك بكاف؛ فالأمر لا بد أن يوافق الأعراف والتقاليد السائدة، ويتقابل مع التراكيب والاتجاهات الاجتماعية المستقبلية، وذلك ما أشار إليه الشاعر (بوب) بقوله: "إن قواعد الأقدمين ليست مخترعة، إنها الطبيعة ما تزال، ولكنها الطبيعة منظمة".

وهذا يؤيد الرأي الذي يجنح إلى أن التيار الأدبي يكون مفروضاً على الأدباء والمنظرين ونقاد العصر، بحيث تكون النظريات والإبداعات مستوحاة ومفروضة من الاتجاه العصري، إما لقناعة عقلية بالمفاهيم السائدة، وتأثيرها على المنهجية العقلية، وإما بالرفض لها ومحاربتها والتمرد العقلي الواعي عليها، ومن ثم رفضها وطرحها.

لذا فإن كل النظريات الأدبية التي نمت وراجت لاقت هوى من الحالات النفسية والاجتماعية والعقلية لدى أبناء المجتمع، لما وجدوا فيها من إشارات تكشف عن واقعهم، وتصف حياتهم، وتعرض لهمومهم ومحتهم مع الحياة، ومن ثم اصطبغت تلك النظريات الأدبية بصبغة المجتمع.

من أجل ذلك رأى (بوب) أن النظريات الناجحة ليست مخترعة وإنما هي حياة الشعوب وعقليته وروحه النابضة وتياره المتدفق.

ولهذا فإن على كل المنظرين من نقادنا، وحاملي رايات الفكر الأدبي أن يسعوا جاهدين للملائمة والمواءمة بين النظرية والاتجاهات الفكرية الحالية، والمستقبلية؛ لأن كل تنظير يكتب له البقاء ينبغي أن تنبثق أنواره من الحق والخير والجمال، فغاية الأدب ومنه، وأمله ومبتغاه أن تحيا الضمائر بالقيم الإنسانية السامية، فالأدب روضة هذه القيم ومغذيها، ونغمها وسلسيلها العليل.

ولابد أن يتضمن الهدف الأدبي الإصلاحات الاجتماعية الخاصة، ويدق جرس الإنذار ليكشف عن الانحرافات الطارئة، ويغذي روح التنمية الوطنية الفاعلة، ويستوحي الآمال المستقبلية المنشودة.

إن الناظر للغرض من الأدب والفن في الإسلام يجد أنه محاولة جادة لإصلاح المجتمع وتطوير قيمه.. وليس تجسيد الواقع بما فيه من مفاسد.. كما تذهب إلى ذلك المدرسة الواقعية.

وإذا ما تلبست التنظيرات هذه الأهداف، وسعت إلى تحقيق هذه الأمنيات، وجعلت هدفها الأصيل غرس قيم الخير والحق والجمال، وطفقت تناصر الفضيلة، فإن ذلك كله كفيل بجلب التأييد العقلي، والنجاة من المعمة الجدلية الإنسانية. ومن ثم كان للتنظيرات الأكثر اعتدالية في المجتمع سريان أوسع.

وقد تحدث عن العلاقة الإعتدالية بين العلم والعقل والإيمان المفكر المسلم (رجاء جارودي) الذي عايش التدهور الحضاري الإنساني بسبب الإفراط والإعراض عن الإيمان حيث يقول: "تلك العلاقة الوثيقة بين العلم التطبيقي.. وبين الحكمة التي تحدد غايات البحث والدراسة، وتمنحها بعدها الأخلاقي والديني، وبين الوحي الإلهي الذي يبين قصور كل من العلم في بحثه عن الأسباب والحكمة في بحثها عن الغايات عن الوصول إلى السبب الأول ولا إلى الغائية النهائية" إذن فهي علاقة قوامها الاستعانة الربانية، والقدرة العلمية التجريبية، والحكمة العقلية.

من هنا كان الاختلاف بين الفلاسفة في مواقفهم من الفن، فمنهم من يرى أن الفن تقليد للحياة، ومنهم من يرى أن الحياة تقليد للفن؛ فقد ذهب أفلاطون إلى أن الفن تقليد لما في الحياة، وعبر عنه بأنه محاكاة، فقد كان يعتقد بأن للأشياء مراتب ثلاث أدناها الفن وأوسطها عالم الحس وأعلاها عالم المثل وفي رأيه أن الأول ليس إلا محاكاة للعالم الحسي، لذا فإن الفن بعيد عن الحقيقة بمقدار درجتين.

والفن عند أرسطو وسيلة وصنعة، وليس هو الغاية، فما يضيفه الإنسان ما هو إلا أثر أو حصيلة الفن في حد ذاته، لذا فهو يشير إلى أن الفنان لا ينبغي له أن يتقيد بالنقل الحرفي للواقع وإنما عليه أن يحاكي الأشياء على النحو الذي يجب أن تكون عليه. وهذا يعني أن الشاعر أو الأديب يحكي واقعا معنوياً أو محسوساً، ويمازج بين العوامل الحياتية، ويربطها، ويمدها بالخيال المكمل أو المغاير.

ووفقاً لتلك النظرة فإن الفن يسهم في تطوير الحياة والمسيرة الحركية والاجتماعية، بما يحمل من رؤى ومضامين قد تكون أداة للخير وقد تكون أداة للتدمير. أما ليون تولستوي (1828-1900) فقد عرّف الفن بأنه نشاط انفعالي أو أداة توصيل للانفعالات، فهو يرى أن الفن ليس مجرد تعبير وإنما هو توصيل للانفعالات، كما هو الحال في اللغة، وفي الوقت الذي تقدم فيه اللغة الأفكار يقدم الفن الانفعالات والعواطف بين أفراد المجتمع بواسطة الألوان، فهو إذن نوع من اللغة، ولكنها لغة نابضة بالانفعالات.

ثم جاء أوسكار وايلد الكاتب المسرحي البريطاني الذي أعلن رأيه في الفن صراحة حين قال: «إن الحياة تُقلد الفن أكثر مما يقلد الفن الحياة»، وذلك أن الشخص يكون انطباعاته من خلال تقليده للآخرين، فلا أدب بدون تقليد ومحاكاة، والحياة ليست إلا واقعاً حين نسقط خيال الفن عليه فنخلق حياة جديدة يقلدها الواقع لاحقاً.

والواقع أن الفن يتكون من عناصر ثلاثة هي:

1- الاستعداد والمواهب والقدرات الفردية والذكاء.

- 2- ينبع الأخرى صانعة المبادئ والمفاهيم والآليات الذهنية، أو ما يسمى بالمحتوى الفكري الذي يعتمد على المنهج السلفي وهو ما أطلق عليه القدامى الممارسة والدربة، أي الحنكة والمهارة والخبرة المكتسبة بطول الممارسة.
- 3- المشاهد الطبيعية والاجتماعية التي يتفاعل معها صاحب التجربة.

ومن هنا تتمزج مواهبه وذكاؤه ومخزونه الفكري ومعالجته الذاتية، فيرسم كل ذلك مجتمعاً خيوط التجربة الإبداعية الخلاقة، ومن ثم يتكون الفن.

ومن أشهر النقاد المحدثين الذين يرون أن الشعر موضوع للحياة (ت.س. اليوت) وهو شاعر ومسرحي وناقد أدبي حائز على جائزة نوبل في الأدب في 1948. أحيا الميتافيزيقية بعد أن كادت تندثر، من خلال كتابه (الشعراء الميتافيزيقيون) ومن خلال دراسة خاصة عن الشاعر الميتافيزيقي أندرو مارفيل، سنة 1921م.

إن الميتافيزيقية هي اتجاه أدبي فلسفي يبحث عن ظواهر العالم بطريقة عقلية مزوجة بالعاطفة، من أجل الجمع بين كل ما هو مؤتلف ومختلف من الأخيلة الفكرية والظواهر الطبيعية، وإبرازه في أعمال مسرحية وشعرية وروائية تجسد الفلسفة الكامنة وراء الحب، بأسلوب سهل وتعبير سلس.

والناقد الأمريكي الإنجليزي الشهير (اليوت) معجب بالشاعر الإنجليزي (جون دن) (1572-1631م) - أبرز الشعراء الإنجليز، الذي أسس المدرسة الميتافيزيقية في الشعر الإنجليزي مع باقي الشعراء في القرن السابع عشر- وذلك لأنه طرح العديد من القضايا في شعره، وهو في رأيه شاعر مكن أبناء عصره أن يروا في شعره قضيتهم الخاصة وذلك من خلال إخضاع عاطفته إلى طاقته الفكرية. ولعل أهم ما لفت نظر إليوت إلى "دن" هو ثورته على مقاييس الجمال السطحية التي كانت ترى للشعر موضوعاته الخاصة التي تختلف عن

موضوعات النشر، وذلك ما أنكره "دن" الذي كان يعتبر الشعر تجربة الإنسان مع الحياة، ومن ثم لا يمكن أن يوصف أي موضوع في الحياة بأنه غير شعري⁽¹⁾.

ولاشك أن المدرسة الميتافيزيقية تشكل خطراً على شبابنا المسلم - إن لم يتنبه إلى أطروحاتها جيداً - لما تحمل من تعابير أدبية خارجة أحياناً عن الدين والذوق السليم.

وربما كان ذلك مدعاة لأن نثير هنا قضية هامة وهي الجدل الدائر حول العلاقة بين الأدب والدين عموماً، وبين الشعر والدين خصوصاً، وهي قضية لاشك قديمة وحديثة، وترجع أبعادها إلى ظهور أول دعوة في الأدب الغربي لإقصائه عن الدين، متذرة بأن الدين يقص أجنحة الشاعر... أو أن الشعر الذي يعبر عن إيمان وولاء لا يستطيع أن يسرنا دائماً⁽²⁾.

وأما الشيوعيون فإن عداءهم للأديان لا يخفى على أحد، وقد تبنا من هذا المنطلق فكرة التناقض بين الآداب والدين، فالديانة اليهودية في زعمهم تحط من شأن المعارف النظرية والفن والتاريخ، وتستهيئ بالإنسان كههدف في حد ذاته.

ويغالي أرنولد فيرى بقوله: إن الشعر يستطيع أن يحل محل الدين والفلسفة ولذا يعلق إليوت على هذا الرأي بقوله (لا شيء في هذا العالم، والعالم الآخر بديل عن أي شيء غيره⁽³⁾).

ومن البديهي أن الأدب لا يحل عندنا محل الدين الرباني، فالدين تنزيل من رب العالمين والأدب وليد فكر فردي خاضع لمؤثرات محدودة.

ويرى مؤلفاً نظرية الأدب أن للشعر عدة وظائف ممكنة وأن وظيفته الأولى والرئيسية هي أن يكون أميناً لطبيعته⁽⁴⁾.

والواقع الذي لا ريب فيه ولا مناص منه أن الأدب يختلف باختلاف الفرد والمجتمع؛ فكل أدب إنما هو ابن صاحبه بما يحمل من خصائصه الذاتية، وخصائصه المتممة لمبادئ

(1) فائدة الشعر وفائدة النقد - ت.س.اليوت - ترجمة د. يوسف نور عوض - ص17

(2) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه - اليزابث درو - ترجمة محمد الشوش - ص243

(3) نظرية الأدب - رنيه وليك، أوستن وآرن - ترجمة د. عادل سلامة - ص34

(4) المرجع السابق - ص43

تفكيره، وما يلتزم به من نهج، وكل أدب إنما هو انعكاس لمجتمعه بما يحمل من مبادئ،
وصدى لروح عصره بما تحمل من معطيات للحاضر، واستشرافات للمستقبل.

وكما يوجد أفراد ملتزمون يوجد أدب ملتزم، وكما يوجد أفراد لهم حزبية معينة
يوجد أدب حزبي، وكما يوجد أفراد لا يدينون بدين فكذلك يوجد أدب يعكس صورة
هؤلاء، وهذا يؤكد القول بأن الأدب إفراز للصراعات والتيارات التي تتجتاح المبدعين، فكل
إنسان له اهتماماته المسيطرة عليه، والتجربة تتدفق في مجرى تلك المهيمنات المكونية.

فالأدب نبض المجتمعات والأمم، لأن الأفكار العقائدية إذا هيمنت على الفكر
الإنساني فإنها تفرز أدبا منصهرا في البوتقة الدينية، على نحو ما رأيناه في عهد الرسول صلى
الله عليه وسلم وصدر الإسلام، وإذا كان الأدب ابناً باراً لمجتمع صالح ذي قيم عليا فإن
ذلك يعكس أدباً نبيلاً سامياً، تماما كما نرى في بعض الجوانب الأدبية في الأدب الأوروبي
الذي يحث على الحرية والديمقراطية والتطور، وإذا كان المجتمع محاربا للدين، ساعياً إلى
التحرر منه فإن شعراء هذا المجتمع الوضع يحاربونه كما حارب بعض جوانب الأدب
الغربي الكنيسة وأغلاها.

وأياً ما يكن فإنه مهما وضع نقاد الأدب من أطر ونظروا من نظريات وقعدوا من
قواعد فإن الواقع والواقعية هي المهيمنة على الأدب وهي التي تجلب الجينات الوراثية. ولذا
فإن الفلسفات والنظريات المؤطرة للإبداع إنما هي اتجاهات فكرية فحسب. الأمر الذي
يدعونا إلى الدعوة إلى ضرورة صقل النظريات بمنظار الأمة بما يحفظ لها كيانها ودينها
ومستقبلها، وأن تكون النظريات نبراسا وسراجا يضيء ويشع أنوارا تنير المستقبل، وربما
تجرح بنا إلى موانئ لا نعرف كيف نرسو عليها ولا ندرى كيف نستقر فيها. ولكنها تؤدي
بنا إلى سبيلٍ سليمةً وتؤدي بنا إلى غايات نبيلة .

الحدائثة عند العرب

" واستمر تيار الحدائثة في الأدب العربي، وسار في
فلكه النقاد والأدباء يبرزون مواطن القوة والضعف
في النص الأدبي، لا يقفون في وجه المبدع المحدث،
لكنهم التزموا القواعد التقليدية المعيارية، من حيث
النحو والصرف والعروض والقافية..."

ما يُعدّ أدباً حديثاً اليوم، سيغدو قديماً يوماً ما، وقد تبلور ذلك في الدراسات الأدبية
الحديثة التي أبرزت نقاط التطور في الأدب، سواء أكان ذلك في أدبنا العربي، أو في الآداب
الأوروبية، والحدائثة في الأدب نتاج للظواهر الفكرية والمبادئ الاجتماعية، والسمات الأدبية
والأساليب، والتراكيب البلاغية التي تميز عصر دون آخر.

وما من شك في أن أية أطر أدبية جديدة ما إن تظهر على الساحة، وتصطدم
بالاتجاهات المعاصرة السائدة حتى تتلقفها عقول المفكرين على استحياء، فمنهم من
يستحسنها فيقبل عليها، ومنهم من لا تلقى هوى في نفسه فيعرض عنها، ومنهم من يتناولها
تناول المتحفظ المتروي في أناة ونظر.

وربما كان أول ظهور لذلك الطارئ الجديد، أعني الحدائثة، في زمن لغويي العرب
القديم، حين نفشى اللحن في العربية، وغدا اللسان يومئذٍ يتحدث بما يخالف القياس
اللغوي، لاسيما حين اختلط العرب بالعجم، ودخل كثير من العجم في أعقاب الفتوحات
الإسلامية الإسلام، ومن ثم اقتضت الحاجة إلى وجوب وضع قواعد للغة العربية تمكن
اللسان العربي والأعجمي آنذاك على التحدث بالعربية وفق ما يتفق مع قواعد النحو
والصرف، وقد قيض الله لهذه المهمة الشريفة نحاة العرب الأكفاء، وقد أعلن النحاة
البصريون حدوداً زمنية لمن يؤخذ عنهم، ويستشهد بأقوالهم.

أنشد أبو عمرو قول امرئ القيس:

نطعنهم سلكى وخلوجة كرك لأمين على بابل

وقول الحارث بن حلزة:

"زعموا أن كل من ضرب العبر قوال وأنا الولاء" فقال: ذهب من يحسن هذا الكلام، ولهذا صار العلماء لا يحتجون بشعر المحدثين، ولا يستبشرون به، كبشار بن برد، والحسن بن هاني، ودعبل، والعتابي، وغيرهم من فصحاء الشعراء المتقدمين. وإنما يرجعون في الاستشهاد إلى شعر الجاهليين، والمخضرمين، والطبقة الثالثة التي أدركت لمخضرمين، وذلك لعلمهم بما دخل الكلام في الزمن المتأخر من الخلل، والاستحالة عن رسمه⁽¹⁾.

هذا وقد اختلفت نظرة أدباء ونقاد العرب القدامى عن نظرة النحاة لهذا المحدث من الشعر، فقد عُتوا بالإجادة، وإن لم يجددوا ماهيتها، ومن أوائل من أشاروا إلى هذه القضية في صراحة واضحة هو ابن قتيبة حين قال في كتابه (الشعر والشعراء): "ولا نظرة إلى المتقدم منهم بعين الجلال لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين.. فلم يقصر إليه العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر.. وجعل كل قديم حديثاً في عصره، وكل شريف خارجياً في أوله".

وهذا أقدم نص عربي يعلل الحداثة، وينظر إليها نظرة الاعتدال، ولم يزل نموذجاً عدلاً، ورأياً محكماً في هذه القضية، ولا شك أنني أحاله كذلك؛ فهو رأي يبني ولا يهدم، ووجهة نظر تميز بين الصالح والطالح، وتقبل الجيد وترفع شأوه بصرف الزمن عن مكانه وزمانه، إنما العبرة بالإجادة والتأثير، غير أنني أرى أن تلك المقولة التي أوردها ابن قتيبة هي مقولة نظيرية فقط، إذ الناظر إلى طريقة النقد عند ابن قتيبة نفسه يكتشف مع ذلك تأثيره الواضح بالمفاهيم القديمة في أحكامه النقدية.

(1) فصول - 67/1 - ص 46

واستمر تيار الحداثة في الأدب العربي، وسار في إسهاره النقاد يبرزون مواطن القوة والضعف في النص الأدبي، لا يقفون في وجه المبدع المحدث، لكنهم التزموا القواعد التقليدية المعيارية من حيث النحو والصرف والعروض والقافية، ومنهجهم في ذلك كان محاولة الحفاظ على سلامة البناء الأدبي من الهنات والركاكة، والنشاز، وإفساح المجال أمام التطور الثقافي والاجتماعي والفكري المتولد عن المبادئ والمفاهيم والمقاييس الجمالية القديمة، والممتزج بالوافد والمحدث من الأفكار الجديدة البديعة.

وقد أفرز ذلك أدباً جديداً، زاخراً بالإيجاءات والدلالات والصور، مازجاً بين القوالب القديمة والحديثة، محتضناً الإشراقات اللفظية عند أبي تمام، وصفاء المعنى ونقائه عند البحري، والجزالة عند ابن الرومي، والجودة لدى المتنبي، والعمق الفكري لدى المعري.

ومنهج نقادنا العرب في النظرة إلى قضية الحداثة الأدبية منهج عدل ووسطي يستحق منا التقدير والإجلال؛ فضوابطهم الإلزامية قليلة، ولم يكبلوا الاتجاهات الأدبية بكثير من القواعد المقيدة للفكر والإبداع، الأمر الذي ساعد على استحداث قوالب أدبية لم تكن معروفة من قبل، فرعوها حق الرعاية وتعهدوها بالعناية حتى ينعت وأتت أكلها. فظهرت على إثر ذلك ألوان النثر الفني عند عبد الحميد الكاتب، وقصص ابن المقفع، ثم المقامات والموشحات، والسجع في الكتابة العربية، غير أن الجمود الفكري ما لبث أن دب في أوصال العالم الإسلامي، فانحسر في إثر ذلك النقد كما انحسر غيره من العلوم. وترتب على ذلك سيطرة المحسنات البديعية في الشعر والسجع في النثر، وظلت ردحاً من الزمن لم تخضع لرقابة نقدية توجهها نحو المسار السليم، إلى أن عاود الفكر العربي اتقاده وانتشاه فصيح المسيرة، وقوم الأساليب المعوجة، وقنن للأساليب السليمة، لاعتماده وارتكازه في المقام الأول على التراث العربي الأصيل.

والتأمل في تراثنا الأدبي القديم لا يعدم أن يجد محاولات قديمة للخروج على القواعد المعيارية التي اصطلح عليها العرب في إبداعهم، ومن ذلك محاولة الشاعر عبيد بن الأبرص الأسدي في معلقته التي خالف فيها الأوزان المتعارف عليها:

أقرب من أهله ملحوبُ فالتقطيات فالذنوب

وكذا ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف تعليقاً على قصيدة المرقش الأكبر، التي يقول فيها: "ومثلها في هذا الاضطراب قصيدة المرقش الأكبر

هل بالديار أن تُجيب صَمَمٌ لو كان رسم ناطقاً كَلَم

فهي من وزن السريع، وخرجت شطور بعض أبياتها على هذا الوزن كالشطر الثاني من هذا البيت:

ما ذنبنا في أن غزا ملك
من آل جفنة حازم مُرْغَم

فإنه من وزن الكامل⁽¹⁾

والأمثلة في ذلك كثيرة لمن أراد أن يبحث في هذه القضية، ويندرج ضمن ذلك ما عدّه النقاد العرب من الضرورات الشعرية، أو الأخطاء التي لا تغتفر، وكذا ما انفرد به بعض الشعراء، وأعلن بعض النقاد رفضه ومعارضته.

والحق إن النقاد المنظرين المحدثين قد اختلفت مواقفهم من هذا الخروج على المألوف في شعر عبيد الأبرص وغيره، فمنهم من عزا ذلك إلى ظروف نشأة الشعر العربي، حيث جاء عبيد الأبرص في زمن لم يكن التركيب الشعري فيه قد تبلور بعد، ومنهم من أرجعه إلى اختلاف في رواية الشعر عبر رحلته الطويلة التي حملتها المشافهة القابلة للتغيير والتبديل، ومنهم من عدّه من الأخطاء البيئية التي لا يعذر فيها عبيد ولا غيره.

(1) العصر الجاهلي - د. شوقي ضيف - ص 184

غير أن الإنصاف ليدعونا إلى التساؤل: ما يمنع أن يكون ما أتى به عبيد في شعره يُعدّ من قبيل الجديد المستحسن؟

ذلك أن العرب لم ينكروا في زمانهم كل جديد يطرأ على الشعر مما يقبله الذوق، وتميل إليه النفس، حتى بعد تنظير الأوزان وعروض الشعر على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي، بل إن الخليل نفسه اصطدم بما يعتقد شواذ من الأوزان الشعرية التي أعرض عنها، ولا ننسى أبا العتاهية حين قال قوله المشهورة: (أنا أكبر من العروض).

ويرى المتتبع للشعر العربي القديم الكثير من محاولات الخروج على الأوزان العروضية، غير أنها مع اختلافها لم تنفصل عن الاتجاه العام للموسيقى الشعرية، حيث قامت على التفعيلة وتكرارها، أو تجاوزت تفاعيلين وتكرارهما، ولا يفوت علينا أن كثيراً من الرواة المحترفين قاموا بتعديل وتصحيح كثير من الأوزان الشعرية أو اختاروا الروايات التي تتمثل الصحة العروضية..

الحدائث الشعرية إكسير الحياة الأدبية

البلاد السعودية – و (مرآة الجامعة 1407/08/28هـ)

"لقد كان ليوسف الخال سبق والريادة في احتضان تلك الحركة والتبشير لها – إن كان خيراً أو شراً – وذلك يوم أن اعتلى منبر الندوة اللبنانية في يناير 1957م، ليلقي محاضرته الشهيرة بعنوان: "مستقبل الشعر في لبنان"

تعني الحدائث في جوهرها عموماً إحداث تغيير وتجديد في المفاهيم السائدة، والمترجمة عبر الأجيال نتيجة تغيير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن. والحدائث أمر لا بد من مجاراته للتطور، والبناء الفكري، والتفاعل الإنساني والكوني، والإنسان خلقه الله مجبولاً على حب التغيير، جانحة نفسه إلى التجديد، فهو سريع التأثير بالتوعية الفكرية المتنامية على مستوى الفرد والمجتمع بل والعالم كله، وهو يتمايل حسب اتجاه التيارات التي تهب عليه من هذه الأمواج المتلاطمة، يتكيف معها، ويستفيد منها، ويسخرها لمصلحته... من هذا ندرك أن الحدائث أو التغيير أو التجديد مطلب حتمي من حتميات البناء الإنساني...!!

ضوابط:

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل الحدائث بما تعني في جوهرها من خروج على العرف والمألوف فكرة يمكن للمرء في بلادنا الإسلامية التي تملك تصورات ربانية عن الكون والحياة أن يتخذها واحدة من قناعاته في الحياة دون ضابط من خلق أو وازع من دين؟! هل يمكن للمسلم أن يقبل كل جديد أو طارئ دون قيد أو شرط؟

والجواب في رأيي أن الجنوح إلى التجديد شيء ربما تدعو إليه مقتضيات الحياة، غير أن الخروج الفج على الأعراف والتقاليد بما لا يتفق مع الفطرة النقية والذوق السليم ليس مما أوصى به ديننا الإسلامي الحنيف، وليس مما يقبله العقل الرشيد، وإنما الأمر يدعونا إلى أن نجعل هناك حواجز وموانع وضوابط يعبر منها كل وافد وجديد في إطار من القيم الفاضلة، والخلق السليم، حتى تحمي من الانزلاقات الخطيرة التي تردي بالمجتمعات والقيم الإنسانية السامية.

وتتمثل هذه الحواجز والضوابط في أمور ثلاثة: أولها ضابط الدين، فإن وافق الوافد الجديد قيم الدين ومبادئه فلا ضير حينئذٍ من احتوائه واستقباله، وثانيها ضابط العقل الرشيد المتدبر في ذلك الوافد أسبابه، ومسبباته، ونتائجه، وثالثها ضابط الغاية، بحيث لا يشكل ذلك الوافد الجديد معول هدم لموروثنا الإسلامي، وتراثنا الفكري، بل تكون الغاية الرئيسة فتح نوافذ جديدة في العقل الإنساني للإطالة على الجديد الذي يبني الفكر، والحديث الذي يرقى الوجدان، ومن ثم تنحو الإنسانية جمعاء نحو السعادة الحقة، والسلام المشهود.

عن الحداثة الشعرية :

تلك موازين الحداثة وضوابطها في جميع مناحيها، غير أن الذي يعيننا منها في هذه العجالة هي الحداثة الأدبية بعامة والشعرية بخاصة. فما هي إذن الحداثة الشعرية؟ يرى بعض المنظرين أن الحداثة الأدبية عموماً والشعرية بصفة خاصة بدأت مواكبة لتطور الشعر في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، غير أن ثمة فريقاً منهم يرى أن البدايات كانت مبكرة جداً، تعود بذورها الأولى إلى العصر الجاهلي هذه البدايات الأولى للحداثة في شعرنا العربي قد تجسدت واضحة في تلك التجاوزات اللغوية والنحوية والعروضية، وما عدّه النقاد من الضرورات الشعرية.

وأكثر المنظرين والمبدعين يعتقد أن الأمر خاضع للتطور الفكري ومحاولات الشعراء أنفسهم التحرر من قيود القصيدة الكلاسيكية، وقد بدأت تبشير تلك المحاولات في أواخر

القرن التاسع عشر، وبلغ الأمر ذروته في أواخر النصف الأول من القرن العشرين، وطوال النصف الثاني منه.

فظهرت مدرسة الديوان التي أبحاث الشعر المرسل، ثم تجسدت تلك الحداثة جليةً في مدرسة أبولو التي نهلت من روافد المدارس الأدبية الأوربية، واتسعت أكثر عند المدرسة المهجرية من حيث اللغة والنحو، بل إن فريقاً من النقاد المعاصرين يرى أن النثر الأدبي المهجري الذي ألفه جبران خليل جبران هو الركيزة الأولى لشعر الحداثة.

وأياً ما يكون فإن مدرسة الشعر الحر سرعان ما برزت في أوائل القرن العشرين على أيدي جماعة من الشعراء أمثال: نازك الملائكة، وشاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي، وكذا الشاعر السعودي محمد حسن عواد الذي نشرت له قصائد في صحيفة (القبلة)، وغيرهم كثيرون.

وهؤلاء اعتمدوا في شعرهم على التفعيلة وأعلنوا الاعتماد على السطر الشعري، وليس البيت جملة، ويتكون السطر من تفعيلة واحدة وربما تعددت التفعيلات حتى تبلغ الثمانية.

مجلة شعر:

حين يُذكر اسم الأديب (يوسف الخال) لاشك أن الذهن ينصرف مباشرة إلى (مجلة شعر)، ودورها المؤثر في الحركة الأدبية عموماً والحداثة الشعرية على وجه الخصوص في العصر الحديث. وكانت لهذا النوع من الحداثة المكسرة لمألوف الشعر العربي جماعة من الكتاب والأدباء اتفقت مشاربهم ومقاصدهم، واختلفت أساليبهم وإسهاماتهم، ومن أشهرهم: أنس الحاج، وأدونيس، خليل حاوي، وعصام محفوظ وغيرهم.

والباحث في تلك الحركة الأدبية الحديثة لاشك يقف على أثرها البالغ في الشعر العربي، بل إنه يلحظ آثارها عن بعد في شعر جبرا إبراهيم جبرا، وبدر شاكر السياب، وتوفيق الصايغ وغيرهم.

لقد كان ليوسف الخال السبق والريادة في احتضان تلك الحركة والتبشير لها، وذلك يوم أن اعتلى منبر الندوة اللبنانية في يناير 1957م، ليلقي محاضرته الشهيرة بعنوان "مستقبل الشعر في لبنان"، التي عاب فيها على الشعر العربي في لبنان زاعماً تخلفه عن روح العصر، وداعياً إلى الأسس التي ينبغي أن ينهض الشعر بها، ومنها: التعبير عن الحياة، ووحدة التجربة، ضرورة الإفادة من الشعر العالمي.

علاوة على ذلك فقد أشار في محاضرته إلى سمات الشاعر المبدع في رأيه، فهو يرى أن الشاعر المبدع يجب أن يكون معنياً بالتجربة الإنسانية، رافضاً أي الخضوع للماضي وموروثه، متحرراً من كل قيد أو تقليد قديم متبع!

وعموماً فقد كانت تلك الحركة الأدبية الوافدة على الشعر العربي لها اتجاهاتها التي تخالف الدين والمنطق والعقل، وتجعل من الشعر وسيلة لتكوين مفاهيم وافدة على المجتمع، وتبني التدمير والهدم بصراحة مطلقة، وتقوض جميع ألوان الموسيقى الشعرية، وتجور على اللغة أحيانا كثيرة محاولة التنصل من معياريتها.

كما أعلنت عدم رضاها عن الأسس الاجتماعية السائدة وعدم رضاها أيضا عن الصروح الشاخخة من التراث، وأعلنت في صراحة أن الإبداع يرفض أن يكون بناءً أو إكمالاً له، بل هو معارضة ومخالفة وتحرر وليس له من أسس ثابتة أو معينة يقوم عليها إذ الهدف هو العودة إلى الفطرة البشرية.

اعترافات:

والنتيجة الآن هي شيوع الشعر الحر في الساحة الأدبية على نحو لا يكاد المدارس معه أن يتبين عدد الشعراء الذين يقرضون الشعر على نهجه، وتطور الأمر إلى قصيدة النثر التي لاقت رواجاً في العالم العربي نظراً لسهولة تبنيها وتحررها من الضوابط المألوفة للقصيدة العربية القديمة.

وعنها تقول سوزان برنار (هي قطعة نثر موجزة بما فيه الكفاية، موحدة، مضغوطة، كقطعة من بلور.. خلق حرّ ليس له من ضرورة غير رغبة المؤلف في البناء خارجاً عن كل

تحديد)، وإيقاعها إنما يكتب خصوصيته من الألفاظ وتتابعها، والصور وتكاملها، والموسيقى الداخلية للقصيدة عموماً.

غير أن الإنصاف ليدعونا إلى القول بأن ربح الحداثة حين لامست أوصال القصيدة العربية المعاصرة، وخلعت عنها أثواب الأوزان والعروض، وألبستها أردية الشعر الحر، وقصيدة النثر، قد فتحت الباب على مصراعيه ليدلف إلى محراب الشعر أدعياء الشعر، وأنصاف المهويين، ومنحت الفرصة لجمهرة من الأدعياء الانتساب إلى الشعر، وشجعتهم على نشر إنتاجهم الرديء، فامتألت المكتبات بالشعر الركيك، واختلط الجيد من الإبداع بالغث الرديء، ففسد الذوق وتجراً على الشعر من ليست لهم موهبة أو دراية.

وهذا الزخم الهائل من الشعر، كما يدعي أصحابه، أغضب الرواد الأوائل لشعر الحداثة، وأعلنوا عدم الرضا، والشعور بالإحباط، ومعاقبة النفس والضمير، لأنهم اعتقدوا أنهم فتحوا الباب لهذا اللون الغريب الذي خلف سحياً من الضباب على الأدب، وأفسد الشعر وشرع يحيد به عن جادة الصواب، وينحرف به عن مساره السليم.

وهذا جبرا إبراهيم جبرا يقول: "فقد الشعر العربي قدسية كانت له، وأن الشعر يتزعزع، اليوم ألف واحد يكتب ألف قصيدة، لا أحد يهتز، إنني متخوف من أنني وجيلي مهدنا لهذا النوع من الشعر"⁽¹⁾.

وتقول نازك الملائكة: "الأجيال الأخيرة يمكن أن نسيمها بأجيال الإحباطات وفي عصور الإحباط تعترى الأدباء المبدعين أنفسهم الحيرة والتمزق والضياع، بحيث يفقدون نقطة ارتكازهم، فتصبح كتاباتهم أشبه بالكتابات التي لا هدف لها أو غاية تسعى إلى تحقيقها، وينعدم التواصل بينهم وبين جمهورهم".

وأعلن محمود درويش في العدد السادس من مجلة الكرمل قوله: "إن هذا الذي يسمونه شعراً حديثاً ليس شعراً إلى حد يجعل واحداً مثلي متورط في الشعر منذ ربع قرن مضطراً لإعلان ضيقه بالشعر، وأكثر من ذلك يمقته ويزدره ولا يفهمه"⁽²⁾.

(1) مجلة إبداع - أبريل 1985م - ص 140

(2) المرجع السابق - ص 140

المأزق الحدائثي:

والتهم التي وجهت للحدائثة الأدبية لاسيما في الشعر، وناصبته العدااء يمكن حصرها فيما يلي:

- لما كان الشعر هو أرق وأعذب ألوان البيان، وقد وضع الخليل بن أحمد بحوره وأوزانه سلفاً معتمداً في ذلك على ما وصل إليه من أشعار الموروث العربي، فلا يُعدّ إذن شعراً ما خالف الشعر العمودي، وخصائصه المعروفة كالوزن والموسيقى.
- الحدائثة الشعرية لا تعني الخروج على المألوف المتوارث عن القدماء، ولا تعني كذلك أن يخرج من النثر قصيدة شعر، فكلاهما له لغته التي تغيّر الأخرى، ولذا فالدعوة إلى تسمية النثر شعراً دعوة غير مقبولة ولا تستقيم.
- النثر لغة الخطاب اليومية فيما الشعر لغة إبداع ذات مجالات وأوقات ومقاصد مختلفة.

غير أن الأمر - فيما أرى - هو أن حق الكتابة والتعبير مكفول للجميع، فمن حق من شاء الكتابة أن يكتب ما شاء، غير أن من أصيل حقنا أيضاً أن نقبل منها ما نقبل، وأن نرفض منها ما نرفض.

حقاً إن الحدائثة التي تسللت في عروق القصيدة العربية في العصر الحديث لاشك حملت تجديداً في الشعر والمضمون، ونحت بالشعر نحو فضاءات متحررة من الكبت والجمود، ولربما كان أنصارها على حق حين زعموا أن الشعر المبدع هو ذلك التجمع الزاخر بالمعاني الجميلة الموحية المكهرب بالأخيلة الفنية والصور جمالية، غير أن ادعاءهم بأن الشعر تعبير موحٍ مؤثر لا يحتاج إلى الوزن بقدر حاجته إلى الشكل أو المضمون هو ادعاء محل نظرو حافة خطر .

ورغم كل ذلك إذا نظرنا نظرة موضوعية فإننا نستطيع أن نرى كثيراً من القيم الجمالية في القصيدة العربية بثوبها الجديد، التي تتمثل في العمق الفكري، واللغة الشاعرة، والإيحاء الشعوري الزاخر بالإشارات.

ونبتغي لهذا اللون الجيد النماء والرقي والازدهار، ونترقب له نقاداً مستنيرين ذوي رأي عدل ومنصف، يضطلعون بشرف النقد الحر الذي يرشق قلمه في النص موجهاً ومرشداً، وكاشفاً عن مواطن الركافة والخلل، ومواطن الجمال والألق الفني؛ فيقوم المعوج، ويناصر الجيد.

ولست أرى أن التسمية أمر ذات بال، أو حجر عثرة، فليسموا القصيدة ما شاء لهم من مسميات: شعر حر، أو قصيدة التفعيلة، أو قصيدة النثر، أو النثر المشعور، فإن ذلك عندي ليس مهماً في الإبداع الفني، وإنما الأهم أن يفرض النص وجوده من حيث العمق الفكري، والاتجاه الإنساني، والقدرة الاستيعابية والإيحائية، والسمة الجاذبة للقارئ، المهيمنة عليه، المؤثرة فيه.

خلاصة القول: إن صوت النقد الحر المنصف ليقبل الحدائث والتطوير في قالب القصيدة الشعرية شكلها ومضمونها معاً، إذ الحدائث إكسير الحياة الأدبية بيد أننا ننشدها حدائث بناء لا هادمة، حدائث إبداع لا تضليل فيها، حدائث تجديد لا تقليد، حدائث منطلقة من الأصالة لا دعوة إلى البتر والانفصام، حدائث تؤمن بالإنسانية والروحانية، والفترة، والبناء الفكري، لا حدائث ضباب وأمواج وتخبط في الزيف والأوهام.

نحن نرفض تكبيل الفن وتقييده غير أننا نصر على وجود الإضاءات والإشارات والأنوار التي تهدي الضال وترشد الحائر وتساعد على السير في الدروب الآمنة وتكشف الحسن من الرديء.

باختصار نحن من هذا المنبر لا نعارض التجديد، ولا نرفضه لكن نعارض الإفراط والتهور والانتقال من تقليد تراثنا إلى تقليد آخرين.

قضية الأدباء والأحداث

(جريدة الرياض 1411/05/19هـ)

"ولما كان الأديب لاسيما الشاعر هو أكثر النفوس رقة وتأثراً بمجريات الأحداث، وجنونه الشعري يكسر حاجز العقل، ويطلقه حراً في سماء الإبداع، فقد فاضت تجاربه الشعورية ورشق قلمه في عمق المأساة العربية..."

تتمحور في التجربة الأدبية عناصر لا ريب في تكوينها للعمل الأدبي تلك هي: العاطفة، والخيال، والشعور، والفكرة، ونسج الكلام وتأليفه على نحو يقع في النفس موقعاً جميلاً، ناهيك عن المؤثرات الخارجية، والمكونات الفنية الجمالية.. وثقاس جودة العمل الأدبي بتمازج هذه العناصر وتماوجها من خلاله.

ولقد فجعت الأمة العربية لإسلامية بكارثة الغزو العراقي للكويت في أغسطس عام 1990م، ذلك الغزو الذي يستند على ادعاء عراقي بأن الكويت إنما كانت جزءاً من ولاية البصرة التي تقع جنوبي العراق إلى أن منحها البريطانيون لأسرة (آل الصباح) التي ما زالت تحكم الكويت حتى الآن.

وما من شك في أن آثار ذلك الغزو الغاشم قد انعكست على الإنسان العربي عموماً، والشعراء خصوصاً، فتوالت القصائد الشعرية التي تناولت هذا الجرح العربي النازف في أرض العروبة. وقد فجر هذا العدوان بركاناً في الفكر العربي الإسلامي، وأحدث صدمة هائلة للعقل الجمعي العربي، وبات أعلام السياسة والاقتصاد والإعلام، وحتى الأدب يترقبون عن كثب ما سوف تسفر عنه الأحداث.

ولما كان الأديب لاسيما الشاعر هو أكثر النفوس رقة وتأثراً بمجريات الأحداث، وجنونه يكسر حاجز العقل ويطلقه حراً في سماء الإبداع فقد فاضت تجاربه الشعورية، ورشق قلمه في عمق المأساة العربية، واصفاً لها، كاشفاً عن أسبابها، ممهداً الطريق لضرورة إعادة التدبر في مكونات الذهن العربي، ومن ثم تدارك ما أسلمنا إلى هذه المعاناة، والعمل الجاد على صياغة عقول الناشئة على معايير الثوابت الإيمانية، والمنهجية العقلية، والقيم العربية الفاضلة وتربيتها على قيم الحق والخير والجمال، ومن ثم يمكن للعقل العربي حينئذٍ أن يتخلص من إفساد الأنظمة الفردية التي أشعلت الحروب، واستبدادها الفكري، وفسادها الإعلامي.

وقد رأينا غزارة في الإنتاج الشعري المتأثر بالحدث لأنه الفن الأقرب نسباً لعنصر فجائية الحدث، ولأنه الفن الأدبي الأقدر في رأينا على رصد واقع الإنسان الحياتي، وشحذ الذهن بمشاهدات تُعين المرء على قراءة واقعه وتدبره، ولأنه الفن الصالح لنفث الشعور الحائر الذي تصعقه تيارات الإعلام المتوالية، المختلفة الاتجاهات، والمتنوعة الجينات، التي تؤدي إلى اشتعال النفوس واضطرابها، وإضرار نار الشك في سكينة النفس وسلامها، بحيث لا تكاد تستبين الحق من الباطل..!

والنظر المدقق في شعرنا العربي الذي انبثق من أتون تلك الأحداث يكشف عن ملامح الاتجاه الانطباعي كشعر الدكتور غازي القصيبي، والدكتور إبراهيم العواجي، والدكتور محمد بن حسين وقصائدهم تتميز في جوهرها بشمولية الفكر، المطعمة بالنبضات الشعورية، المصاغة في قوالب فنية جمالية.

ويتبلور الاتجاه الإسلامي الذي ينظر إلى الحدث نظرة إسلامية في أشعار الدكتور عبد الرحمن العشماوي، والدكتور زاهر عواض الألمعي، وهناك الاتجاه الإيحائي كشعر الدكتور عبدالله الحامد، والدكتور محمد الخطراوي وتظهر ملامح الاتجاه الشعبي الذي يميل إلى السطحية والإثارة.

كما رأينا أيضاً أطرافاً من شعر العلماء الذي ينجح إلى العقلية والمنطقية.

وأياً ما يكن فقد شارك الشعراء بأقلامهم في ذلك الحدث الأليم، وتألقت أنوار القصيد وإشعاعاتها بدرجات متفاوتة، وتوهجت التجارب الشعرية على أنحاءٍ متباينة، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن الموقف هنا لا يفرض علينا قبول التجربة لجمالها الفني، وإنما الذي يؤصل معيار جودتها إنما هو مواكبتها للحدث وصدقها الشعوري. وتأثيرها في نفس المتلقي. وقد ساهم الشعراء على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم الأدبية في رسم الواقع العربي الأليم جراء الحرب الخليجية، وقد كتب الباحث الأستاذ علي شجاع العتيبي رسالته عن هذا اللون من الشعر، وقد قمت بالإشراف على رسالته القيمة الثرية.

التيه وأنوثة الفكر الأدبي

"ونفاجأ اليوم في ميدان التطور الفكري بتلك
الدعوة الغريبة إلى ما يسمى بالفكر الأنوثي، تلك
الدعوة التي تنطلق من قاعدة أن الأنثى دائماً في
حالة صراع كوني مع الرجل، ومن ثم يتحتم
الهجوم على الفحولة...!"

اطلعت على ملحق الأربعاء في (10/8/1418هـ) الذي يضم حواراً مع الأديب
والناقد السوري كمال أبو ديب، فراعني ولفت انتباهي وصمة الأدب بالاستنامة، فقلت في
نفسي: النوم أخف وطأة من التدمير والضعف والدعوة إلى أنوثة الفكر الأدبي، وما لبثت
نفسي المضي في مطالعة الملحق حتى بلغت الصفحة الأخيرة، وطالعتني مقالة (رصاصه ود)
لصاحبها قناص، وقد تحدث عن تيه الشعر الحديث، والحق إن حديثه أثار شجونني، وهيج
عندي الرغبة في الكتابة.

لقد طفق الأدب العربي يسلك في مراحل تطوره عبر عصوره المختلفة مسارات عدة،
يرصد ويسجل تاريخ الشعوب وآمالها، ويحفظ للأجيال اللاحقة تراث أجدادها القدامى. أما
الأدب الحديث فلم يظهر بثوبه الجديد إلا بعد أن أثمرت حركتان هامتان هما: إحياء التراث
القديم، والترجمة عن الآداب الغربية، الأمر الذي أفرز مذاهب ومدارس جديدة في الأدب لم
تكن موجودة من قبل، وانصرف الأدب الحديث إلى التعبير عن الحياة والمجتمع الحديثين،
وتصوير مشاكل الناس واهتماماتهم وأفكارهم.

وأهم ما طور الشعر الحديث كان الشعور القومي والوطني الذي بلغ ذروة تأثيره في
الشعر عند أبي القاسم الشابي الذي اعتمد القصيدة العمودية ولكنه ألبسها ثوباً يلائم طبيعة
عصره. وبفضل مدرسة الديوان، التي تضم العقاد، والمازني، وعبد الرحمن شكري، وبفضل
مدرسة المهاجر الشمالية بريادة إيليا أبو ماضي، ومدرسة المهاجر الجنوبية التي تضم رشيد

سليم الخوري، وفوزي المعلوف، طفقت القصيدة العربية الكلاسيكية تهتز أمام التيارات الجديدة، وارتجت أوزانها وبجورها لدعاوي تلك المدارس الأدبية إلى ضرورة التجديد في الشعر، من خلال الخروج عن المألوف، وإعلاء الأنا في الشعر، وتصوير أحاسيس النفس تصويراً مباشراً.

أما عن رواد جماعة الديوان فقد اتبعوا المدرسة الانجليزية التي تولدت عنها الرومانسية، غير أنهم مالوا بالشعر نحو الوجدان العقلي، وولجوا في داخل الإنسان بعقلية مضطربة، متمردة، فنجم عن ذلك طغيان مشاعر القلق والحزن، والألم على شخصيات ذلك الرهط، فالانزواء لازم شكري، والعبثية العقلية سحقت المازني، أما العقاد فقد نجا من تلك التيارات الساحقة لتواصله مع التوجيه الرباني، وتنمية فكره. وقد قادت هذه المدرسة مع قصر عمرها الزمني هجوماً وتمرداً على الشعر المحافظ، وتولدت عنها الذاتية المتشائمة المحطمة للفرد المسلم المتمثلة في الرومانسية العربية، والمدرسة المهجرية الشمالية (الرابطة القلمية) وإن تطورت الأخيرة إلى مواجهات فكرية صريحة مع الدين. ولم يزل الصراع محتدماً حتى اليوم بين أنصار القديم الذين يلتزمون الوزن الواحد والقافية الواحدة في القصيدة، وأنصار الشعر الحر الذين يناصرون الاقتصار على التقييد بال تفعيل الواحدة، والتزام عدة قوافٍ متنوعة بديلاً عن القافية الواحدة، بل التحرر منها كلية أحياناً على نحو ما رأينا في قصيدة النثر التي ظهرت في الساحة الشعرية فيما بعد.

ولما شرعت أقارن بين جديد هؤلاء الشعراء المحدثين، وأشعار أخرى لشوقي وحافظ تبين لي كم كان الخروج عن التقليد المعروف للقصيدة العربية شعاراً أصيلاً لديهم في نتاجهم الشعري..!

فالحداثة الشعرية عندهم إنما تركز على فكرة التمرد، والذاتية السلبية، والاتباعية الغربية، وتخطيط الأوزان، الأمر الذي تولد عنه ضعفاً في الموسيقى، وركاكة في اللغة، وشيوعاً للعامية والألفاظ الأعجمية، ولكن شعراً كمثل شعر شوقي وحافظ رغم حداثة موضوعاته ومواءمته لروح العصر كان في القمة من حيث الالتزام بالقوالب الفنية القديمة،

والموسيقى الموحية، والخيال المحلق والشراء اللغوي الراقى، والتأثير الذي يداعب النفس والوجدان.

ومع ضعف الأمة ساد هذا الاتجاه الذي فرق شمل المفكرين والأدباء، وحارب الفكر الذي يدعو إلى صلاح الفرد وفاعليته لذاته ولمجتمعه ووطنه ودينه، وحطم القيم، وثبّط الحماس الذاتي والجمعي، وقاد إلى مرحلة من التحطيم الكلي للدين والفكر والتراث، كما حاول أنصاره أن يهدموا اللغة نفسها..!

وهذا أدونيس واحد من أولئك الأدباء الذين أعلنوا صراحة موقفهم من الموروث القديم؛ إذ تبنى وجهة النظر الداعية إلى تحطيم قيود الفكر العربي القديم، وكان معبراً عن تلك الرؤية أصدق تعبير، حين قال: "بما أن الثقافة العربية، بشكلها الموروث السائد، ذات مبنى ديني، أعني أنها ثقافة اتباعية، لا تؤكد الاتباع وحسب، وإنما ترفض الإبداع وتدينه، فإن هذه الثقافة تحول، بهذا الشكل الموروث السائد، دون أي تقدم حقيقي. لا يمكن، بتعبير آخر، كما يبدو لي، أن تنهض الحياة العربية ويبدع الإنسان العربي، إذا لم تهدم البنية التقليدية السائدة للفكر العربي، وتتغير كيفية النظر والفهم التي وجهت هذا الفكر، ولا تزال توجهه".

لكن لماذا يكتب أدونيس بلغة القرآن، ألم يكن أحرق به أن يكتب بالعامية، أو بأية لغة أخرى؟! لماذا يجترّ فلسفة الشاذين كأبي نواس، والحلاج، وغيرهما، إنه أتمودج لرهط من أدباء هذا العصر، يقولون ما لا يفعلون..!!

إنها النزعة الهدامة لتحطيم أمتنا العربية على مستوى الفرد والجماعة. ونفاجأ اليوم في ميدان التطور الفكري بتلك الدعوة الغريبة إلى ما يُسمى بالفكر الأنثوي، تلك الدعوة التي تنطلق من قاعدة أن الأنثى دائماً في حالة صراع كوني مع الرجل، ومن ثم يتحتم الهجوم على (الفحولة) أو ما يعبر عنه بـ (ذكورية اللغة) الذي هو في حقيقته هجوم على اللغة ذاتها وتشويهها. إن اللغة العربية عند كمال أبي ديب وغيره ممن تبنا هذه القضية لغة فحولية ذكورية متسلطة، مستبدة بالمرأة.

لقد أقرّ الناقد السوري كمال أبو ديب في ثنايا حوارهِ مع ملحق الأربعاء الذي نطالعه بين أيدينا بثبوت النص القرآني الكريم، وإن اختلفت تأويلاته عبر العصور.

وهذا برهان عنده على تعدد التأويل في النص الإبداعي، والخلاف ليس في تأويل النصوص إنما في تركيب النص الإبداعي الجديد الذي لا يقوم فيه التأويل على قرينه أو برهان، إنما هو متعدد القراءات غائر في الغموض.

كما يرى أن ((من الأحرى البحث في أساليب تفسيرية متجاوزة للنص الأدبي الواحد، بحيث تصب جميعها في معرفة أوثق بالنص الأدبي، لا أن تعارض إحداها الأخرى)) وهذا ليس بالرأي الجديد؛ فالعلماء أقرب رحماً مع مساحة الاختلاف الواسعة، ولينظر في أقوال العلماء حول قضية الاختلاف، لكن الاضطراب يتجلى في كونه دعا إلى نفي التعارض ثم أثبت التناقض.

لقد ذهب إلى أن النص في ((العمل الأدبي العام لم يعد يفصح عن إيمان بالوحدة، ولم يعد مجسداً لرؤية توحيدية، بل أصبح أقرب إلى التشظي والتفتت، هذا إن شف عن رؤية على الإطلاق)) إذن فالنص في زعمه إن أنبأ عن اختلاف فكري فإنه لا يفصح عن فكر أصلاً!..

ثم شرع يبني علي ما تقدم قاعدة اجتماعية سياسية، فهو يرى أن ((ما حدث في العالم أن الوحدة قد انهارت ولم تعد سوى الكيانات الصغيرة المتشظية والناتجة عن تهدم الكيان الكلي الذي كان قائماً على مستوى العالم وعلى مستوى الرؤية المفهومية، وعلى مستوى الوعي)).

ولعمري متى كان العالم في وحدة شاملة؟ ألم يكن الخلاف قائماً منذ قابيل وهايبل؟ ألم يكن الخلاف الأيديولوجي موجوداً منذ القدم؟ ثم يواصل الرجل استعراض رأيه، فيقول: ((ومن ثم فإن الرؤية التي من الممكن أن تلم بهذا النثار هي الرؤية التي تعتمد مبدأ التجاور لا مبدأ الوحدة)) وتلك دعوة سافرة للفرقة تحولت إلى أنثوية العالم العربي التي يدعو إليها في نظريته الجديدة التي أسماها (النظرة الأنثوية)، وأفسح المجال لها كي يوضحها بقوله: ((النظرة الأنثوية للعالم التي أشرت إليها ليس معناها تفضيل المرأة على الرجل، فهذا الانحياز النوعي جزء هامش من هذه النظرة، لكن المقصود بالنظرة الأنثوية تلك إعادة تقييم البناءات المفهومية والأيديولوجية للعالم، من خلال نظرة أخرى تنزع إلى الانتصار للصغير

والجزئي، للهامش والمستبعد للأثنيات العرفية والمجتمعات الصغيرة في مواجهة سياسة التدويل والتكتل التي هي سياقات ذات طابع ذكوري سلطوي صارم)). ثم يقول مردفاً: ((إن النظرة للمرأة بوصفها النوع البشري الأضعف والأقل قيمة والمسيطر عليه لم تعد تقابل إلا بالنقد والاستهجان على سياق الأدب)).

لقد ادعى الرجل أنه منحاز للمرأة، بيد أنه احتقرها من حيث لا يدري حين شبهها بالصغير الجزئي، وتارة بالهامش والمستبعد. هو قائد فكري إذن ينتصر لكيان المرأة الضعيف في مواجهة السلطة الذكورية حسبما يزعم..!

والمرأة ليست بالكائن الضعيف كما يرى أبو ديب وأمثاله، إنها كيان له استقلالته وكرامته في الإسلام، وهي ليست كما يدعي البعض نصف المجتمع، بل هي المجتمع كله، لأنه لو سلمنا بكونها تعادل نصف المجتمع عدداً، وأضفنا إلى ذلك كونها مصنعة للرجال، فإنها إذن تساوي المجتمع كله.

علاوة على ذلك تفردا برقة العاطفة، وتدفق الحنان، ودفء الأمومة، كل ذلك في رأيي عوامل قوة لا ضعف، وتفرد لا تهميش، وامتياز لا إقصاء. والأدب العربي نفسه يفيض بالكم الهائل من العبارات الأدبية التي تصف المرأة بالجمال والعفة والرشاد والإبداع. إن الإسلام هو الذي وضعها حيث تستحق، وأكرم منزلتها بحيث لم يدع للمتحدلقين والأدعياء فضلة يمنون بها عليها، ألم يوصّ نبي الإسلام معشر الرجال بها خيراً؟!.

وما زال داعي التيه والشتات ينحو نحو أستاذه أدونيس داعياً إلى التحلل من هيمنة المعتقد، والوطن، وكل ما ينتظم معالم الوحدة والتلاحم. إنه لا يريد أن يجتمع مثقفو الأمة على كلمة سواء، يقول: ((القصيدة العربية تشهد اليوم تحولا جذريا على مستوى الرؤية والتقنية، لم تعد الأيديولوجية مسيطرة على أذهان الشعراء، وأعني بالأيديولوجية النسق من الأفكار الذي يجمع المثقفين تحت لوائه سواء كانت عقائدية أو سياسية أو على مستوى التكنيك المستخدم)).

لماذا لم تغضبه هيمنة السياسات الغربية المناهضة للقومية العربية مثلاً؟! ألم يكن حرياً
به أن يشغل باله بأمور أخرى تستحق من كل مثقف أن يرشق فكره وقلمه في الحديث
عنها؟!!!

لماذا لم ير في النشاط الكنسي المتوحد الفاعل في العالم العربي علامة تأخر؟ ألم تسترع
انتباهه تلك الجموع السنوية الغفيرة التي تظل خاضعة الأعناق لخطبة البابا أكثر من أربع
ساعات؟ ولماذا لم يغضب للمساعدات الضخمة التي تمنحها الدول الثرية للبابوية،
والمحاولات الغربية الخبيثة للمد التبشيري في ربوع بلادنا العربية من خلال ذلك الزخم
الإعلامي، وتلك القنوات الفضائية الهدامة؟ التي تتغنى للشر وتحض على الانحلال الخلقي
والسلوكي؟!!! أين فكر هؤلاء النقاد والأدباء الأذعيا من هذه القضايا الساخنة؟
بل أين الأدب الهادف الذي يبني الأمم عقلاً وفكراً وسلوكاً؟!!!.

الصحافة والأدب

أم القرى نموذجاً

بحث علمي مقدم لمؤتمر الأدباء الثالث عام

1431هـ

بقلم

أ.د. مسعد بن عيد العطوي

استهلت صحيفة أم القرى بداية القرن الرابع عشر الهجري، لتكون نقطة الشرارة التي تنطلق بها حاملة فكرها الرائد إلى القارئ العربي في جزيرة العرب. وكان ذلك متزامناً مع بدايات قيام وتأسيس العهد النهضوي الجديد، عهد الدولة السعودية الرشيدة.

لم يكن يومئذٍ ثمة دور للطباعة أو الصحافة، أو حتى تربة خصبة تحتضن الكتاب العربي، ولا مناخاً فكرياً يقدر قيمته، ويُعلي من شأنه كعامل ثقافي فاعل في إحداث النهضة الشمولية المنشودة في البلاد. بيد أن عناية الله شاءت أن تنزل رحماته فتعانق بكاراة العقول الحائرة، وتبدد قساوة الحياة القاحلة، وتدفع بريح التغيير إلى ربوع الجزيرة، لتمحو الغشاوة، وتجلي العقول، وتُعيد الدرب لتأسيس دولة عظيمة قوام نهضتها: الدين والعلم.

حينئذٍ أشرقت شمس صحيفة أم القرى وأطلت على البلاد والعباد في عام 1343هـ، ودلف إلى محرابها كبار العلماء، لينشروا أفكارهم، واتجه إليها الشباب الواعد؛ ليدلوا بأرائهم، وحبجَّ إلى قبلتها شعراء الجزيرة المهوبون، لينشروا على صفحاتها نبضات وجدانهم، وومضات إبداعهم الشعري.

لا ريب أن ظهور صحيفة أم القرى في ظل تلك الظروف الاجتماعية التي بينها سلفاً، كان بمثابة الفرصة الذهبية التي عانقت أحلام الكتاب والمفكرين إذاك؛ والمنبر الثقافي الذي يثير آمالهم، ويهيج طموحاتهم في الظهور والتألق، والبرق الفكري الذي يبعثون من

خلاله موات أفكارهم، ومخبوء رؤاهم الأدبية والفكرية، ناهيك عن كونها - أعني الصحيفة - ميداناً يفتح نوافذه وأبوابه أمام رواد الكلمة والفكر، ويُغري بالتنافس البناء لمن يريد الشهرة والظهور. الأمر الذي دفع بكثير من الكتاب والمفكرين وذوي المواهب البكر الواعدة أن يلتحقوا بها.

وبعد أن استقر الأمن في ربوع الجزيرة، وانقضت حقبة من عمر أم القرى السعيد المضيء، وتمرس أرباب المواهب على الكتابة، وتكاثر المثقفون، وتكاثر تناجهم وإبداعهم شرعوا يجمعون كتاباتهم في أم القرى؛ لينشروها في كتب منفردة، وآية ذلك أن المكتبة العربية اليوم تزخر بعدد من الكتب الفكرية والأدبية، كان مصدرها الأوفر حظاً صحيفة أم القرى" نذكر منها على سبيل المثال:

- 1- "خواطر مصرحة" لمحمد حسن عواد
- 2- "المعرض" لمحمد سرور الصبان
- 3- "أدب الحجاز" لمحمد سرور الصبان
- 4- "وحي الصحراء" لمحمد سعيد خوجه وعبد الله بالخير
- 5- "الموسوعة الأدبية للساسى"
- 6- "أقلام الشباب الحجازي"
- 7- "معجم المصادر الصحفية (أم القرى)"
- 8- "نشأة الصحافة" لمحمد الشامخ
- 9- "محمد سعيد خوجة" لمحمد بن سعد بن حسين
- 10- "تاريخ التعليم في مكة" ترجمة عبد الرحمن صالح عبد الله.
- 11- كانت مستودعاً للشعر و القصة و المقالة حتى تجسدت في دواوين شعرية و مجموعات قصصية .

أولية الأدب والصحافة

اعتمدت بدايات الصحافة العربية على الأدب، وقامت على أكتاف الأدباء، وظلت السيطرة معقودة للأدباء حتى الخمسينات من القرن العشرين؛ فكل مقالة تكتب بأسلوب أدبي، وتصدر الساحة آنذاك النثر الكلاسيكي القوي الهادر على يد محمد عبده، والنثر الوطني المتحرر على يد سعد زغلول، والنثر المسجوع على يد محمد المويلحي، والنثر الرومانسي على يد المنفلوطي، والنثر الذي اعتمد على الفكرة والبساطة والوضوح عند جورجى زيدان، وقاسم أمين، كما ظهر النثر الساخر الممزوج بنوع من العامية، كما وُظفت القصة في الكتابة المقالية. الأمر الذي حدا بكثير من النقاد إلى طرح ذلك التساؤل: هل الأدب هو ما صنع الصحافة، وشدّ أزرها؟ أم أن الصحافة هي ما صنعت الأدب، وألقت به في دائرة الضوء والذبيوع؟!

أياً ما يكن، فقد كان جُلّ مؤسسي الصحافة من الأدباء البلغاء، كما كان من أبرز الكتاب الذين صنعتهم الصحافة، أو سلطت عليهم الأضواء: المنفلوطي، وطه حسين، والعقاد، ومصطفى صادق الرافعي، في مصر، وفي الشام: ميخائيل نعيمة، والريحاني، وجبران خليل جبران، وعدنان مردم، وغيرهم الكثير.

وكانت المساجلات الأدبية والمقالات التي كتبها أدباء العربية وقتذاك هي المحور الأساسي للصحافة العربية، ولم تكن الصحافة وقتها تحفل الخبر احتفالاً كبيراً، حتى اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى، فحدثت نقلة جذرية في مسار الصحافة العربية، وتحولت من يومها من صحافة رأي إلى صحافة خبر.

وقد انطلقت الصحافة في الجزيرة في مستهل القرن الرابع عشر الهجري بصحيفة حجاز ولايتي 1301هـ - 1884م، ثم تتابعت الصحف وتكاثرت في عام 1326هـ - 1327هـ. ومنها جريدة حجاز 1326هـ - 1908م، ثم صدرت بعدها شمس الحقيقة 1327هـ - 1909م، ثم تلاها الإصلاح الحجازي 1327هـ - 1909م.

وكان لهذه الصحف السعودية دور فاعل في الحركة الفكرية والأدبية في الجزيرة العربية، فقد تصدى لها بعض المثقفين الذين توافرت لديهم الدراية والاطلاع على الحراك

الأدبي في مصر والشام آنذاك، وعلى دعاوي التجديد في الأدب التي ظهرت في الساحة الأدبية وقتذاك، وطفقت الصحافة في بلادنا تحذو حذو الصحافة العربية في مصر والشام، وتتخذ من أدباء العربية وكتابها أمثال: العقاد وطه حسين، نماذج لها. ومن أشهر الصحف السعودية التي صدرت أعدادها بمكة جريدة القبلة قي 1334/10/15هـ وكان رئيسها من أشهر الكتاب في الشام وهو محب الدين الخطيب، الذي كان له دور في تأسيس المقالة الأدبية، وقد تولى رئاستها عدد من كتاب الشام الذين حملوا شعلة الكتابة الحماسية، وكذلك صحيفة الفلاح عام 1338هـ، التي أسسها عمر شاكر، وكان مندفعاً، حماسياً وصریحاً، وقد قيل عن القيلة والفلاح إن مقالاتها السياسية والاجتماعية قد كتبت بأسلوب أدبي مشرق، من حيث تأثره القوي بطرق التعبير الأدبية الجزلة. وربما أن محاربة التنزيل اللغوي هو الدافع لها من أجل بقاء اللغة العربية حية في الحجاز .

جريدة "أم القرى"

ثم أطلت على ربي الجزيرة العربية أنوار جريدة أم القرى في 1334/5/15هـ 1924/12/12م وانطلقت منذ بداياتها الأولى تحمل أهدافاً وطنية، وعربية، وإسلامية، وأدبية. وقد تولى إصدارها وتحريرها رهط من العلماء والأدباء والمفكرين الذين يحملون الهاجس الإسلامي العربي، وينهلون من الثقافة العربية التراثية، والثقافة المعاصرة، وقد اتسم أسلوبهم بالحماسة الشعورية، والاندفاع الوجداني، واكتست كتاباتهم بالأسلوب البياني الرائق.

وصحيفة أم القرى لم تتخذ الأسلوب الأدبي وسيلة وحيدة لا تحيد عنها، وإنما آلت على نفسها منذ البداية أن تفتح نوافذها لتيار الحداثة والإبداع الجديد، وأن ترحب بالأقلام الناقدة البناءة، كما جعلت نشر الإبداع بعنصره: النثر والشعر من أهم مقصدها، لاسيما الشعر الوطني الذي يرفع راية الوحدة الوطنية، ولعل من أشهر القصائد وأولها التي نشرت

على صفحاتها قصيدة الغزاوي في محرم عام 1345هـ، التي أعلن فيها الولاء للملك عبد العزيز حين عفا عن كل المواطنين

إلا لا تلمني اليوم أن أتكلم
فإن فؤادي بالأسى قد تكلم
إمام الهدى لازلت للدين موثلاً
يعز بك الإسلام والعرب والحمى

فقد تغنى الشاعر فيها بمنابح الملك عبد العزيز، وجمع فيها بين الوطنية والعروبة والإسلام.

وقد لعبت أم القرى دوراً أدبياً بارزاً في إذكاء شعلة الشعر العربي، وأضحت ديوان الشعر السعودي لسنوات عديدة، وانتشر على صفحاتها ألوان شتى من أغراض القصيد العربية، وتألفت في أحضانها القصائد الوطنية، والقصائد ذات المقاصد الدينية، والأغراض الحماسية، وبزغ في حلباتها نجوم الشعراء الكبار، أمثال: محمد بن عثيمين، والغزاوي، وفؤاد شاكر، وابن بليهد، وشعراء عرب آخرون، أمثال: الكويتي عبد العزيز الرشيد، والمصري أحمد محمد الكنانى، وغيرهما عدد كبير من الشعراء العرب. وقد قيض الله لذلك الشعر الذي تم نشره على صفحات أم القرى عدد من المفكرين والأدباء الذين أخذوا على عواتقهم عبء جمع شوارده، وضم مبعثه في ديوان ضخم كبير، تزخر به المكتبة العربية، ويسعد به القارئ العربي أينما وجد.

وقد حوت أم القرى عدداً كثيراً من المقالات الأدبية التي تعالج قضايا فكرية على مستوى العالم الإسلامي والعربي. كما ضمت عدداً هائلاً من المقالات الأدبية التي تعالج كثيراً من قضايا الوطن ومشاكله، والقارئ العربي الكريم يمكنه الاطلاع على الأعداد 118، 126، 242 الصادرة لصحيفة أم القرى وذلك على سبيل الاستشهاد لا الحصر، وقد اتسمت المقالات السياسية والاجتماعية المنشورة عبر أم القرى عموماً بالأسلوب الأدبي القائم على إبراز الفكرة في سلاسة ووضوح وجرأة، الأمر الذي دفع ببعض الكتاب في بدايات الصحافة السعودية أن يذيلوا مقالاتهم بأسماء مستعارة، وكان من أشهرهم ذلك

الصحفي الشهير "محمد سعيد عبد المقصود خوجة" الذي كان ينشر مقالاته الجريئة تحت اسم مستعار هو "الغربال"...!

وأول مواجهة صريحة للنقد الأدبي مقال له بعنوان (نقد الأدب في الحجاز) في العدد 390 من جريدة أم القرى الذي انتقد فيه منهج الأدب في المدارس الحكومية الذي يعتمد على دراسة الأدب العربي القديم، دون احتفاء بالأدب الحديث وأعلامه، ومن مقالاته اللاذعة، مقاله في العدد 391، وقد ورد فيه قوله: "والله ليس من العدل في شيء، ومن العيب أن نبقي على حالتنا. ومن العار علينا أن يتقدم غيرنا، ونحن نتأخر، ونكتفي بأن نردد في كل وقت أعمال الآباء والأجداد". وقد اتسمت كتاباته بمصداقية الطرح، ومعالجة القضايا الحياتية اليومية بمنظور النقد الاجتماعي الموضوعي، لتنقية عادات المجتمع من الشوائب.

كما كانت أم القرى حاضنة لغيره من كبار الكتاب الذين ذاع صيتهم فيما بعد، أمثال "عبد السلام الساسي" الذي كتب مقالاً مطولاً عن حركة الأدب في العدد 715 الصادر بتاريخ 23 جمادى الثاني عام 1357هـ الموافق 19 أغسطس 1938م، وكذلك (السيد) الذي كتب عن حاجتنا إلى الأدب القصصي في العدد 719 الصادر في رجب 1357هـ سبتمبر 1938م.

كما أزدانت الصحيفة الموقرة بالعديد من المقالات التربوية التي عرضت لمشاكل المجتمع السعودي، منها على سبيل المثال مقال بعنوان "مشروعات دار العجزة ودار الأيتام" العدد 670 الصادر في شعبان 1356هـ - 1937م، ومقال عن التربية الوطنية العدد 674 كتبه الغزاوي وقال فيه: "لاشك أن للتربية الوطنية أثراً بليغاً في ترقية الأمة، وإعداد أبنائها إعداداً يتكافأ مع المهمة التي يلقيها على عاتقهم مستقبل الأيام".

والتابع للمسيرة الصحفية لجريدة أم القرى "لاشك يقف على تلك الحقائق الجليلة الناصعة:-
1- كانت ديوان الشعر لأبناء المملكة لما يقارب عشرين عاماً، حتى تحولت إلى جريدة رسمية تعنى بالخبر الصحفي في المقام الأول.

- 2- لقد أثرت أم القرى الفكر العربي بالمقالات الأدبية المتنوعة، وتنوعت فيها المقالات الصحفية سياسية، وتربوية، واجتماعية.
- 3- مال فيها المقال الأدبي أحياناً إلى اللون القصصي.
- 4- كانت أم القرى مصدراً من مصادر الإشعاع الفكري والأدبي في المنطقة العربية، ولم تكن في أن تفتح ذراعيها لأدباء العرب إلى جوار بني وطنها من الأدباء، ومن ثم رأينا على صفحاتها مقالات لأدباء من الشام، أمثال: عبد الحميد الخطيب، وفؤاد الخطيب، وفؤاد شاكر وقد امتزج معهم شباب الحجاز، أمثال: محمد عواد وأحمد السباعي، ومحمد سرور الصبان، وأحمد الغزاوي.
- 5- ظاهرة الكتاب والأسماء المستعارة انتشرت بكثرة على صفحاتها، فلم يكن العهد الجديد قد تشكل على أرض الجزيرة في ملامح واضحة بعد، وكانت الرقابة الدينية والاجتماعية والسياسية أيامئذٍ مهيمنة. الأمر الذي كان له بالغ الأثر في ذيوع ذلك الاتجاه المتخفي عند جمهرة من الكتاب، وتواربهم في أسماء غير حقيقية.
- 6- شكلت أم القرى مصدراً لعدد من الكتب العربية المهمة، ككتاب "خواطر مصرحة" للعواد، وكتاب "المعرض" لمحمد سرور الصبان، وكتاب "وحي الصحراء" لمحمد سعيد خوجة، وعبد الله بالخير.

صوت الحجاز:-

ثاني صحيفة سعودية، وقد كان لأحوال المجتمع الثقافية والاجتماعية أثرها الواضح على تشكلها في عام 1350هـ/1932م، فقد غلب عليها الاتجاه الثقافي الفكري الذي يحمل الشكل الأدبي، وكان الأدباء هم الشريحة المثقفة التي أطلقت لأقلامها العنان، وشرعت تكتب في القضايا المعاصرة، وتستنهض إنسان الجزيرة ليتواصل مع حركة الفكر العربي والعالمى، وتطرح كل جديد ومفيد.

والمتابع لأعداد الصحيفة منذ بواكير ظهورها يلحظ أنها كانت تحاول اختراق السائد والمتفق عليه في الثقافة المحلية على حد زعم صاحب "معجم المصادر الصحفية لدراسة الأدب

والفكر في المملكة العربية السعودية" المفكر منصور إبراهيم الحازمي. فقد عمد كتابها إلى محاربة ألوان الحياة الاجتماعية القديمة، والانتصار لإرادة التطور والإصلاح، وغلب على أسلوبهم الطابع الأدبي شأنهم شأن كتاب صحيفة "أم القرى". ومن هنا تشكل الأسلوب الأدبي في صحيفة "صوت الحجاز"، كما تشكل من قبل في صحيفة "أم القرى"، وضمت الصحيفة إبداع أبناء المملكة شعراً ونثراً، وتنوعت على صفحاتها أقلام الكتّاب ما بين مقالات أدبية، ودراسات نقدية، وسجلات فكرية وأدبية حول الاتجاهات الأدبية السائدة المتباينة، وكان محمد سعيد عبد المقصود هو أول من نادى بتأسيس رابطة أدبية في المملكة، إذ نشر مقالاً في هذه الصحيفة بعنوان "الرابطة الأدبية في بلادنا وضرورة وجود غرف مطالعة ودراسة" وكان ذلك بتاريخ 1351هـ / 1932م. وهكذا ظلت "صوت الحجاز" منبراً ثقافياً فاعلاً حتى تحولت إلى صحيفة "البلاد السعودية".

مؤسسات صحفية بارزة

وتلوح في الأفق السعودي جريدة "المدينة المنورة" عام 1356هـ-1937م، وقد عُينت بالأدب منذ بداياتها، وإن لم تستطع منافسة "صوت الحجاز" وكان مؤسسها: علي حافظ وعثمان حافظ من الأدباء والشعراء البارزين. بيد أن الصحيفة فيما بعد قد أضحت حقلاً صحفياً خصيباً، لاسيما بعد صدور ملحقها المتميز "الأربعاء" الذي تنوعت اتجاهاته الأدبية، وتعددت أفكاره وأطروحاته، ومازال يواصل العطاء والمسيرة في بلادنا، ويذلل كتابه ومحرروه جهداً كبيراً في استقطاب الكتّاب، وطرح الموضوعات المستنيرة، ورصد الحراك الشعري والروائي. كما صدرت في عام 1376هـ-1956م جريدة "حراء"، وجريدة "الندوة" وجريدة "عرفات" وجريدة "الرائد".

وفي اليوم الرابع والعشرين من شعبان سنة 1383هـ (4/2/1964م) صدر مرسوم ملكي بشأن تقنين عمل المؤسسات الصحفية والأهلية، مشروطاً ألا يقل عدد أعضاء المؤسسة الصحفية عن خمسة عشر عضواً، ولا يقل رأس مالها في بداية قيامها عن مائة ألف ريال، وأن يكون العضو ذا دخل ثابت من عمل حكومي أو غيره.

وبناء على هذا المرسوم فقد أنشئت المؤسسات الصحفية التالية:-
 مؤسسة عكاظ للصحافة، وتصدر عنها جريدة عكاظ اليومية بمجدة
 "البلاد" = = = = البلاد اليومية
 = الندوة = = = = الندوة اليومية
 = المدينة = = = = المدينة اليومية
 = الجزيرة = = = = الجزيرة الأسبوعية بالرياض
 = اليمامة = = = = الرياض اليومية = واليمامة الأسبوعية بالرياض
 = الدعوة الإسلامية = = = = الدعوة الإسلامية بالرياض
 = اليوم للصحافة = = = = اليوم الأسبوعية بالدمام

الملاحق الأدبية

كانت الصحافة السعودية في بدايات ظهورها تتسم بالشمولية، وتنوع الموضوعات، وتعدد القضايا والطرح، غير أن صفحات الجريدة الواحدة لم تكن تتعدى الست صفحات، وكانت الصفحة الواحدة تقوم على أعمدة وزوايا، وكل قضية يتم عرضها في عمود صحفي أو زاوية صحفية، ثم سرعان ما تطورت منظومة الصحافة في بلادنا في أعقاب التطوير، والتقدم العلمي والتقني اللذان دبا في أوصال الحياة في ربوع الجزيرة العربية. ناهيك عن تقدم المجتمع السعودي نفسه اجتماعياً وفكرياً، الأمر الذي استدعى تغييراً جذرياً في واقع الحياة عموماً، وقد انعكست آثار ذلك التطوير الجذري على الصحافة السعودية، فقد تكاثرت موضوعاتها، ومن ثم صفحاتها، فظهرت الصفحات السياسية، والصفحات الاقتصادية، والاجتماعية، ثم ظهرت الملاحق الأدبية منفصلة ومستقلة عن صحيفتها. وكانت تمثل أولى بدايات ظهور الملاحق بشكل عام، ثم سرعان ما ظهرت في الساحة الصحفية الملاحق الرياضية، ثم الاقتصادية، لكن بمرور الوقت غلبت الملاحق الرياضية على غيرها من الملاحق الأخرى، وأضحى الاهتمامات الأدبية والثقافية تنشر في صفحات يومية، في أغلب الصحف السعودية، رغم كونها تتضمن قضايا فكرية، ورؤى علمية، ودراسات نقدية

تحليلية، وربما كان مرد ذلك إلى طبيعة البيئة التعليمية والاتصالية التي يعيشها أبناء هذا الجيل، التي باعدت بينه وبين قراءة الأعمال الأدبية والثقافية.

ومع ذلك خصصت بعض الصحف أحد أيام الأسبوع للملحق ثقافي وأدبي، من ذلك ملحق صحيفة الرياض، الذي استمر أكثر من خمسة عشرين عاماً، ومازال. واتخذ منهجاً لازمه في مسيرته منذ البداية، وهو الجنوح للتيارات الأدبية الأكثر حداثة، والاهتمام بالترجمة. ويُعدّ الأستاذ الشاعر "سعد الحميد" من مواليد الطائف الأب الروحي له، فقد عمل مديراً للتحرير لشؤون الثقافة بجريدة الرياض، ومشرفاً على الملحق الثقافي، وكتاب الرياض الشهري. ومن هذه الملاحق الأدبية أيضاً ملحق عكاظ الأسبوعي، وملحق الجزيرة الذي تحول إلى نشرة ملحقة منفردة ليوم الأربعاء ويشرف عليه الأستاذ إبراهيم التركي وفيه تنوع يقوم على الشخصيات المرموقة أكثر. و من أشهر الملاحق وأكثرها تواصلاً منفرداً ملحق الأربعاء بصحيفة المدينة المنورة و منها ملحق صحيفة اليوم .

المجلات

1-الإصلاح:

أنشئت مجلة الإصلاح في 15/2/1347هـ الموافق غرة أغسطس 1928م، في مكة المكرمة، وهي أول مجلة تعني بالشأن الثقافي الديني، والعلمي والاجتماعي، وكان يديرها ويشرف على تحريرها الشيخ محمد حامد فقي أحد علماء الأزهر، وكانت تصدر مرة في الشهر، ثم مرتين في الشهر، واتخذت المجلة منذ عددها الأول الآية الكريمة: "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت" شعاراً لها. وقد وجهت المجلة نداءً في أول عدد لها إلى المفكرين وذوي الأقلام الشريفة أن يمدوها بثمرات عقولهم من الفكر الراقى، والآراء البناءة، والكتابات التي تسهم في إخراج المجلة على النحو اللائق، وبما يجعلها روضة ثرية من العلم والأدب والفكر الخلاق.

وقد لاقى نداؤها قبولاً في أوساط الكتاب السعوديين والكتاب العرب، ورغم أن المجلة لم تكن تحتفي بالأدب والسياسة احتفاءً كبيراً، إلا أنها كانت تتسم بالمقالات المسجوعة التي كان يكتبها الأديب أحمد إبراهيم غزاوي.

2- المنهل:

تأسست في عام 1355هـ / 1937م، في المدينة المنورة، وهي أم المجلات السعودية، وأطولها عمراً، وأغزرها أدباً، وذلك لأن مؤسسها كان الأديب عبد القدوس الأنصاري، الذي رعاها، وبذل جهده وفكره، وصدقاته من أجلها، وكانت مجمعاً لكبار الأدباء والمفكرين والمثقفين، وميداناً لنشر الإبداعات الجديدة وكانت محفلاً أدبياً استقطب الأدباء من سائر أقاليم المملكة، واستطاع مؤسسها الأنصاري منذ بداياتها أن يبعد عنها الثلثية، ويستميل لها عليّة القوم، ويبعدها عن المخاطر والمنزلقات الصحفية.

وتعد "المنهل" مصدراً خصيباً من مصادر الأدب السعودي خاصة والأدب العربي عامة، وسجلاً تاريخياً للحراك الثقافي الفكري في المنطقة العربية، ولمسيرة الأدب والأدباء السعوديين، وذلك في أعدادها السنوية الممتازة، وإصداراتها الإبداعية والفكرية المتفردة. وقد وضعت المجلة نصب أعينها منذ البداية الحفاظ على تعاليم الإسلام، وإبراز اللغة العربية الأصيلة، وإعادة المملكة السعودية إلى مكانتها الأدبية بين الدول العربية.

ثم توالى بعد ذلك وتكاثرت المجلات الأدبية المختصة، ذات الطابع الأكاديمي المختص، على نحو ما نرى في مجلات الجامعات؛ فكل جامعة تصدر مجلة محكمة يتخذ الأدب حيزاً كبيراً فيها، وتطرح بعض الاتجاهات الحديثة، وتقوم فيها الدراسات ذات العمق البحثي المثمر.

وكذلك صدرت بعض المجلات من مؤسسات عريقة مثل مجلة (الفيصل) عن مؤسسة فيصل الخيرية، ومجلة (المجلة العربية) عن وزارة الثقافة والإعلام، ومجلة (الحج والعمرة) التي تصدر عن وزارة الحج السعودية.

وبعد أن أنشئت النوادي الأدبية والثقافية صدرت مجلات أدبية ونقدية عن تلك النوادي، وقد نجح النادي الأدبي بجدة في إصدار عدد من المجلات التي كان لها صدى في الوطن العربي وخارجه، منها: علامات في النقد، جذور التراث، والراوي، ومجلة عبقر، كما أصدر النادي الأدبي بتبوك مجلة أفنان، ووظائف، وحسمي، ويصدر النادي الأدبي بالمدينة مجلة العقيق، وبصدر نادي أبها مجلة بيدار، وغيرها.

قضايا الصحافة - أم القرى نموذجاً

استهلت أم القرى الصحافة السعودية، وارتسمت عليها ملامح التكوين الوطني بمكوناته الحضارية، والثقافية والاجتماعية والعمرانية والسياسية، وتدرج الحياة وتطورها؛ فأمر القرى رسمت خارطتها من خلال شرائح الوطن، فكانت النموذج الأول الذي وضع الأطر لتبويب الصحافة السعودية مع الاعتراف بالتطور في شتى معالم الثقافة والحضارة، وتشكل ذلك في زوايا من الصحيفة، ثم ازداد إلى صفحات، ثم تعددت الصفحات لتشمل موضوعاً واحداً، ثم ظهرت بعد ذلك الملاحق المفصلة عن الجريدة الأم.

والملاحظ أن بلادنا مرت بمرحلة من الأفول، أو التهميش سواء من نفسها أو من غيرها. الأمر الذي جعل دولة كبرى في البلاد العربية في ذيل السجل الثقافي الإعلامي في العالم العربي، وأنت لما تقرأ تاريخ الثقافة السعودية من مصادرها الأولى تدرك أنها بادرت مبكراً إلى صناعة الثقافة المعاصرة، وكانت من أبرز الحركات التنويرية التي ظهرت في الجزيرة حركة الدعوة في نجد، وتواصلها مع الجانب الشرقي للجزيرة مع البحرين وقطر والكويت والإمارات.

ثم ظهرت في الجزيرة حركة التمرد على الأتراك وصراع الأتراك من أجل البقاء، وقد ظهرت ملامح الثقافة في الصحافة السعودية منذ عام 1343هـ، فقد تكون المشهد الثقافي عبر هذا المنبر الجديد من خلال الدعوة إلى مؤتمرات إسلامية، والتفاعل مع وفود الحج، والتواصل مع المطبوعات العربية في مصر والشام، ثم ظهرت صحيفة أم القرى، وبادر الشباب المثقف بالدعوة الفكرية، ومن أعمدة هذا الاتجاه الكتاب من مكة المكرمة وجدة

والعرب المجاورين، والقارئ في صحيفة أم القرى يدرك استقطابها للعقول، ويدرك أن عقولاً مثقفةً أبدعت في محرابها، أمثال: محمد سرور الصبان، ومحمد حسن عواد، وأحمد الغزاوي، لكن صوت محمد عواد كان عالياً فقد كان يميل إلى الاتجاه الثوري في الفكر والمنهج، وإثارة القضايا الاجتماعية والتربوية بل حتى السياسية.

وقد كتب مقالاته ما بين عامي 1334هـ - 1344هـ. وسرعان ما جمعها في كتاب صغير بعنوان "خواطر مصرحة"، ويرى بعضهم أنه أول كتاب يصدر في بلادنا، وبعضهم يرى أن كتاب "المعرض" لمحمد سرور الصبان سبقه في الظهور، وهذا التاريخ الذي كتبت فيه المقالات وصدر فيه الكتابان هو عام 1344هـ - 1926م يُعدّ مبكراً بعد صدور دواوين عبد الرحمن شكري، والعقاد والمازني، وقبل صدور دواوين جماعة أبوللو أيضاً.

وقد استحدث الأدباء أساليب وطرائق متعددة لتنمية المواهب المبدعة، وإثارة القضايا المثيرة حول نظريات الأدب وتاريخه. منها طرح الأسئلة في الصحافة حول الأدب وتنافس الكتاب على الإجابة عليها، وأول من استهل ذلك محمد سرور الصبان في كتابه (المعرض) و(أدب الحجاز).

وقد أثار هذه القضية كثير من الأدباء مثل الأديب عبد القدوس الأنصاري في مجلة المنهل، وخص هذه الإجابة بالأعداد الممتازة، ومن هذه الكتب التي صدرت كتاب "وحي الصحراء"، و"موسوعة الساسي".

مهمة الأدب

تختلف مهمة الأدب من مرحلة إلى مرحلة، ومن عصر إلى عصر حسب متطلبات الإنسانية. فالأديب لاسيما الشاعر يحمل عبقرية وذاتاً شفيفة، ويدرك ما لا يدركه غيره، ويستشرف المستقبل، وهاجسه القضايا الاجتماعية، والسياسية. والعواد رغم شبابه ومكثه في الحجاز التي لم يخرج منها، لكنه كان مدركاً لفلسفة الحياة الكونية المتقدمة، فهو يكشف عن وظائف الأدب مبكراً عام 1345هـ - 1927م، إذ يقول في كتاباته:

أمامنا الوطن بمحاجاته المادية والمعنوية وما يتطلبه الشعر فيها!

أماننا العادات والأخلاق بما فيها من فساد يتطلب النقد!
أماننا الحرية بأنواعها، وما يجب من تمكينها في النفوس!
أماننا الشرق الكسول الخامل وما يجب من تنشيطه!
أماننا الطبيعة بظواهرها وباطنها ووحيتها للعقل والقلب
أماننا العرب بمجالتهم السياسية، وواجب الشعر في هذا المجال
أماننا الغرب باختراعاته ومدهشاته وأعماله وما يتطلبه المقام في ذلك من تمثيله
والحث على منافسته...

أماننا الحياة كلها بما فيها من خير وشر".
إذن: فما لنا نرجع إلى الوراثة حتى بالأدب، والأدب هو أول الطريق؟
جناية جناها على أفكارنا وأقلامنا الأقدمون فطأنا لها الرؤوس...
كفى يا أدباء الحجاز! ألا نزال مقلدين حجرين إلى الممات؟ وأقسم لولا حركة
عصرية في الأدب تقوم الآن في الحجاز بهمة ليف من أحرار الأدب العصري الحديث لما
عرف العالم شيئاً في الحجاز يدعى الأدب الصحيح.

فلسفة الأدب

تصدى الأدباء الشباب لتنظير الأدب بالنقد البناء الذي يدعو إلى تلاحم الأدب
بالحياة وتلونه بألوانها الجمّة، فهذا هو ذا الأديب يوسف ياسين الذي صحب تأسيس أم
القرى يكتب عن الأدب والحياة من عام 1344هـ-1927م، ثم يدلف إلى الحديث عن
فلسفة الأدب ونقده، وضرورة أن يكون الإبداع نبعاً من الحياة الفردية والاجتماعية في
مقالته الواردة بالعدد 570 من جريدة أم القرى في عام 1354هـ.

وتواصلت المقالات القوية حتى أصبحت قضية قوية دفعت ببعض الأدباء الشباب
أن يتعرفوا على آراء الأدباء الكبار المتمرسين، وقد بدأ بالفكرة محمد سرور الصبان
عام 1344هـ مخاطباً الأدباء بسؤال اللغة العصرية".

"جاءنا السؤال الآتي من حضرة الأديب محمد سرور الصبان، وكان قد وجهه إلى عديد من أدباء مكة ورأى أنني سأكون في عداد المحييين على سؤاله، وكنت سمعت انه سيجمع الأجوبة وينشرها في كتاب خاص، ولكنه لم يفعل إلى الآن وعسى أن يكون مصراً على تنفيذ هذه العزيمة في المستقبل.

السؤال هل من مصلحة الأمة العربية أن يحافظ كتابها وخطباؤها على أساليب اللغة العربية الفصحى، أو ينجحوا إلى التطور الحديث، ويأخذوا برأي العصرين في تحطيم قيود اللغة، ويسيروا على طريقة حديثة عامة مطلقة؟ والأجوبة جمعت في كتاب حافل سمي "المعرض" وقد طبعته المكتبة الحجازية بمكة.

"والجواب: ظاهر السؤال ينوه عن نقطتين: نقطة الألفاظ، ونقطة الأسلوب.

الألفاظ تحدث آراء الكتاب في عموم أنحاء الكرة الأرضية على نقطة مركزية للبيان العربي هي ضرورة ووجوب استعمال الألفاظ العربية كما جاءت بينائها الصرفي، وتركيبها اللغوي في قانون قواعد اللغة، وكما لفظتها ألسنة العرب في عصر التهذيب الثالث للغة العربية، وهو عصر قيام أسواق الأدب لعكاظ، وغيرها من مؤتمرات البيان، ولكن مع مراعاة الصقل.

وفي زمن ندرة المصادر الثقافية في الجزيرة، وقلة وسائل الإعلام، وضعف التواصل الثقافي، وندرة الصحف في الحجاز، وتأخر وصولها، وقلة الكتب المترجمة إلا أنك تذهل من مقدرة الشباب في بلادنا على استيعاب الثقافة العالمية، وفي طليعة هؤلاء الشباب المستنير كان الأديب الشاب محمد سعيد خوجه، الذي يكشف عن فلسفة الأدب وتنظيره ومهامه وضرورة تمثله للواقع الاجتماعي المعاصر له، وهو لم يكتف بالتنظير بل أخذ يدرس أدب الحجاز، كل ذلك ما بين عامي 1350 حتى 1355 هـ عام 1930 - 1936 م.

وقد كتب محمد سعيد خوجه مقالة حول نقد الأدب الحجازي في العدد 390 الصادر من جريدة أم القرى في عام 1350 هـ، أورد فيها قوله: "ما هو الأدب؟ هل الأدب تقبل للتقديم، وتمشٍ مع أساليبه، ومجاراة لنظمه وتكرار لأشياء محفوظة ماتت بموت عصورها

الأولى، وترديد معاني أكل الدهر عليها وشرب..؟ أم الأدب خلق، وفن، وابتكار، وإبراز
فكرة...؟

ومطلي هنا أن نريد أدباً حياً راقياً يلائم طبقة هذا العصر، ويتمشى مع تياره. فهم
عملوا لعصرهم، فجاء أدبهم يعبر عن روح عصرهم ويمثل لهم حياتهم بضروبها، وألوانها،
ويشرح لنا ثقافتهم ومبلغ درجتهم من العلم".
لقد نشرت المقالة في أوائل عام 1350هـ-1932م، وكانت بمثابة الكشاف الذي
يكشف عن ثقافة أبناء الوطن في تلك المرحلة المبكرة.

قضايا النقد والبلاغة

إن إدراك الشباب الحجازي بتطور الأسلوب العربي، وتحديد القضية النقدية الكبرى
وهي التمرد على الأساليب القديمة ظهر مبكراً منذ عام 1344هـ-1926م، وهي فترة
تزامنت مع الحراك الثقافي العربي في مصر والشام وبلاد المهجر.
وإدراكه يتمثل في البديل الذي يستقطب الحراك النقدي الجديد والأساليب الحية
التي تتواصل مع الحراك الثقافي في العالم مع الاعتراف بال نماذج الربانية، وما ولدته العبقرية
العربية القديمة.

وهذا يشير إلى إلمام أهل الجزيرة بالتطور المعاصر لهم، وأنهم لم يكونوا بمعزل عن
مصادر ثقافة العصر. ومقالات العواد تقوم على البرهان الذي يتكون من ضرب الأمثال لما
يرفض ولما يرغب. ومقالته بعنوان (البلاغة العربية) نموذج حي على ذلك، ولكنه تحدث فيها
عن قضايا مرتبطة بالتعليم، وهذا يشير إلى أن مرحلة المقالة مبكرة لم تتفرع إلى أنواع المقالة،
فالمقالة الواحدة تجمع عدداً من القضايا الأدبية والسياسية والاجتماعية.

تلمستها في جواهر الأدب فرأيتها تبعد 321 و 654 مرحلة

تلمستها في مولد البر زنجي فرأيتها تتلأمتسكة متعثرة

تلمستها في البردة والهمزية فرأيتها تمشي على استحياء

تلمستها في كتب الأشياخ فأجابتنى الكتب أن ليست هنا

تلمستها في المقامات فإذا هي لحوم ناضجة، ولكنها من حيوان غير مأكول اللحم
تلمستها في كتب السعد والجرجاني فأيتها تحشرح على فراش الموت
تلمستها في شعر المولدين فإذا هي عجوز شمطاء في زي حسناء
تلمستها في المعلقة فإذا هي منجم يحوي ذهباً في جنادل وصخور
تلمستها في الجرائد فإذا هي خروق بالية وأديم ممزق...
وأخيراً تركت البحث... ثم عدت فوجدتها.

وجدتها رعداً يقصف من نبرات القرآن فوقفت خاشعاً أمام معبدها
وجدتها ألقاً يلمع في مقالات بعض كتاب سوريا، فهزرت يدي وصافحتها
وجدتها ورداً ذابلاً في مقالات بعض كتاب مصر فهتفت لها مبتسماً
وجدتها في شعر المتنبي بتنوع يحاول الانفجار فلا يستطيع
وجدتها في نظرات المنفلوطي عروساً تزف ولكن بلا طبول
وجدتها في الريحانيات موجة تصعد وتهبط
وجدتها في كثير من شعر وكتابة مسيحي لبنان تسلس عن قيادتها.
ثم وجدتها في مترجمات فولتير وموليير وشكسبير، وبايرون، وجوته فقلت: واه لمجد
شعراء العرب.

الباحث في أعداد أم القرى يدرك أن أبناء الوطن قد عادوا إلى التراث العربي
الأدبي لينهلوا من معينه الصافي، ويكشفوا عن جمالياته، التي اختفت عند أسلافهم الأدباء
الأقربين عهداً حتى بداية القرن الرابع عشر وما سلف، واتخذ أدباء الجزيرة المعاصرون المنهج
ذاته عند الأدباء والشعراء العرب مثل البارودي، وأحمد شوقي وغيرهم. وأكثر الأدباء
تواصلاً مع تلك المرحلة هو الأديب محمد سعيد عبد المقصود الذي كتب مقالات متتابعة في
عام 1355هـ، ولم يقتصر على إحياء الأدب العربي القديم، بل كانت له نظرات في الأدب
الحديث إلى جانب النقد العربي لأدب الأدباء الحجازيين المعاصرين.

والشاعر فؤاد شاعر أحد الذين رأسوا جريدة أم القرى، وقد كان يكتب فيها وينشر
شعره على صفحاتها قبل عام 1356هـ، وكان يحمل اتجاهها إسلامياً ملتزماً، وكتب عن فكر

الأدب قديماً وحديثاً، وكتب عن أحمد شوقي وقارنه بالمتنبي، كما كتب عن ماهية الشعر، ودرس الشعراء العرب القدامى وعصور الأدب القديم، وكشف عن اتجاهاتهم الفنية، وقد كانت جُلّ كتاباته بين عام 1356-1358هـ.

ومن أشهر الكتاب الذين لهم آراؤهم، وكانت لكتاباتهم صدى يحمل فكراً تنويرياً هو الكاتب محمد حسن كتيبي، وقد ظهرت كتاباته عن الأدب في العدد 609 عام 1355هـ - 1936م، التي تناول فيها الأدب العربي القديم ومصادره واتجاهاته، ثم عرج على الأدب الحديث وكتبه ونقاده وتحدث عن العوامل المؤثرة فيه، وعن معنى القديم والحديث، وحاول أن يقارن بين الرافعي والعقاد في مقالات متعددة، وكشف عن الاتجاهات المختلفة في الأدب الحديث من خلال هذه الدراسات.

وكتب الأديب أحمد العربي عن تاريخ الأدب الحجازي، وعن الحياة الاجتماعية، وله مقالة قصيرة عن أهمية الأناشيد للأمة، أشار فيها إلى الأناشيد التي كتبها محمد علي، وتحدث عن أهمية تلاحم الأمة، وألح إلى أن كتابة الأناشيد والأغاني تحتاج إلى قدرات فنية عالية المثال، وهي مضمون مقالته الواردة بأمر القري العدد 394 في عام 1351هـ-1932م. وهذا يذكرنا بأول من دعا وكتب الأناشيد بمصر، رفاة الطهطاوي أحد العلماء المستنيرين الذي اتصل بأسباب الحضارة الغربية، فالذين يدعون إلى ذلك هم أولئك الذين استناروا بالثقافة الحديثة.

ومن أقدم الكتاب يوسف ياسين أول رئيس لتحرير جريدة أم القرى لم نجد له نتاجاً مجموعاً لكن مقالاته تنصدر الجريدة، وتدل على شخصية أدبية وفكرية واسعة الاطلاع، ومقالاته كانت شمولية، منها الأدبي والفكري والاجتماعي، ومن مقالاته النقدية مقالة بعنوان "صلة النقد بالحياة المنشورة بالعدد 570، والتي تناول فيها النقد بوجه عام للأدب والفكر والحياة.

ويوسف ياسين رجل علم شرعي وأديب وسياسي مفكر، وقد استطاع أن يقود الفكر في البلاد تحت رئاسته لصحيفة أم القرى رغم أن ذلك كان متزامناً مع بداية عهد تكوين دولة جديدة، ومع ذلك فقد تشكلت أم القرى من اتجاهات مختلفة، ولم تكن لساناً

ناطقاً لشريحة أو فئة، وجنح فيها ياسين إلى الأخذ بالأمور في وسطية معتدلة، ولو أنصفه الباحثون لكان له صوته المميز وقد تصدى لكتاب الصحف المضادة للوطن بأسلوب لا عنف فيه، يهدف إلى إظهار الحقيقة انظر إلى قوله في إحدى مقالاته المنشورة على صفحات جريدة أم القرى ذات يوم: نُشرت البلاغ المصرية الغراء لكاتب ما يأتي: قرأت في أحد جرائد الثغر الأسكندري أن (وزير مالية الحكومة الحجازية يهودي)... وهذا خبر غريب نكذبه.

الشعر:

صاحبت صحيفة أم القرى أهم مرحلة في تكوين الدولة السعودية فهي أول جريدة تتحدث بلسان السلطة، وهي الصحيفة الوحيدة لسنوات خمس، وهي ميدان النشر الوحيد للشعر، ويمثل الشعر في أم القرى سجل الوطن تاريخاً وسياسة وعمراً وبناء ووحدة وطنية، ودعوة لتطوير المجتمع، ومن خلاله انطلقت الدعوات إلى بناء مؤسسات التربية والمعارف، والشعر يرفع صوت البلاد الإسلامية والعربية، ويدعو أبناء الأمة الإسلامية إلى الوقوف على المنجزات.

وقد رصدت قرائح الشعراء ألواناً من إعجاب الأدباء والنخب العربية المثقفة بإنجازات الملك عبد العزيز في بناء الدولة السعودية الحديثة؛ فقد ذهل كبار المفكرين من الإنجاز العظيم للملك عبد العزيز ومنهم أحمد شوقي، وشكيب أرسلان، والعقاد، وطه حسين، إلى جانب أعداد كبيرة من العلماء والشعراء مثل الريحاني، وفؤاد الخطيب، وعبد الحميد الخطيب، وعلي الطنطاوي وشيوخ الأزهر. كل هؤلاء وغيرهم دون الشعر إعجابهم ببناء هذه البلاد.

وقد دون الشعراء حركة التثبيت للحكم في الحجاز، وانضمام المدن والأقاليم. ودحض حركات التمرد، ثم اتجه الشعر إلى التغني بالوحدة الوطنية، ووقف الشعراء على أمن الحج وطرقه، والأمن داخل مكة المكرمة. وأرخ الشعراء للمؤتمرات واللقاءات، وتابع الشعر مسيرة اليوم الوطني وتسابق الشعراء إلى الإشادة بهذا التكوين الوطني المثالي الذي ظهر في بيئة عانت من الجهل والفقر والصراع القبلي والإمارات الصغيرة.

والقارئ لأم القرى لاشك يقف على صور ذلك من خلال شعر محمد بن عثيمين في العدد 70 عام 1344هـ -1926م والعدد 229 والعدد 281، وكذلك من خلال شعر صالح بن سليمان بن سحمان في العدد 280 عام 1348هـ -1930م، وكذلك من خلال أشعار عمر إبراهيم برى الذي نشر قصيدته الرائعة في العدد 53 عام 1344هـ -1926م، وكذلك من خلال إبداعات ثالث الشعراء النجديين الذين صاحبوا سلطان نجد الملك عبد العزيز، وهو الشاعر محمد بن بليهد، الذي سجل معركة (تربة) قبل ضم الطائف، ثم نشرت له أم القرى في العدد 51 عام 1344هـ -1926م والعدد 102 عام 1345هـ، ثم توالى النشر له. وسجلت أم القرى مطولة خالد الفرج في العدد 184 عام 1347هـ -1928م في أعداد متلاحقة. وتنوع الشعر في أم القرى من حيث موضوعاته واتجاهاته ومنها الأناشيد الوطنية للشاعر محمد حسين عرب في العدد 629 -1355هـ.

وصحيفة أم القرى لا ريب كانت ملحمة للوثائق التاريخية والسياسية والإبداعية لاسيما في الفترة ما بين عامي 1343هـ حتى عام 1351هـ، ثم سرعان ما شاركته الدور الفكري والأدبي ونافستها جريدة (صوت الحجاز).

الكتاب والشعراء

وظهور صحيفة أم القرى كان له دوره في تكوين شخصيات فكرية وأدبية، وظهور عدد من الشعراء والقاصين، كما تألق فيها عدد كبير من الكتاب الشباب. منهم يوسف ياسين، أحمد الغزاوي، فؤاد شاكر، عبد الحميد الخطيب، محمد حسن عواد، محمد سرور الصبان، ومحمد سعيد خوجه، وعبد الكريم الجهيمان، وعبد الوهاب أشي، وعبد القدوس الأنصاري، ورشدي ملحس، إلى جانب أعداد من الشباب كتبوا فيها بعض المقالات ثم تألقت شهرتهم فيما بعد.

ودونوا فيها شعر الشعراء الأوائل ومنهم: محمد بن عثيمين، وصالح سليمان بن سحمان، وعمر إبراهيم البري، ومحمد بن بليهد، وخالد الفرج، وأحمد الغزاوي، وفؤاد شاكر، وصالح بن عبد العزيز العثيمين.

المقالة التاريخية

كتب يوسف ياسين عن المعارك الدائرة بين الملك عبد العزيز وخصومه استهلالاً من 1334هـ-1924م، وقد أرخت أم القرى تلك الوقائع اليومية بدء من ضم الطائف وحرهبها ودخول مكة، والحروب والحصار حول جدة، وعن الحالة السياسية التي صحبت دخول الملك عبد العزيز للحجاز، ونظرة العالم الخارجي إلى تلك التطورات السياسية الكبرى في أرض الجزيرة. وقد حفلت الأعداد الأولى لصحيفة أم القرى بتأريخ خصيب لتلك الحروب والوقائع الاجتماعية، والقارئ العربي العزيز يستطيع بسهولة أن يلمس ذلك من خلال اطلاعه على الأعداد (من 3 إلى 48) الصادرة من جريدة أم القرى بتاريخ 1344هـ.

ولم يقتصر الأمر على ما كتبه يوسف ياسين وإنما تبارى الكتاب المناصرين للملك عبد العزيز في حقل الكتابة الصحفية، وطفقوا يكتبون بأسماء مستعارة، على نحو ما رأينا عند الكاتب الصحفي الذي كان يذيل مقالاته تحت اسم "كاتب خبير"، فقد كتب من العدد 313 في 1348هـ-1930م حتى العدد 684 في 1349هـ-1931م، وكانت مقالاته أكثرها رسداً للوقائع والأحداث والانتصارات لجيوش الملك عبد العزيز.

ومن المقالات التاريخية ما كتب في الافتتاحيات، وكانت تتناول الوقائع اليومية للدولة وما يقوم به الملك عبد العزيز من إنجازات، وتحليل ما يصدر من قرارات سياسية، كما سجلت أحداثاً مهمة مثل وفاة الإمام عبد الرحمن الفيصل والد الملك عبد العزيز عام 1346هـ-1928م.

ثم توالى المقالات التاريخية المتنوعة ومن أشهر كتابها عبد القدوس الأنصاري، وعبد الله بلخير، وحمد الجاسر، وابن جهيمان، وأحمد العربي، ورشدي ملحس، وذلك من عام 1343هـ وتواصلت المقالات وتعدد الكتاب وموضوعاتهم.

المقالة الفكرية:

لقد أبدع العواد في مقالاته الفكرية بعنوان "فلسفة الحياة العصرية"، حيث تناول الحديث فيها عن جملة من المبادئ والقيم التي تُعد ركائز أساسية لبناء المجتمع العصري على يد

أسس سليمة. وقد تجلت عبقريته وثقافته في جمعه مكونات الشخصية المبدعة المنجزة المتفانية المخلصة، تأمل قوله: "الحياة العصرية هي - كما يقول عنها الكثير الأكثر من الكتاب ليست في التمتع بالمواد الجثمانية فحسب، بل حياة مزدوجة من ذلك، ومن صيغ الفكر الإنساني بصباغ الآراء والنظريات الصحيحة المنقحة التي اكتشفها العلم الحديث، أو أنتجتها الآداب الراقية، وكانت ثمرة من ثمرات اللياقة البسيطة في الحياة اليومية المتداولة!

- عش حراً.
- كن مفكراً.
- اعمل لتعيش.
- اترك التقعر وحب الظهور الكاذب.
- اندمج بعادات بلادك الصالحة.
- ميز ما تراه.
- اندفع إلى التقدم.

هذه هي دساتير الحياة العصرية التي يريدنا منا الفكر الإنساني العالي، والتي هي آخر ما وصل إليه فكر الإنسان من وضع سنن الحياة الكاملة مجذافيرها. وإنها علاوة على كونها أكمل الأنظمة التي اختارتها عقول المفكرين للعيشة السعيدة، فهي أيضاً أنظمة طبيعية خلق عليها الإنسان الفطري وارتقى إليها الإنسان المدني في أعظم أدواره حضارة وارتقاء.

كما كان طرحه الفكري لتعليم البنات مؤطراً للفكر الاجتماعي المتطور في ربوع المملكة العربية السعودية، تأمل قوله: "خذي نصيبك الواجب من التربية والتهذيب والتعلم والاطلاع والوطنية والشعور، وترسمي خطوات هؤلاء ولا أقول لك اسبقي، وانبغي، وترجمي، وحاضري، ولكن فكري واكتبي واقري واستعدي، وتعلمي ودعي التقليد، فأمامك مستقبل منير حافل بما حملته إلى الشرق وإلى الغرب وستحمله مدينة القرن العشرين.

ومعارف القرن العشرين، وأفكار القرن العشرين، ورقي القرن العشرين. دعي التقليد الفردي البليد، واسحقي الكسل الوراثي التليد. وحطمي قيوداً كنت ترسفين بها من أمد بعيد...

المقالات الفكرية:

قامت الدولة السعودية على بناء الفكر الإسلامي وحملت راية الدعوة السلفية وكان رمزها الأول ابن تيمية والشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولذا انطلقت الصحافة السعودية تحمل الفكر الإسلامي الرائد، وانبرى كتابها منذ البداية يعلنون من شأن القيم الإسلامية، فقد كتب يوسف ياسين في العدد الثالث من أم القرى عام 1343هـ-1925م عن الحج، ذلك المؤتمر الإسلامي العالمي وعن طرائقه ووجوب الابتعاد عن البدع. ثم كتب في العدد 14 عن الأعياد والبدع في الإسلام، وكانت الدعوة الإسلامية وقتها تحارب التدخين فكتب عنه، وكتب عن التوحيد وإحياء السنة، وموت البدع كل ذلك ما بين عام 1343هـ وعام 1344هـ. وكانت جل المقالات تنبع من وحي العلماء النجديين مثل الشيخ عبد الله بن بليهد رحمه الله الذي تولى رئاسة القضاء في مكة المكرمة.

ولم يقف الأمر عند هذا الإتجاه بل أخذت المقالات تتوالى على صحيفتي أم القرى وصوت الحجاز مثيرة جدلاً كبيراً حول القضايا المعاصرة لها.

القضايا التربوية:

إن الباحث الذي يعود إلى تفحص مكونات الثقافة السعودية لاسيما الصحافة يدرك مدى الوعي عند المثقف الوطني؛ فبعد بداية العهد السعودي أي في عام 1344هـ-1926م نجد مقالات تعج بها الصحافة السعودية، تعالج القضايا التربوية، ومن أبرز تلك المقالات في رأينا مقال بعنوان "بعث الإنسان" إن العنوان له دلالة الخاصة، فالإنسان لا ريب يُعد من الأموات إذا فقد التعليم، والعجيب أن يدرك الشاب محمد عواد ماهية التعليم، وما المناهج التي تبني إنساناً مثمراً مفيداً. تأمل فكره الراقى، وقلمه المبدع إذ يقول: أهو؟ هذا هو إحساسي الشخصي - على الأقل - قبل عشر سنوات من ذلك التاريخ. وبعث التاريخ من

أولئك الأطفال المائتين بين أيدي من يتعهدونهم بالتربية والتعليم والتوجيه هو لب الرسالة التي يجب أن تحملها المدرسة، وتحملها الأسرة ويحملها المجتمع.

ولقد شعرت بمرارة عندما عرفت أن هذه الوسائل الثلاث تمشي متباطئة في سبيل هذا البعث وربما لا تكفي بالتباطؤ فتضيف إليه الاستهتار.. فالتلميذ في المدرسة مهمل من هذه الناحية مع أنه هو المقصود بالذات من تشييد المدارس، والابن والبنات والخدام وربما الزوجة نفسها معهم في البيت لا يحسب حسابهم في بناء العائلة في حالة أن كلا منهم يقوم بدور فعال في تكوين الأسرة، والفرد الكادح -تاجرا كان أو موظفاً أو عاملاً صغير الشأن - لا ينال حقوقه كاملة في الجماعة التي يندمج فيها مهما يكن شأنها واسمها في الجماعات، بينما لا تقوم هذه الجماعة إلا بهؤلاء الأفراد واحداً واحداً، وكل عجز نفسي أو مرض أو فقر أو ذل يُترك لينمو في أي فرد إنما هو شلل وتأخر في جهاز الجماعة التي تهمله.. شعرت بهذا كله آنذاك فوجدتها مواداً تضيء طريق الإصلاح للذين يشتعل وجدانهم بواجب أداء رسالة الإصلاح نحو الوطن الذي يعيشون فيه ويعيشون له ويعيشون به، والأمة التي يقومون بها وتقوم بهم سواء عرفوا هذا أو لم يعرفوه، وللذين يريدون أن يصنعوا حياتهم من جديد على أسس صالحة للبقاء والتقدم.. وشعرت بأن هذه النواحي الضعيفة هي أوائل العمل المثمر وليست موضوعات للكتابة وللخطابة الجديدين وحسب، فأردت أن يرتفع هنا صوت يحمل بذور الثورة على هذه الأمور ويبشر بحياة يجب أن تخلق من جديد بأيدي القادرين على الخلق الجديد".

ونتيجة للوعي العام عند ولاة الأمر وعند المثقفين وما قاموا به من إثارة لقضايا التعليم فإن الدول بادرت إلى وضع أنظمة التعليم في مستهل عام 1345هـ، ونصت المادة الثالثة والعشرون من التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية "على أن أمور المعارف العمومية هي عبارة عن نشر العلوم والمعارف والصناعات وافتتاح المكاتب والمدارس وحماية المعاهد العلمية مع فرط الدقة والاعتناء بأصول الدين الحنيف في كافة المملكة الحجازية"

وجاء في المادة الرابعة والعشرين أن أمور المعارف العمومية تدار من قبل مديرية ترتبط بالنيابة العامة، وقد افتتحت مديرية المعارف العامة العمومية أبوابها في غرة رمضان

1344هـ، وبدأ التدريس في مدارسها في غرة محرم 1345هـ، وفي السابع والعشرين من شهر محرم عام 1346هـ صدر الأمر الملكي الكريم بالموافقة على نظام مجلس المعارف، ومما جاء في ذلك النظام:

- 1- يشكل مجلس للمعارف برئاسة مدير المعارف العمومية.
- 2- يتألف هذا المجلس من ثمانية أعضاء - عدا الرئيس - أربعة من كبار الموظفين وأربعة من أهل العلم غير الموظفين ويعين الجميع بأمر ملكي.
- 3- تتلخص صلاحيات هذا المجلس في إقرار موازنة إدارة المعارف العمومية والموافقة على تعيين المدرسين الذين يرشحهم المدير والأشرف على المدارس ودراسة حالة الكتابيب.

تحت عنوان (كيف تكونين؟) أول مقالة تعليمية عند العواد في عام 1345هـ، 1926م، طالب فيها فتاة الوطن بتعلم القراءة والكتابة، ثم تعلم الأدب والفكر. وقد ختم مقالته هذه بقوله:

لبنات جنسهن، وللرجال أيضا سلي تاريخ الحجاز، بلادك ووطنك الخاص، عن أولئك وهؤلاء وكثير غيرهن.. خديجة بنت خويلد، عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر، فاطمة بنت النبي، الخنساء بنت عمرو، هند بنت عتبة، ليلى بنت لكيز، حفصة بنت عمر، الزباء ملكة تدمر، بلقيس ملكة اليمن، قتيلة بنت الحارث، سفانة بنت حاتم طي الخ.

ثم ألا يدهشك أيتها العزيزة!

ألا يدهشك أن هؤلاء بنات جزيرة العرب؟!؟

أو لا يدهشك أن جلهن حجتزيات؟!؟

خذي نصيبك الواجب من التربية والتهديب والتعليم والاطلاع والوطنية والشعور، وترسمي خطوات هؤلاء.."

حاجتنا إلى تعليم البنات

ومن الأدباء الذين يدعون إلى التجديد بانفعال واندفاع الأديب أحمد سباعي وقد كتب مقالة جريئة تحت عنوان "حاجتنا إلى تعليم البنات" وكتب عن الأم الجاهلة وتأثيرها على بناء أبناء المجتمع. تأمل قوله: "إذاً فما بالنا نغضى عن إعداد الأمهات وتعليمهن على الأقل ما يلائم وظائفهن كمربيات وأمهات وربات أسر.

ويتناول بعضنا فينادي بالثبور، ويصم أنصار الفكرة بوصمة التفرج والخروج عن الدين، وينسى أن من مبادئ دينه فريضة طلب العلم على المسلم والمسلمة، ثم يتناسى تلك الصفحات من التاريخ المفعمه بأخبار أقطاب السيدات العربيات المسلمات المتعلمات وأثرهن البعيد في حضارة الإسلام وثقافته وعرفانه!. ويشدد النكير قوم يخافون من وراء تعليم البنات رفع صوتها كما لو كانوا يجهلون أخواتها في صدر الإسلام، أولئك اللاتي كن يخضن الصفوف، ويتخللن الرجال في حومات الوغى فيستثرون حماسهم، وبنات أبيهم أولئك كن يضرب إليهن أكباد الإبل للاعتراف من مناهل علمهن ومنايع فضلهن!. وتهلع قلوب فريق عندما تحدّثه عن مدارس البنات، كأن بدعاً من الأمر أن يكون للبنات مدارس، وما مدارس البنات سوى كتاتيب (الفتيات) القائمة اليوم بيننا مع تعديل طرقها المتلوية، وأساليبها العقيمة وقواعدها الضاربة في الفوضى إلى أبعد حد، وسن مناهج لها جديدة تدرج بالعقل فتربيه تربية صحيحة وتعدّه لتفهم مبادئ الدين على حقائقها، ومحاربة الخرافات والحزبيلات التي يتوارثها البنات عادة في بيوتهن من العجائز مخلقات القرون الماضية، ومن ثم تهيتتهن للحياة العائلية وتعدهن لسياسة البيت وتخصصهن في أصول التربية القائمة على أسس من المنطق والعقل.

هي ذي حاجتنا التي تهيب بنا لتعليم البنت، وهي كما يراها العادل، حاجة ماسة لا غنى لبلادنا عنها إذا كنا نريد لها رجالاً نافعين وقوّاداً عاملين!!

كما كتب رئيس تحرير الوطن مقالاً مطولاً بعنوان التربية الوطنية أساس في الأمة وواجب الآباء حيال الأبناء يقول فيه في العدد 674 عام 1356هـ: "لا شك أن للتربية

الوطنية أثراً بليغاً في ترقية الأمة، وإعداد أبنائها إعداداً يتكافأ مع المهمة التي يلقيها على عاتقهم مستقبل الأيام.

الناحية الاجتماعية

تحت عنوان أمة مهملة" عالج الكاتب قضايا الحجاز الاجتماعية، وتحدث عن التركيبة الحجازية التي شخصها عام 1344هـ-1926م بقوله: "كلمة قالها عن الحجاز"- ويعني بها الأمة الحجازية- شاب أسود. نعم أسود البشرة، سوداني الجنس، من القارة السوداء، من القارة المظلمة، من أفريقيا، من بلاد التوحش، من السودان، ولكنه مطربش ويرتدي حلة أفريقية، ريدنكوت، وهنا السر.

الشاب كما ذكرت أنفا ولكنه مترب وكفى، إنه من الأمة التي رباها ومدنها الانكليز. أه نعم وأبيك أيها الشاب الأسود! إنها أمة مهملة، تلك هي الأمة الحجازية التي عنيها. وكم هي هي مهملة إلى حد كبير ولا إهمال المتوحشين.

أمة مهملة" كلمة أمتني وإيم الحق ولكنها على إيلامها هي الحق -وهي الحق كله - والحق مؤلم دائما. وإذا أخذت أنظر وأعتبر يسبقني هذا الخاطر فيصرخ بي: من هي الأمة الحجازية التي تنتسب إليها؟ أليست خليطاً من أجناس عديدة شتى ترجع أصولها إلى الهندي والمصري والمغربي والجاوي والبخاري والتركي والفارسي وفيها أيضا من يرجع إلى الأصل السوداني، أصل الأخ، كشعوب الولايات المتحدة الأمريكية تماما.

بلى حقيقة هذا الخاطر، لا ريب هي مجموعة أجناس متكونة في أمة واحدة وبعبارة أخرى مزيج متكون من أصول وعناصر متحدرة من غرب آسيا وشمال إفريقيا، لا تناسب بينها في شيء سوى الدين، ولكن يجب أن لا تبقى هذه الفكرة حائلا بين الأمة الحجازية، وبين وحدتها القومية المطلوبة التي أصبحت اليوم أنشودة الأمم الناهضة جمعاء، تسكر بخمرتها. وتسعى إلى تحقيقها.

الأمة الحجازية أو الحجازيون أمة واحدة تربطها روابط متينة متعددة، تربطها الأفكار، تربطها اللغة، تربطها الدين، تربطها الوطن، تربطها السياسة، أفلا يجب أن تكون -

كما هي الحقيقة - أمة واحدة من كل الوجوه؟ وعلى هذا الحساب يجب أن تتحمل كل مسئولية تتوجه إلى الحجاز والحجازيين، وأن تكون محافظة على وطنيتها متمسكة بعروبيتها مهما تقلبت بها الأحوال. وإذا قيل أنها أمة مهملة-والحق يقال-فعلينا أن تقبل هذه الكلمة ولو بمرارة وألم، وأن تفتح أعينها إذا كانت لا تريد أن تكون مهملة.

وقد عايش أحمد سباعي المجتمع الملكي، واستمطر الثقافة المعاصرة، ونظر ملياً في تطور الأمم، مما جعله يقف طويلاً عند مكونات المجتمع الفردية والاجتماعية ويعالج قضاياها في عدد من المقالات، فهو يستنهض الأفراد، ويدفعهم إلى العمل والإنجاز والتعليم، انظر مقالاته "هات رفشك" و"حذاري أن تكون ضعيفاً" و"الذكاء الضائع في بلادنا" و"الجرأة: رجولة كاملة".

"هات رفشك"

ياصاحبي هات رفشك واتبعني!

هاته وقم في أثري ولا تسألني عن شي حتى احدث لك منه أمراً!

ألست من غراري أنت تعتلج في صدرك الآمال؟؟!

ألست من أضرابي تختمر في رأسك الأفكار؟؟!

ألست شاباً مثلي تتمتع بدم قوي يجري في عروقك؟؟!

ألست نشيطاً تستطيع ان تترك في الحياة أثراً؟؟!

قل أي وإذن أي أثر تركته في حياتك؟ وأي أمل مما يعتلج في صدرك، أو فكرة مما

يختمر في رأسك حققت؟ أو أي خدمة أداها دمك القوي لبلادك؟؟!

ويكتب الغزاوي في العدد 118 عام 1345هـ من جريدة أم القرى عن التطور في

خلال هذه المرحلة القصيرة من عمر الدولة تحت عنوان (بشائر التقدم):

"لاجرم أن كل منصف غيور على وطنه وبلاده إذا أرسل نظرة صائبة على الحالة

الأخلاقية في البلاد الجحازية في الآونة الحاضرة، وقارن بها مثلها في الماضي القريب يعترف

بوقوع تحول كبير.. ولا يسعني وأنا أختتم مقالي أن أغفل أمر الحركة الاقتصادية وما يدور

فيها من حيوية وتقدم مطرد، فالمكاتب التجارية تواصل سعيها لجلب حاجيات البلاد وبيعها.. والمتنورون من أبناء الوطن يعقدون الشركات في أنواع المتاجرات".

وكتب أيضاً عن مشروعات دار العجزة ودار الأيتام، وذكر أن أول إنشائها كان في عام 1353هـ وواصل كتابة تاريخها والدعوة إليها في العدد 670.

وقد سجلت أم القرى الفكر المنير المستنير لأبناء الوطن الأوائل، الذين طالبوا بتأسيس المؤسسات الاجتماعية، مثل دار الأيتام، بل نادوا بتكوين جمعيات لها، وتأسيس شركة للسيارات وللطائرات، وتكوين جمعيات الإسعاف (الهلال الأحمر)، كل ذلك في المراحل الأولى للدولة السعودية استهلالاً من عام 1355هـ، كما نادوا بمشروع اليتيم في عام 1356هـ-1937م، ومشروع دار العجزة، ودعوا في مقالاتهم إلى ضرورة التعاون والتكاتف من أجل صالح الأمة، ودعوا إلى مشروع (القرش)؛ لبدء النهضة الاقتصادية في مجالات مختلفة.

ومن أكثر الكتاب في موضوع الحراك الاجتماعي فؤاد شاكر، فقد كتب عدداً من المقالات من عام 1356هـ حتى عام 1364هـ، كما كتب عبد الحميد الخطيب مقالات متعددة عن المجتمع وعاداته وإسرافه وجهله، واقترح تنظيمياً للمصروف اليومي، وأشار إلى الجهل بفن التدبير. وغيرها من القضايا الاجتماعية والوطنية. ولو أخذ بآراء أولئك الكتاب الرواد لتغير مجتمعنا إلى الأفضل، لكننا مازلنا نعاني من بعض الأمراض الاجتماعية.

ونحن نعجب من رصد الأوائل لحراك المجتمع وانتقاداتهم لعاداته السلبية، التي ما زال بعضها موجوداً حتى اليوم، كالإسراف في المديح، والإسراف في الولائم، والإسراف في الادعاء، والاتكالية والسلبية، انظر أم القرى عدد 625 عام 1355هـ-1936م، وكذلك أعداد 626، 652.

ويكشف الكاتب (الغربال) محمد سعيد خوجه عن ظاهرة التلاعب بالزمن والوقت، وأن المجتمع في غفلة وعبث؛ فيقول عن الوقت: الوقت ثمين. الوقت من ذهب. الوقت يعمل فيه كل شيء فيجب أن نحافظ عليه بكل شيء، هكذا الوقت في نظر سكان أوروبا، والذي أصبحنا نقلدهم في السفاسف أما الأشياء التي من ورائها النفع فلم نقلدهم في شيء

منها... (العدد 391 عام 1350) كما يكتب مقالا عن كرة القدم في العدد 392، يذكر عدداً من الفرق الرياضية في جدة (الاتحاد، الرياض، الفلاح، الإخاء، والتآلف، والاتفاق، والنجاح)

وكتب أحد الكتاب تحت توقيع "متألم" عن الصحافة الحجازية ونصيبها في إصلاح المجتمع فقال في العدد 653 عام 1356هـ-1937م: "للصحف الشأن الأعظم في إصلاح المجتمع، حيث المدرسة الثانية للشعب والمعلم الثاني في إبراز حقائق الحياة المجهولة، والكشف عن معالم الحياة والإيضاح للرأي العام عما يحدث في العالم من تطورات في نظام المجتمع، وحوادث تمس نظام الحياة عامة، والحياة الاجتماعية خاصة وتؤثر فيها تأثيراً عظيماً..."

تعليم المرأة في الشعر السعودي

بحث علمي مقدم إلى مؤتمر في جامعة

الإمام محمد بن سعود

بقلم

أ.د. مسعد بن عيد العطوي

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونصلي على رسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وبعد...

قامت الدولة السعودية على أنقاض تركيبة مختلفة من التنازعات الفكرية مع اشتراك الجميع في المعتقد الإيماني، وتقديس النص القرآني، والأخذ بالسنة المحمدية، لكن الاختلاف كان نتيجة التكوينات السكانية والمكانية والتعليمية، أو عدمها، فالالتزام والأخذ بكافة مبادئ الإسلام: الواجب، والمحرم، والسنة، والمباح، والتطبيق الإلزامي للحدود كان موجوداً في ربوع الجزيرة، غير أن هناك أجزاء من الجزيرة لم تعهد هذا الإلزام الصارم، وإنما يحاسب الفرد ذاته، وهناك التواصل الثقافي الذي تشكل في الحجاز، بل له وجوده من قبل بظهور المذاهب جنباً إلى جنب، ثم جاءت الدولة السعودية، واختلف المجتمع حول استيعاب المتجدد المعاصر، ومنه تعليم الفتاة.

فهناك شريحة تحذر من تعليم الفتاة، الذي لم يسبق له مثيل من قبل، وهناك فئة دعت إليه لاطلاعها على معالم التكوين الحضاري المعاصر، لذلك كان اختلاف وجهات النظر في تلك القضية مصاحباً لبداية عهد النهضة، ولم يكن على الحوار المعتدل، وإنما على التصادم الحاد والمواجهة، مع أن الأمر يحتمل الوسطية من الطرفين؛ فالتعليم أمر لا بد منه بالنسبة للفتاة، شريطة الالتزام، وهذا ما حدث بعد ذلك بثلاثين سنة، حيث أعلن تعليم البنات، لكن الغريب في الأمر أن ذلك الصراع مازال موجوداً في بلادنا، ولعل الحوار الذي أخذ يطرأ برعاية خادم الحرمين الملك عبد الله ينقي الخلاف بين الفريقين.

وقد كان الشعر سباقاً للكشف عن ظواهر الاختلاف، فهذا محمد حسن عواد، يقول بصراحته المعهودة، وهجومه المنذف:

ضجوا وإن ضجيجهم لا للهدي ولا للسلام
يغنون بالضوضاء سيطرة تساق على الزحام
ويقابلون الفكر حراً بالوهوم وبالعرام
متألمين كما تكون الناهشات على العظام
مرضى وفي أرواحهم شبق الصغار إلى الخصام
يعظون باسم الدين من فتحوا الطريق إلى الأمام
لكأنما الدين الخفيف بضاعة الشيخ الإمام
يا هؤلاء الهواتف بالحلل وبالحرام
والصاخبون على الصراحة والثقافة والندام
من دون أن يتفهموا روح الخصام أو الوئام
ما في الديانة أن يحارب من يثور على الظلام
متفتقاً عما يذود النائم عن المنام
أي الكتاب جليفة أبداً تسدد كل رام
يقضي بمنطقه السليم على السخافة والقتام⁽¹⁾

توحدت الدولة السعودية عام 1351هـ، ولم يكن هناك مدارس ابتدائية على المستويين الحكومي والأهلي، ولكون الإدارة التعليمية برزت في مكة المكرمة، ولأن الثقافة في الحجاز أكثر تنوعاً وتواصلاً مع البلاد العربية في مصر والشام، فقد ظهرت عندهم المناداة بالتعليم مبكراً، حيث استهلها محمد حسن عواد، وطالب بتعليم الفتاة في كتابه "خواطر

(1) محمد حسن عواد - البراعم أو بقايا الأمس - 184

مصرحة الصادر في عام 1345هـ، وقبل هذا وبعده كانت ثمة كتاتيب للبنات في مكة المكرمة، يشرف على تدريسها بعض المعلمات، وربما كانت المعلمة تدرس البنين والبنات معاً كما أشار إلى ذلك أحمد السباعي في مقالاته و دونها في قصصه .

في عام 1351هـ قام بعض الشخصيات بإدخال بناتهم ضمن المدارس العامة، ولكن سرعان ما قاموا بإخراجهن من المدرسة⁽¹⁾، ثم افتتح محمد صلاح مجموع مدرسة للبنات في جدة عام 1351هـ، وكان عدد طالباتها 300 طالبة، واستمرت ثلاث سنوات، و كان التعليم فيها معتمد على العلوم الشرعية، وليست ضمن المناهج التعليمية.

وهناك عدداً من المدارس في مكة المكرمة منها: مدرسة هزازية، ومدرسة الفتاة بمحلة القرارة، وهي نظامية على منهج المعارف، وهناك عدد من الروضات في مكة وجدة والمدينة المنورة والرياض، افتتح أقدمها عام 1378هـ⁽²⁾، وقد تمنى المثقفون في الحجاز بناء المدارس مع انتقال السلطة إلى الدولة السعودية.

كتب محمد حسن عواد قصيدة بعنوان "داعي الوئام"، نشرت في بريد الحجاز عام 1344هـ، و هو يطالب فيها بالحرية الصحفية، وفي ختامها أشار إلى تعليم البنات:

أيـه فـتـيـاتنـا و آل أبـينـنا
 أن الـانـسـح دمـعـاً سـجـامـا
 أن أنـسـح دمـعـاً سـجـامـا
 سـبـيل فـكـر يـبـيـد الـآلامـا⁽³⁾

والعواد ينادي نداءً ضمناً إلى تعليم المرأة بمقارنتها بالمرأة في أوروبا، وهو يذكر بمجد العرب سابقاً، ويدعو إلى النهوض والتطور:

(1) انظر التيارات لعبد الله عبد الجبار 1 : 182

(2) انظر تاريخ التعليم في مكة - عمر عبد الجبار - 282

(3) محمد حسن عواد - ديوان بقايا الأمل - الجزء الأول - 42

فهل فكروا أن يرجعوه مجدداً
نرى فيه أخيه الغرب أطفال أمة
أهـابوا به يبغون فيه التفردا
نرى أنسات فيه غيداً وكواعبا
إلى نيله العلياء يمـشـين خـرداً⁽¹⁾

وأقدم قصيدة صريحة من الشعر قصيدة محمد حسن عواد في ديوانه الأول آماس
وأطلاس، حيث ناشد المجتمع أن يمنح الفتاة فرصة التعليم ، استمع إليه في قصيدته المرأة:

طفلة قد تجاوزت خمس سنين	غضة الحسن كغصن الياسمين
خطرت ترفل في ثوب الصبا	تعطف القـد يساراً ويمين
جلّ من صورها في قالب	يملك اللب ويسبي الناظرين
فوق ما أودع من أسراره	روحها السائر بين العاشقين
فهـي شمس في البها أو دمية	أو غزال نافر من صائدين
وهي مهد الطهر والعفة بل	هيكـل الحسن الإلهي المبين
وهي مجموع المعاني عند من	عرفوا حكمة رب العالمين
صاغها الله مثلاً قائماً	صافي المعدن كالماء المعين
هي مرآة المعاني والمنى	مسبح الأفكار مرمى الأملين
هي سر البحث في الشرق وقد	ضج فيها حكماء الأولين
وهي موضوع التعالي والعلا	كم عنى تهذيبها من نابغين
فأوروبـا رفعت من شأنها	إذ رآته اليوم من أسـمى الشؤن
وبنو الشرق أجلوا قدرها	حقباً ثم أضاعوها سنين

(1) محمد حسن عواد - ديوان بقايا الأمس - الجزء الأول - 26

والزوجة والحصن المكين
وجهة الفهم وسر المدركين
حكمة أم طريق النابيين
الجهل نأي في الخاملين
وبنات الشرق أساس الدين⁽¹⁾

واجب تهذيبها فهي لنا الأم
هي تعطي الطفل من مبدئه
فإذا أهدته من فطرتها
وإذا ما نفثت فيه على جهلها
فتاة الشرق في الشرق هدى

تعليم الفتاة:

القضية التعليمية استحوذت على عقول كثير من الأدباء الأوائل في بلادنا، فدعوا إليها ، وعالجوا مشاكلها، ورسموا خططها في مقالات متعددة، لا سيما قضية تعليم المرأة، من بين هؤلاء الأدباء أحمد سباعي، الذي نادى بتعليم المرأة في مقالة في كتاب صدر عام 1355هـ، ويعالج القضية بقوله: "يتناول بعضنا فينادي بالثبور، ويصم أنصار الفكرة بوصمة التفرنج والخروج على الدين، وينسى أن من مبادئ دينه فريضة طلب العلم على المسلم والمسلمة، ثم يتناسى تلك الصفحات من التاريخ المفعمه بأخبار خطب السيدات العرييات المسلمات المتعلمات".

ويقول: "وتهلح قلوب فريق عندما تحدثه عن مدارس البنات، أن بدعاً من الأمر أن يكون للبنات مدارس، وما مدارس البنات سوى كتاتيب (الفتيات) القائمة اليوم بيننا مع تعديل طرقها المتلوية، وأساليبها العقيمة ، وقواعدها الضاربة في الفوضى إلى أبعد حد، وسن منهاج لها جديدة تدرج بالعقل فتريبه تربية صحيحة وتعدّه لتفهم مبادئ الدين على حقائقها، ومحاربة الخرافات والخزعبلات التي يتوارثها البنات عادة في بيوتهن من العجائز مخلفات القرون المواضي ومن ثم تهيئهن للحياة العائلية وتعدهن لسياسة البيت وتخصصهن

(1) العواد ، الديوان 1:75 الطبعة الأولى 1398هـ-1978م

في أصول التربية القائمة على أسس من المنطق والعقل⁽¹⁾، كما عالج أمين العقيل قضية التعليم كاملة، وطرائق التدريس والمناهج⁽²⁾.

وينطلق أول صوت يعلن المطالب الاجتماعية لتعليم المرأة من نجد، على لسان الشاعر المحافظ عبد الله بن خميس في عام 1373هـ، وهي دعوة صريحة إلى لافتتاح مدارس البنات، وابن خميس يحمل هاجس الأم، ويدعو إلى النهضة والتطور، ويرى أن من معوقات النهضة الجهل للرجل والمرأة، ثم كيف التؤام بين الرجل المتعلم والمرأة الجاهلة، إن في تعليم الرجل، وترك المرأة خلل في التركيبة الأسرية والاجتماعية ثم خلل في التربية، فإن الجاهلة قلّ أن تربي أجيالاً متعلمة.

واملاً الكون بياناً مسهباً
تبعث الألمان من أعلى الربى
عن قريب أن ينال الشهباً
كلما جدّ به السير كَبَا
معلمات تتحدى السحبا
مشفقاً من وأده مرتقباً
يشهد العالم منها عجباً
ويشع النور من حيث خبا
ولنا الأرض أصاغت حقباً
في خنوع أبلغ السيل الزبى
عقر دار كان موتاً أقرباً
تمنع التعليم عن ذات الخبا

رتل الأنغام لحناً مطرباً
يتحدى الطير في أغصانها
رافع الرأس فخورا يبتغي
بعد أن كان مهيضاً خانعاً
يرقب الأقوام سارت حوله
وهو ينعي عند قومي حظه
فارقبوها نهضة علمية
يرجع التاريخ فيها نفسه
حين كنا أساتيد الورى
كيف صرنا بعد هذا عالية؟
إنه الجهل إذا ما حلّ في
يا نصير العلم هل من شرعة

(1) محمد سعيد عبد المقصود - وحي الصحراء - 93 : 95

(2) المرجع السابق - 183

إن خبيثاً أنجبت أو طيباً
دمية للهو فينا تجتبي
أعلنوا ضد النساء الحربا
ويعيش النشء فينا أعزبا
تقلب البيت جحيماً ملها
إن ينالوا العلم ضلوا الأدبا
لتحاذي بالرجال المنكبا
هتكت بين الرجال الحجبا
وكذا التفريط فيما وجبا
شاء من يبغي التعدي أم أبي
بيننا فقد المربي المجتبي
ليس من أملى الهجا أو كتباً⁽¹⁾

إنها في ذاتها مدرسة
فمعاذ الله أن تبقى بنا
وإذا ما ثقفت فتياتنا
وانبرى كل يقاسي دهره
كيف يرضى عالم جاهلة
يخرج الأطفال منها صورة
أنا لا أدعو لأن نخرجها
أو تنادي بعقوق أو ترى
إنما الإفراط فيها خطل
سنة الإسلام في وسط
يا نصير العلم من أدوائه
لا يربي النشء إلا حاذق

والشاعر إبراهيم علاف يغتبط بالعهد الجديد للتعليم على يد سمو الأمير فهد بن عبد العزيز (خادم الحرمين الشريفين) عندما تولى أول وزارة للمعارف عام 1373هـ، ويرى أنه فاتحة عهد جديد، ويدعوه إلى افتتاح مدارس للبنات، فلهن الحق كما للبنين الحق في التعليم، وهو من أوائل الشعراء الذين صرحوا بهذا المطلب أمام ولاة الأمر، وقد عرض عليه مشكلة بقايا الكتابيب للبنات والبنين، لتضاف إلى موكب الوزارة، فقد أدت دورها وحن الآن الاستغناء عنها بالمدارس الحديثة، ومن ثم فقد أنشد يقول في إحدى قصائده في 5-5-1373هـ:

حسب الثقافة ما قد رحمت تنويه

ماذا أرتل من فخر وتنويه؟

(1) عبد الله بن خميس - على ربي اليمامة 567 الطبعة الثانية - 1403هـ 1983م

قد اشترأت له شتى نواحيه
وفات عهد لها كانت تناغيه
فيها، وأضرارها في كل توجيه
من عجزهم حيلة إلا تناسيه

عهد جديد به الإصلاح مغتبط
هذي الكتابيب قد أدت رسالتها
يشكو الصغار إليكم سوء حاضرهم
أولى الرعية بالإشفاق 'ليس لهم

وهناك مدارس ليلية أهلية مكافحة الأمية يطالب بضمها إلى المعارف؛ ليكون لها
القدرة على مواصلة رسالتها:

تؤوي الغريب ومن وقت حواشيه
شعبية جهدها في البعث تعطيه
من الدراسة قسراً في دواعيه
وقدرة تتجلى في أياديه

وشد بفضلك للطلاب أبنية
واشمل بعطفك واستصلح مؤسسة
ضمت شباباً أراد العيش طلبتهم
كم بينهم من ذكي الفهم ذي هبة

ثم هو يعرض لتحديث المناهج، ويرى أن تلامس الواقع، وأن تخضع لدراسة تنأى
عن الفوضى:

لغيركم تتحدى أي تنزيه
عقل الشباب وأبلى في تلويه

وللمناهج فوضى لا نبوح بها
شطت عن الغاية القصوى وطاش بها

ويدعو إلى تعليم اللغات الأجنبية في التعليم العام:

وما لأضيافها بيت ثوليه

وللغات لدينا نظرة شحبت

وهو يعرض على الأمير قائد التعليم رجاءً يطالب فيه بتعليم الفتاة السعودية،
فالإسلام لم يجرمها من ذلك، بل دعا إلى تعليمها:

وللفتاة رجاء لولا الحجاب لما	وقفت عنها لديك الآن أبديه
العلم في شرعة الإسلام مشترك	ما كان وقفاً على بعض فيحويه
وأفضل العلم ما يرعى أنوثتها	حذار أن تبتلى فيه بتشويه
والأمهات إذا ما كنّ في سفه	فاحكم على الجيل أن النقص حاديه
وللورثة عرق لا تدب له	عوامل الوهن أو يُرجى تفانيه

ويتقبل الحماسة التي يبديها الشعراء للتعليم، فهو يرحب بقول الشاعر:

أنا نحس فراغاً في مرافقنا	وتحت أعصابنا فيض نعانيه
إننا لترقب عهد البعث في ثقة	وحاطك النجع فيما أنت تنويه

والشاعر محمد سراج خراز الذي يعمل في مجال التربية من عام 1369هـ شهد رعاية
خادم الحرمين للتعليم، وعاصر تكوين أول وزارة للمعارف عام 1373هـ، وقد سطر تلك
الحادثة في قصيدة، دعا فيها إلى وجوب تطوير مرفق التعليم، وتأسيس جامعات ومبانٍ
تعليمية، والقيام بجرعة علمية مزدهرة، وحركة صناعية، وتمنى أن يُعطف على المعلم⁽¹⁾.
وأمنيته قد تحققت على يد قائد التعليم، فشيدت المدارس، وانتشرت في كل حي
وكل قرية، وشيدت أول جامعة تحت ريادته، وهي جامعة الملك سعود في عام 1377هـ.
والشاعر حتماً شهد الحركة الصباحية من فتيان وفتيات ومعلمين ومعلمات، كل
ممولي وجهته إلى التعليم، تأمل قوله:

(1) إبراهيم علاف - الديوان

يا سمو الأمير إنا عقدنا
 قد قطعنا في العلم شوطاً ولكن
 جامعات تشع بالنور دفا
 بك آمالنا شيوخاً ومرداً
 منك ترجو البلاد أبعد قصداً
 قأ وتستأصل العدو الألد⁽¹⁾

والقارئ لشعراء بلادنا يدهش من متابعتهم للأحداث، وتطلعهم الفكري ووعيتهم، وإلحاحهم على الإصلاح، فلم يفض على توحيد البلاد تحت قيادة الملك عبد العزيز رحمه الله ست سنوات حتى انتشر التعليم، وجعل الشعراء ينادون بافتتاح مدارس نحو الأمية لمن فاتهم قطار التعليم. فالشاعر حسين عرب يدعو إلى ذلك في عام 1357هـ، فقد رأى أن البلاد بحاجة ماسة بعد أن توحدت إلى أن تستثمر الأمن في التصدي للجهل والقضايا الوطنية الكبرى، ففي قصيدة بعنوان "نحو الأمية" دعا فيها إلى نشر التعليم وإصلاحه :

آن أن يثمر الثمر
 وانعموا بالحياة بسامة
 وأنشدوا في حياتكم
 غالبوا الجهل بالحياة
 وانشروا العلم إنمنا
 فاجتونا أينع الثمر
 الثغر بالوهر
 مجد ماضيكم الأغر
 غلاب لمن صبر
 ساد بالعلم من ظفر

ويشير إلى أن المدارس في المملكة قد افتتحت، فأقبل إليها عدد كبير من الذين تجاوزوا العاشرة، أو شبوا عن الطوق، فمكثوا فيها بضع سنين، ثم مارسوا العمل نهاراً، والدراسة ليلاً، وجلهم ينتمي إلى وزارة الدفاع، وقد أجبرتهم الحياة على ذلك، لأن كل منهم مسؤول عن أسرة .

(1) محمد سراج فراز - غناء وشجن - 13

شأنها الجهل وابتسر
وفي معية الصغر
شقاء وصبغر
والتظت فيه بالجهر
من الكمد مستعر
وإذا أشرق القمـر
تنشد العلم في الكبر
كل غال ومدخر
عرق الكد والكدر
عبرة بعدها عبر
ما تبقى وما اندثر
بأضرارها الضرر

إن في الشعب أخوة
فاتها العلم في الشباب
فانبرت تكسح الحياة
قطعت صيف يومها
ترتجي العيش في جحيم
وإذا الشمس أدبرت
عكفت عن سبيلها
أنفقت في طلابه
حظها في حياتها
كم لنا في الحياة
نالنا من ضرورها
ذكريات لنا توالى

ويحث الفرد ليطلب العلم، ويشير إلى مسؤولية أولئك القائمين على التعليم، فيجب عليهم أن يهيئوا سبله، ويشرعوا موارده للناهلين منه ليلا ونهاراً:

في الجهل من عذر
في البدو والخصر
جاهاً ضيع العمر
وتفانيه في الهذر
عليكم مدى الدهر
آد مسعاهم القدر
فادرؤوا عنهم الخطر
شعوباً من البشر

شادها الجهل لا رعى الله
علموا النشء وانشروا العلم
لا تنالوا بلوكم
إنكم سر جهله
إنما يرجع الملام
واقنوا الله في الألى
خطر الجهل شأنهم
فمن العلم ما أعز

والعلم فيه درء للشر، وبناء للوطن، وصلاح للمجتمع، ويختم قصيدته بالدعاء
للمسؤولين الذين بادروا إلى افتتاح المدارس:

ومن العلم ما تهلّل
إن في العلم للبلاد
وفوق الله عاملاً
ورعى العصابة الألى
في سبيل الحياة تبسم
وجزى الله محسناً
عن طيب الأثر
عن الشر مزدجر
بذر الخير فابتذر
غرسوا ذلك الثمر
والمجد يزهو
نصر العلم فانتصر⁽¹⁾

والشاعر المعلم يوسف عبد اللطيف أبو سعد يتحدث عن محو الأمية، في يوم محو
الأمية الذي يذكر بها في كل عام.
ومن الجنوب ينطلق الشاعر سلمان بن قاسم الفيافي وهو من الأجيال الأولى، ليدعو
إلى تعليم المرأة، ويأتي بالحجج الصادقة، والبراهين الماثلة في أمهات المؤمنين، فمن الإنصاف
لها أن تفتح مدارس لتعليمها:

يسمو الفتى بالعلم والإيمان
صنوان في الدنيا تفجر منهما
أيجوز في الشرع الشريف لعاقل
قد شرف الله النساء بسورة
حواء يحدوها الطموح لعلها
أو من يربي النشاء أيام الصبا
وكذا الفتاة هي الجناح الثاني
نهر الحضارة لبني الإنسان
أن يحصر التعليم في الفتيان
وأعزهن بمحكم القرآن
تبني كياناً ثابت الأركان
ويمده بالحب والإيمان

(1) حسين عرب - المجموعة الكاملة - 2 / 226

لله في عمل وفي إحسان
بالطهر من رفث ومن أدران
عند الشدائد للكسير العاني
أم الحماة القادة الشجعان
تعنو لمبدع هذه الأكوان
مسك ومنظره نجيع قاني
تسمو بمجتمع عظيم الشأن
لتقيم صرحاً شامخ البيان
يروى لهيب الظامع العطشان
وحصانة من نزع الشيطان
مقرونة بالحب والعرفان
شكراً وتقديراً مدى الأزمان⁽¹⁾

غير التي بذلت عصارة روحها
أم النبيين الذين تحصنوا
أم البنين والبنات وموئل
أم الملوك وأم كل مجاهد
أم العباد الساجدين وجوههم
أم الشهيد يفوح من شريانه
وإذا استنارت بالعلوم فإنها
بالدين والأخلاق تقتحم الردى
والعلم ينبوع الجميع ومنهل
والعلم تهذيب ونشر فضيلة
فتحية للعاملات بهمة
ونقول للاتي أنرن طريقنا

ويشيد الشاعر الدكتور/ أسامة عبد الرحمن أستاذ الإدارة في جامعة الملك سعود
صعود المرأة إلى الفضاء، و قدرتها على أن تكون واحدة من العلماء المكتشفين و الباحثين ،
و هو يرمز إلى تخلف تعليم المرأة :-

أبدأ وفي أعلى الفضاء توغلي
أسرار ما في الكواكب واجتلي
أفنى أساطير الزمان الأول
من ومضة منه الليالي تنجلي
فاكشف لنا ما وراء الجهل

طيري إلى الأجواء لا تتمهلي
وارقي إلى دنيا الكواكب واكشفي
واحكي لنا قصصاً من المجد الذي
سبحانك اللهم نورك آية
إن قادتنا لنطوف أول مجهل

(1) سلمان الفيبي ، مرافيء الحب ، تحقيق عبدالله الفيبي ، نشر نادي جازان الأدبي الطبعة الأولى 1428-2007

عقل وإن طاف الكواكب من علّ
 كيف ارتقيت إلى الفضاء المذهل؟
 ونزلت الجوزاء أعلى منزل؟
 ومن الهلال صنعت أعظم مغزل
 فيها نشاهد صورة المستقبل
 جبارة في أي يوم مقبل
 وغمرت بالآمال كل مؤمل
 والورد أينع في مكان الحنظل
 والبوم ولي بعد شدو البلبل⁽¹⁾

ملكوتك الجبار ليس يحيطه
 حواء كيف صعدت شاهقة الذرى
 كيف انطلقت إلى السماء طليقة
 هلا نظمت من النجوم قلادة
 هلا نقلت لنا مشاهد من علّ
 وبعثت في العقل الطموح لرحلة
 وحملت للأرض السنن متألّقاً
 لنرى الحياة وقد تبدل وجهها
 والنور مزق كل أقمعة الدجى

و الشاعر محمد جدع و هو من شعراء الجيل الأول يدعو الرجل ليتخذ المرأة قرينة
 له في الحياة العلمية و المعرفية ، فهما متعاونان ، يشد كلاهما أزر الآخر :

وأنت الفتاة لعهد جديد
 تهبّ عليّ بوقع شديد
 أشقّ طريقي لسير بعيد
 بعصرك هذا خطير شديد
 من الجهد قسطاً لحب وطيّد
 بنيل البنين بعيش رغيد
 فلا تشعرين بقولي السديد
 فما القيّد إلا لذلّ العبيد
 لنعمل جمعاً لعهد جديد⁽²⁾

ألست ترين بحق الفتاة
 ألست ترين صروف الزمان
 ألست ترين بأنّي وحيد
 ألست ترين كفاح الحياة
 ألست تودين أن تمنحني
 ألست تودين أن تسعدي
 أم الجهل يسلب منك الحجى
 فكفي قيودك قبل الفوات
 وسيري يجني لجد الحياة

(1) أسامة عبد الرحمن - شمعة ظمأ - ص 98-99 الطبعة الأولى 1403 - 1983 جدة تهامة

(2) محمد جدع - المجموعة الشعرية الكاملة دار البلاد نادي جدة عام - 1404 هـ - 1984م

ولم تلبث الفتاة السعودية بعد تعليمهن أن تفتقت مواهبهن بالكتابة والشعر، فكتبن في الصحف، ونشرن إبداعهن الشعري، فقد قال عبد الله عبد الجبار: "وللسيد إسحاق عزوز - وهو مدير مدرسة الفلاح بمكة، وأحد المؤثرين في الحياة الفكرية والاجتماعية بقلب الجزيرة - ابنة في السادسة عشرة من عمرها واسمها ليلى، تفتحت مواهبها الشعرية، بعد أن قرأت ما وقع في يدها من دواوين الشعر قديمها وحديثها بمكتبة والدها ومكتبة غيره، وانطلقت تناجي ربة الشعر بالقصيد، ومن شعرها قصيدة نشرت بجريدة الندوة في ركن زاوية الشعر بصفحة رواق السيدات، نقلها فيما يلي صورة من إسهام المرأة في حياتنا الأدبية:

فتاة عربتتنا أسرعى لركب الحياة ولا ترجعي
 هلمي إلى حاضر مشرق وفي ظلمة الليل لا تهجمي
 تفاني لإرجاع ما قد مضى وروي الفؤاد به واجرعي
 ولا تصبحي صورة قد بدت تمائيل أشباحها لا تعي
 فإن الزمان زمان العلا فسيري إلى الهدف الأملع
 أرى الكل ذاق رحيق الحياة وخاض الغمار ولم يقنع
 وأنت تذوقين مر الحياة أما تنظـرين إلى المطلع
 فهبي ابنة المجد واستيقظي لداعي الفلاح ولا تجزعي
 وهيا اقشعي عنك تلك الغيوم بعزم وجد ولا تفزعي

ويرى عبد الله عبد الجبار أن قبول التعليم في مدينة بريدة وعنيزة يمثل حدثاً مهماً، واختراقاً لحاجب الصد ضد تعليم الفتاة، وفي رأيه أن أهم حدث تعليمي في منطقة نجد هو إنشاء أول مدرسة ابتدائية منظمة في عنيزة، وبريدة، وغيرهما من البلدان⁽¹⁾.

(1) المجموعة الكاملة للمفكر، عبد الله بن عبد الجبار - 1 : 184

كان المجتمع وكثير من طلبة العلم في ربية من تعليم الفتاة، وقد حدث في ذلك جدلا كبيرا في الصحافة، وفي مجالس الملوك والأمراء، ومداوات بينهم وبين العلماء، وحاول ولاة الأمر إقناع العلماء بذلك حتى تم ذلك علي يد الملك فيصل رحمه الله.

وفي ربيع الثاني عام 1379هـجري صدر مرسوم ملكي كريم يقضي بوجوب فتح مدارس لتعليم البنات في المملكة العربية السعودية، وقد نص المرسوم الملكي الكريم علي ما يأتي: الحمد لله وحده وبعد، فلقد صحت عزيمتنا علي تنفيذ رغبة علماء الدين الحنيف في المملكة في فتح مدارس لتعليم البنات العلوم الدينية من قرآن وعقائد وفقه وغير ذلك من العلوم التي تتمشي مع عقائدنا الدينية، كإدارة المنزل، وتربية الأولاد وتأديبهم، مما لا يحشي منه عاجلا أو آجلا أي تغير علي معتقداتنا؛ لتكون هذه المدارس في منأى عن كل شبهة من المؤثرات التي تؤثر علي النشء في أخلاقهم وصحة عقيدتهم وتقاليدهم، وقد أمرنا بتشكيل هيئة من كبار العلماء الذين يتحلون بالغيرة علي الدين لتشرف علي نشء المسلمين في تنظيم هذه المدارس، ووضع برامجها بمراقبة حسن سيرها فيما أنشئت له، وتكون هذه الهيئة مرتبطة بوالدهم حضرة صاحب السماحة المفتي الأكبر الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، علي أن تختار المدرسات من أهل المملكة وغيرهم، اللواتي يتحقق فيهن حسن العقيدة والإيمان، ويدخل إلي هذه المدارس ما قد سبق فتحه من مدارس للبنات في عموم المملكة.

وتكون جميعا مرتبطة في التوجيه والتنظيم بهذه اللجنة، تحت إشراف سماحته، مع العلم أن هذا التشكيل يتقدم الوقت الكافي بتهيئة وسائل التأسيس، ونأمل أن يكون ذلك في وقت قريب، والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا بالله⁽¹⁾.

ولعدم وجود تعليم عالي من المرحلة الجامعية إلي المراحل العليا وكذلك لا وجود لتخصصات الطب وغيره؛ فإن عدداً من وجهاء البلد الذين علموا فتيااتهم ابتعثوهن للخارج.

والدراسة الجامعية في الخارج لها دورها في حياة الدارسة، لاسيما إذا كانت متزوجة ولها أطفال. على نحو ما رأينا في معاناة الدكتورة مريم البغدادي التي تشكلت ملاحظها في جزء

(1) عبد الله صالح عبد الله - تاريخ التعليم في مكة المكرمة دار الفكر، الطبعة الأولى 1392هـ-1973 ص 288

من ديوانها الشعري ، فتحدثت عن غربتها الدراسية الجامعية في لندن ، و لهنها على ابنها
عدنان و هي في منأى عنه و غربة :

قد جئت نوراً في الأركان يهدينا
ما عاد شيء يا عدنان يبكيها

عدنان أهلا قد أزهرت وادينا
يا من ملأت علينا البيت يا ولدي

وتقول عنه في الغربة

وأهناً من يحياه
يعد للحضن يرعاه

متى يا رب ألقاه
لقد طال الزمان ولم

ونقل للقارئ قصيدتها (نداء القلب) التي تصف لنا عواطف الأمومة تجاه الأبناء
التي تماثل عواطف الآباء تجاه البنات:

حياة الروح والقلب
حديث السعد والحب
ويهنا القلب بالقرب
تعالى امكث على الرحب
سعادة قريبك العذب
بل أنت النبض في قلبي
فدأبك في الهوى دأبي
كي ألقاك في الدرب
فعمري أنت يا حيي
بقربك يخنفي كربى

سيأتي اليوم عدنان
سيأتي كي يشاركني
سأحضره وألثمه
منى نفسي فيا ولدى
حبيبي أنت تمنحني
ألست ابني وجوهرتي
صغيري يا ضيا عيني
وها أنا ذا أجد السير
فسر نحوى وخذ عمري
لأنت البهجة الكبرى

أجد في قـربكم طـي
تـحد عن درب ذا الصـب
نـداء القلب للقلب⁽¹⁾

وإن داء ألم بنـنا
صـغيري جـى وعـجل لا
ينادى القلب هـيا اسمع

والتعليم الجامعي لم يكن له مجالاً نظراً لقلّة المتقدّمات، مما جعل الشاعر محمد المغربي يبعث بابنته أميمة إلى جامعة جنوب كاليفورنيا، والقصيدة تفيض بوجدان الأب، فهي بعض من القلب، بل هي دائمة الحضور:

بعـضا من القلب مواجعه
حتى استـحر فما ترقى مدامعه
وملء قلبي وما ضمت نوازعه

أستودع الله ما أغنى وديعته
لم يعرف الـبين لم يخبر مواجده
فارقته وهو ملء المقلتين رضا

هذا القلب الذي ينظر وجداً على ابنته، والذي تثقله غربتها وبعدها عنه، وما تحمله من إرهاق، ما تعانیه الفتاه البعيدة عن والديها، فهذه الأبيات تمثل قلب الأب المشفق على ابنته، ولولا الأمل الذي يعقده عليها لتكون رائدة لبنات جيلها في ميدان العلم لما بعث بها إلى تلك الديار النائية، وهو يوصيها بتقوى الله وطاعته، والمحافظة على إيمانها وسلوكها:

وحاضر كاللقى لم يدر موضعه
شوقي إليه وأشواقاً تنازعه
لو كان يحملها قلبى وتنفعه
هذا الدعاء لباب الله نرفعه
تهديك في الدرب عيناه ومسمعه

كم نازح وشغاف القلب مسكنه
يا من تحملت منه بعد فرقتـه
ومن تمنيت أن تشفى مواجعه
يا حبة القلب يا أغلى لآئـه
يصونك الله ترعاك عنايته

(1) مريم البغدادي - عواطف إنسانية - 248 - تهامة - جدة - الطبعة الأولى - 1402هـ

مبسوطة لك بالتوفيق أروع
من ذا يراع وباب الله يمنعه
تهفؤ إلى العلم تصيبها روائعه
فؤادك الحر - إن العلم ينفعه
لنخبة من بنات العرب مشرعة
فتحاً يدل به الرائي وسامعه
من الفضائل تهدينا مطالعه
ثلاثة وعماد البيت يرفعه
إلى المكارم - هذا المجد أجمعه⁽¹⁾

تقوده يمناه يمناك وراحته
فلا تراعى وعين الله ساهرة
يا زهرة في رياض الدرس ناضرة
عي من العلم أروى من مناهله
شقي إلى المجد دربا أنت رائده
حتى تعدن إلى أحضان أمتكم
تنهضن بالوطن الغالي عن سنن
الدين والعلم والأخلاق أعمدة
فاستمسكي بعمود الله واستبقي

الابتعاث:

والشاعر إبراهيم السبيل يصور الفتاة الشرقية المبتعثة للخارج، فهو يحكى حشمتها
ويحكى ضعف لغتها، ولكنها سرعان ما تنطلق لتنافس قريباتها، يقول عن ابنته وفاء المغتربة
حين التحقت بمدارس اللغات :

وتوجهت للمدرسة
ملفوفة متسدسة
من طالب ومدرسة
وبدا عليهم وسوسة
وبلهجة متحوسسة
في الفصل مثل البربسة
بدأت بضحك مرسسة

خرجت وفاء بسرعة
وتكعرت بجبابها
كم أرعبت من حولها
قد خذرفوا من خوفهم
وبلكنسة شرقية
قد كان بدء كلامها
أن خوطبت من بينهم

(1) المنهل - العدد 5 - السنة 35 - ج 30 - جمادى الأولى - 1389 هـ - ص 708

عند الجواب شفها
لكنها والحق أضحت
وتطورت بـديتها
حتى استحقت أن تكون

مقنولة ومدبسة
في الدراسة كيسة
فحديتها ما أسلسه
على الجميع الريسة⁽¹⁾

نظام تعليم الفتاة

وقد قام تعليم المرأة على أنظمة تدعو إلى الحشمة والحيطه، ونظمت لهن المباني الساترة، ووضع لهن ألبسة موحدة متماثلة، حتى تتساوى البنات الغنيات والفقيرات، والجميع يلبسن الملاءات السوداء مع الخمار الأسود، وهو منظر يدعو إلى احترام المرأة وصيانتها وحمايتها في أمن وأمان.

وقد رصد هذا المنظر طاهر زمخشري وكشف ما وراءه من همة وعزيمة وطموح يدفع بالفتاة إلى طلب العلم والمعرفة، وأن تنال حظها وتبنى وطنها وأولادها، وذلك في قصيدته "مطلع الفجر" الذي أهداها إلى فتيات بلادي في الكليات ودور العلم:

من وراء الخمار ألمح نورا
في "حراء الغراء في الأمل
والتباشير في الملاءات لفت
سكبته حرائر تخرس الورق
والقوافي مرجعات لما نتمن

فاض بين السطور يجري ثميرا
المشرق أهدى إلى الحياة بكورا
في الثنايا من الخرائد حورا
ومنها الصدى يروى البحورا
سحراً ورونقاً وزهورا

وهو يدرك أن الغاية هي طلب العلم النافع الذي يصلح الحياة، ويدعو إلى الفضائل والقيم، ويبني منهجاً تربوياً وفكرياً، وتزداد به المعرفة العلمية والتقنية الحديثة:

(1) إبراهيم السبيل - نقش يسموعلى صفحة المجتمع - 106

من وراء الخمار الملح إشعاعاً أعاد الماضي إلينا منيراً
 مشرق الصفحتين يزهو بمن قمن ينافس بالعلوم المذكورا
 ما تزين بالذي يكسب الإثم مجوناً وبهرجا وغرورا
 بل تحلين بالذي يجعل الدور جناناً والمحصنات بدورا
 وتمنطقن بالذي زان أسماءً فكانت أولى الشموس ظهورا
 عرفت دورها الخطير وأدته فكانت للصالحين نصيرا
 تتوقى العداة قد أشهروا الموت، وتخطو على القناد وثيرا
 ثم تمشى للغار في قمة التل، وتجتاز بالثبات الوعورا
 تحمل الزاد للني وخدن عاش بالحب عند طه الأثيرا
 وهو أصل لها فأكرم بفرع طاب منه الجنى، وطابت جذورا
 والحميراء أختها، وهما الصنوان طهراً وعفة وعبيرا
 شرفت زوجة وأما وبتنا وبها المكرمات تشدو عصورا
 هي كانت أمماً لأسمى البطولات، ومازال قولها ماثورا
 "عش كريمًا أو مت و أنت كريم" مبدأ قام بيننا دستورا
 فهي توري الزناد بالعزيمة البكر، وتزكى بين الحنايا الشعورا
 ليموت الهوان من صيحة الوغى، ويسمو إلى السماء نسورا
 وعلى الدرب أمهات يباركن خطانا، وقد أقمن الجسورا
 ببناء قوامة العلم والدين، يتغنى به الزمان فخورا⁽¹⁾

المواهب الشعرية مصحوبة دائماً بالتوتر نتيجة قوة الأحاسيس عند الشاعر أو
 الشاعرة، فإذا سلك الشاعر أو الشاعرة سبيل العلم أو اهتزت جوانحه بالطموح، وازداد
 تنويراً بالعلم فإن الأفكار تؤثر تأثيراً كبيراً على الخواطر والهواجس المستقبلية، مما صير

(1) طاهر زخشري - مجموعة النيل - 497

الشاعرة القرني في حالة من التبرم مع حصولها على الدكتوراه، فبدل أن تفرح بهذا التحصيل العلمي الممتاز انشغلت بماذا يكون بعد؟. وهذا من أثقال العقلانية والانفعال واستعادة الذكريات المرة لمعاناة الطلب، سهراً وسفراً وقلقا

عسكرة..!

دكترة..!

دكترة..!!

مرهق هذا القلب

قبل أن أحمله..

أشعر حقاً بالتعب

دكتره..!

لي مع الليل حكايات

مع الشعر غوايات

مع الطفلة في روعي أمانٍ غافيات

في وساد الثرثرة

أتراني أجرؤ الآن على حفظ عهودي

السالفات المنكرة؟!⁽¹⁾

في أول حياة تعليم المرأة كان هناك اندفاع قوي ، عملت وسائل الإعلام ، لا سيما التمثيل على بلورة هذه المغالاة ، حيث أخذت ترسخ فكرة الجامعة أولاً ، ثم الزواج ثانياً ، فطفقت الفكرة تنغرس في النفوس ، يقول إبراهيم خليل علاف :

(1) فاطمة القرني - ديوان مطر - 73

وشبكة التخرج
بكفها حقيبة
كطفلة عزيمة
هي الربيع موكباً
يغنيك حسناً بعضه
أجل بها من طلعة
فيها الحياء عالم
والطهر هب شاخاً

تنأى عن التزوج
ربيبة التدرج
بصدرها الممزوج
قد عفت عن تبرج
وملتقى التآرج
تسلحت بأدعج
بخجدها الممضرج
بأنفها الممدرج

ويقول أيضاً:

ما أنت إلا واحدة
أزهارها أثمارها
موفورة مذخورة

محاطة بعوسج
تعصى على التدرج
لمستطاب المنهج⁽¹⁾

فنحن لا نشك في نزاهة الجامعية ولا ريب في ذلك إذا أتيت لها دراسة منفصلة، في كليات وجامعات تجعل تدريس المرأة منفصلاً، أما إعجاب الشاعر بإعراضها عن الزواج في عام 1384هـ في مستهل التعليم، فكان نتيجة ذلك أن برزت ظاهرة العنوسة؛ لأن مجتمعنا يحرص على الزواج المبكر، والجامعية لا تنهي دراستها إلا بعد أن تتجاوز العشرين، الأمر الذي أوجد عدداً من العانسات. والذي أراه أن لا تعارض بين الجامعة والزواج، فالأولى أن الفتاة إذا بلغت سن الزواج فإنها تزوج لمن يرضى دينه وخلقه، مع المحافظة على مواصلة الدراسة. أما إذا وقفت مواصلة الدراسة في طريق الزواج فهو أولى. وقد طرحت القضية

(1) إبراهيم علاف - الديوان - ص 233

على بساط البحث مراراً في الصحف المحلية، فمنهم من يرى أن سبب العزوف عن الجامعات يتأتى من جانبهن، لأنهن يرغبن في الكفاء الثقافي، ولأن نظرة التعالي عمن لم يحصل على مستواهن تتبلور فيهن.

لكن الواقع أن هذه حالات فردية، فقد أقبل الشباب على الزواج لكثرة المتكافئين ثقافياً، ولأن الجامعة لم تلزم نفسها بالجامعي، وللوعي الذي تنامي في المجتمع فقد أخذت المرأة السعودية على عاتقها القيام بالعمل التعليمي للبناء في جل شأنه، والعمل المنزلي، والتربية، فالقدرة على الوفاق بين هذه الأمور هي تلك التي تنال الحياة الزوجية السعيدة.

والشاعر الفيضي يصور لنا حياة الطالبة التي التحقت بالدرس والتحصيل، بافتتاح رئاسة تعليم البنات 1381هـ، وقد دأبن على مواصلة التعليم في مشابة وجد، وأخلصن لطلب العلم في عفاف وطهر، وهو يوضح روح التنافس والانتماء إلى الدين والعادات السليمة:

جمعتُ خير الصفات وتملت بالثبات
شمرت عن ساعديها فاتت بالمعجزات
ومشت في الدرب سعياً رغماً كل العقبات
قطعت شوطاً بعيداً بالجهود الخيرات
قالبت الجهل سارميه ببحر الظلمات
أطلب العلم بعزمي واجتهادي وثباتي
وإذا أهملت يوماً في أداء الواجبات
ومضى وقتي هباءً في سماع الأغنيات
ودخلت الفاصل كالعيماء بين المبصرات
دون أن أهتم بالدرس اهتامي بالصلاة

فهو يشير إلى فضيلة تعليم المرأة، فقد كانت تقضي وقتها في ملل، أو سماع لهو أو طرب، لكنها اليوم تحرص على تنظيم وقتها، فهي تثابر في حل الواجبات، وحفظ المطلوب، ومعاودة استذكار المادة من أجل الامتحان، خشية الرسوب الذي يهز كيان الفتاة وأسرتها، وما أشد وقعه عليهن، وكذلك تتعلم أمور دينها وديناها.

وأتى يوم امتحاني	في عداد الراضيات
وبكت أمي وفي عيني	مئات العبرات
ورأيت الحزن في وجهه	أبني والأخوات
أي معنى لوجودي	وأي معنى لحياتي
غير أنني سوف أبقى	قعدة للطلبات
وأريهن بناني	من خيار الفتيات
وبأخلاقي وعلمي	وعفاف المؤمنات
وحياتي وابتعادي	عن جميع الشبهات
سوف أحظى باحترام الناس	في كل الجهات ⁽¹⁾

وهو يدرك أن العلم ينمو بجانبه الخلق الفاضل، الذي يقوم على الحياء والعمل الصالح، والابتعاد عن الشبهات حتى تحضي الطالبة بالتقدير والثناء، و قصيدة الشاعر بعد أكثر من عشر سنوات من بداية تعليم البنات، وقد رأى الشاعر معالم نهضة التعليم في البلاد، واقتنع الجميع بتعليم فتياتهم، وازدهرت الأحياء بالمدارس، والآن مدارس البنات تتناثر في أحياء المدن والقرى في تصاميم مطابقة للعمارة الإسلامية وتنظيم يمنع الاختلاط، فلا تخرج الفتاة إلا مع ولي أمرها، ويتفرع من الرئاسة وكالة الكليات، وقد افتتح عدد من الكليات في

(1) علي حسين الفيضي - رحلة العمر - 19

مدن المملكة أشبه بالجامعات الصغيرة، و هناك عدد من كليات إعداد المعلمات أيضاً إلى جانب التحاق الفتاة بالجامعات في أقسام خاصة بهن .

وقد وصف الشعر صخب الأطفال في المنازل ، و التنافس بين الأخوات ، و حالتهن في الصباح حال الاستعداد لليوم الدراسي ، فهذه تسرح شعرها ، و هذه تبحث عن حذائها ، يقول الشاعر حمزة شحاتة واصفاً بناته :

و كما تركت البيت ما زالا	قلقاً، وأعباءً، وأطفالا
ومعارك بين الصغار غدا	حلم النظام بهن أطلالا
أخذت كتابي ضيقت قلومي	شدت يدي، قفزت على ظهري
ذات الحياة وربما اختلفت	عما كرهت ونحن لا ندري
فإذا الصباح أطل خضناها	حرباً يكون وقودها أختي
هدى تقول: حذاؤها ضاعا	زلفى تسائل: أين مريلتي؟
وسهام تبحث عن حقيبتها	وتصيح ليلي: لم أجد قلومي
فتجيها نجلء بدمعتها:	وأنا صحت فلم أجد كتي
فإذا انصرفن تقوم معركة	ويجد أهل البيت في الطلب ⁽¹⁾

من المظاهر الاجتماعية الطارئة الترغيب بتعليم البنات، واهتمام الشعراء بتعليم بناتهم واضح ، و إذا ثبت تفوق البنات فإنه يؤثر على التجربة الشعرية، غير أن الشاعر إبراهيم السبيل وازن في شعره بين البنات والأبناء ، وقد استأثرت ابنته وفاء بكثير من شعره، لما رأى فيها القدرات و المواهب ، فقد صدقت أمانيه، و نالت درجة الدكتوراة، و مما قاله فيها:

(1) حمزة شحاتة - الديوان - ص 338

هنيئاً لك الفوز بالامتياز
وما ذاك إلا ثمار الجهود
هو العلم رمز ارتقاء الشعوب
وبالعلم جاء رسول الهدى
وبالضاد جاء الكتاب الكريم
فحييت فارسفة للكلام
وفوزك بالرتبة العالفة
وعنوان عقلفة واعفة
تسامت به الأمم الراقفة
وقامت به الدعوة السامفة
فعزت بعزتها الباقفة
وحقق آمالك الغالفة⁽¹⁾

بعد الممانعة عن تعليم البنات في الرياض، لم تلبث أن تكون قبله للعلم بجامعاتها وكلياتها، فهذا هو الشاعر عبد الله الجشي، يعث بابنته يمامة لعاصمة اليمامة الرياض، لكي تواصل تحصيلها العلمي. قالت للشاعر ابنته (اليمامة): يا أبي قصيدة أعتز بها، فكتب قصيدته "بين اليمامتين"، وقد نشرتها جريدة الرياض بتاريخ 30-5-1994م:

طوفى يمامة بالجزيرة حلوة الأنغام نشوى
طيري يمامة لليمامة فالذرى للطير مأوى
عودي لسربك عودة البطل الذي بالحب يقوى
إن السديار لتزدهي بالقرب حيث البعد يطوي

طوفى يمامة بالسنين وقطري التاريخ صنفوا
ولتقطفي من كل غصن زهرة كالمسك شذوا
ولتعصري من كل كرم ما به الأجيال تروي
طيري فمرجك في اليمامة أخضر الأمال أحوى
الماء يجري كـوثرأ متلسل اللذات رهوا

(1) إبراهيم السبيل - نقوش على صفحة المجتمع - 105

تهفو الثمار على عرائشها كعقد الماس ضوًّا⁽¹⁾

وأضحى العلم من أهداف رب الأسرة، فهذا الجشي يستحث ابنته مريم لطلب العلم، وأن يكون مناها وغايتها، وأن تتلبس بالهمة والطموح، ومما جاء في قصيدته عام 1990م قوله:

مريم كوني راية الموكب	طموحة كهالة الكوك
تعلمي كوني لنا في غد	مواهب وهاجاة المأرب
إن فتاة عرفت ما لها	وما عليها في المدى المنجب
لا بد أن تبلغ أهدافها	في مقبل العمر فلا تتعي
مريم يا لمحة آمالنا	مضيئة في فجرنا الأقرب
إننا فخورون بأجيالنا	وأنت فيها قمة المكسب
تعلمي حتى تضيئي الدنى	بعقلك النير في غيب
لا فرق ما بين فتى رائد	وامرأة تبعد في المكتب
إن بلاداً أنجبت مريماً	جديرة بمجدها الأرحب ⁽²⁾

هذا وقد أدرك المجتمع أن التعليم لا ينافي الوقار والحشمة، بل أخذ الآباء يرقبون أثر التعليم على بناتهم، ويدعون بناتهم إلى التمسك بالدين والقيم ومكارم الأخلاق، وينهون بناتهم عن التبرج، يقول مصطفى زقزوق لابنته (لؤلؤة):

لا تنزعي ثوب الوقار وتخضعي	فرداؤك التقوى فطبي واقنعي
وتمسكي بالدين فهو وقاية	ومن السفور فحاذري وترفعي

(1) عبد الله جشي - الأعمال الشعرية الكاملة - ص 450، نشر عبدالمقصود خوجة

(2) عبدالله الحبشي، الأعمال الشعرية الكاملة - ص 66

فمن العفاف تمكني وتورعي
 دعواه قد ضاعت بواد بلقع
 قري بيتك حرة وتمتعي
 يرديك ساقطة بأوخم مرتع
 والجهل يقذفنا لأسوأ موضع
 ليخيب حامل ريبة أو مطمع
 عصر الجهالة قد مضى لم يرجع
 وبه النجاة بهديه المتضوع
 تؤدي بحافل أمة في المصرع
 أني أضيع وأن أبدل موقعي
 وبأن أعود بخيبة المتراجع
 أليت أن أبقى وتبقي معي
 ولتعرف الدنيا سلامة منبعي⁽¹⁾

الله صانك بالحجاب تكرماً
 يا من ينادي والظنون تحيطه
 يا بنت يعرب والأصالة والنهي
 ومن التبرج فاتقيه لأنه
 لا عز في الدنيا بغير فضيلة
 والمجد والشرف الرفيع نصونه
 العلم قد حفظ العقول من الهوى
 ولنا من القرآن خير هداية
 أما المظاهر في الحياة فإنها
 والمعرضون عن اليقين سيبلهم
 ما همهم إلا انهيار مبادئ
 يا بنت يعرب والدروب مضيئة
 في عزة وكرامة ومهابة

و لقد عرفت الشاعر فهد النفجان مديراً لمستشفى تبوك، وكان رجلاً إدارياً من الطراز الأول، و قد درس في أمريكا، وهو معتز بذاته متباهياً بدراسته الخارجية، وحصوله على الدكتوراة من أمريكا، و قد حدث أن دعوته في أمسية شعرية في المعهد العلمي في حضور الأمير جلوي بن عبد العزيز، فطلب مني بعض المتشددین أن أبعده عن الحفل بحجة أنه غير ملتزم، ولكني رفضت ذلك، فكان نجاح الحفل، وهذه القصيدة تدل على التزامه بالقيم، فهو يوصي بها ابنته:

أبنيتي يا كل أمالي ويا حظي السعيد
 يا قطعة مني ورمز هنائي الباقي الأكيد

(1) مصطفى زقروق - مرايع الأنس - 178 الطبعة الأولى - دار العلم للملايين

مـنـي إلى العـقـل الصـغـير نـصـيـحـة الأب الرـشـيـد
ونـصـيـحـتي مـنـي إليـك جـعـلـتـها نـظـمـاً قـصـيد
تـبـقـى عـلـى مـر الزمـان و كـل يـوم في جـديـد
ولتأخـذني مـنـها عـتـاد الـدـهر في يـوم وليـد
فـلـعـل فـيـمـا تـنـطـوي نـجـواك في الـيـوم الـشـديـد
وإذا قـسـى رب القـسـاة فـاقـرئـهـا في مـزـيـد
ثـم اذكـرني وافهـمـي ما قـلـتـه الفهـم الأكـيـد
فـعـلـيـك بالـديـن الحـنـيف فإنـه الـذخـر الرـصـيـد
وتـخـلـقـني أخـلاق قـوم مجـدهم بـاقـي تـليـد
جـدادك الغـر الأماجـد رأيهـم رأـي سـديـد
تـارـيـخـهم بـالحـق والأخـلاق والشـرف الـوليـد
بـاق عـلـى كـر الـدهـور وشـعـلة للـمـسـتـفـيـد
وتـيقـظـني فـحـضـارة الطـباغـوت تـبـديـل المـجـيـد
وحـذار مـن تـيـارهم أن يـخـدعوك فـلا مـيـد
وعـلـيـك بـالإخـلاص للـمـدـن الزاهـيـة والـصـعـيـد
وطـن بـه كـانوا بـنـاة الأـمـس والأـمـس التـليـد
أواك بـيـن ربـاه، بـيـن رياضيـه، بـيـن الحـصـيـد
ربـاك بـيـن أحـضـانه، فـحـذار مـن نـكـر الحمـيـد
ومـن المـعارف فـانـهـلي عـذباً بـالإخـلاص شـديـد
وتـدـرعي بـالعـلم ضـد الجـهـل في حـرب الجـديـد
وتـحـركـني بالـواجـبات ولا تـكـوني كـالجـليـد
وابـني وكـوني قـدوة للـجـيـل، للـجـيـل الجـديـد
هـذي الحـيـاة شـعـارها أن دائـمـاً هـل مـن مـزـيـد

وإذا غـدوت إلى الأمومة فـاحفظي حـق الوليد
ريبه عـضواً نافعاً باللين والرأي السديد
قولي له عن دينه عن أرضه ألا يجيد
واروي له تاريخه من بدأة الماضي البعيد
هذي نصيحة والـد يـرجو لك الحظ السعيد
دامت لك الأيام في مجوحة العيش الرغيد⁽¹⁾

لم يمض ربح من الزمان حتى اقتنع الناس بضرورة تعليم الفتاة، بل أخلص الآباء والأمهات في التربية والتدريس ومتابعة الفتاة في مدرستها، وابتهجوا بنجاحها، وشاركوا التربويات احتفالاتهن، فهذا عبد الرحمن السويداء يكتب لابنته عبر قصيدة للمشاركة في الحفل الختامي عام 1412 هـ، مصوراً كيف كان الاختلاف حول تعليمها، ثم الاتفاق، بل التنافس، حتى أضحي تعليم الفتاة أسطورة من أساطير الزمن المعاصر، وأشاد به القاضي والداني، يقول الشاعر في مقدمة قصيدته: "طلبت مني عبر التي كلفتها مدرسة الثانوية بالاشتراك في حفلة المدرسة الختامية بكلمة أو قصيدة، فأعطيتها هذه القصيدة، لتشارك بها في الحفل بعنوان (فجر) لتلائم تلك المناسبة:"

تـنفس في سمـاء الـشرق صـبح
ذوائبـه إلى أـلـق تـشـير
تـلون دربهـا بـسـحيق تـبر
وشـقرتها بفرشـاة تـسير
تنبهـه مـن تـدثر في نـعاس
علـى صـوت يـرده البـشير

(1) فهد النعجان - نداء حي - ص 48، الطبعة الأولى، دار تقيف للنشر والتأليف 1978م

وهـب النـسـاس في غلـس تبـاري
لتلبية النـداء وهـم كـثير
وشة شق أنبسه الأيطـار صـوتاً
ونفض ريشة وبـدا يطـير
تمايل وهـو ويـرقص فـوق غـصن
في صرخ ويرفعه الكـبير
وغـرد أعـذب الأيطـار شـدواً
ألا هبـ وافقـه دأف النـشور
تحفـزت الـبراعم واشـرأبت
بأعـناق يدغـدغها الفتـور
تبجلت الزهـور بكـل لـون
تداعبنا فتبتـسم الثغـور
تبثـأريجهـا عرفـاناً نـدياً
تضمخه الطـراوة والعـبير
قدامـ ثلاث جـوانحـاً أريجـاً
نكاد لفـرط نـشوته نطـير
فيحـدوننا التحفـز من جـديـد
ويـصحبنا التوثـب والبـكـور
نـسارع نحـوصـرح العـلـم وثبـأ
يناغمنـا التـأهبـ والحـبـور
ثمـسار العـلم أطيـهـم مذاقاً
بهـا تـعلـو والسـعادة والسـرور
لنـهـل من مـنابعهـا زلـالاً

أكَفَ السَّاقِيَاتِ بِهَا تَفَرُّورَ
 ثُمَّ أَرَعَقُوا وَلَهُنَّ يَمِينٌ فِيهَا
 جَنِينٌ أَيْنَعَتَهُ يَبْدُ بِرُورِ
 أَلَا يَأْتِيهَا حَبَاثُ مَرَاتِ عِلْمِ
 مَوَاتِيئَةٍ وَأَنْتِ شَطِئَةُ دُورِ
 يَعْرِجُ بِهَا التَّنَافُسُ فِي فَنُونِ
 وَتَحْظُرُ بِهَا الْجَوَائِزُ تَنْوِرُ
 وَيَبْرُزُ مَجَالِسُ فِي الْحَسْبِيِّ فَنُذِ
 لِنَا بِبُرُوزِهِ أَمَّا كَلِّبِيرِ
 يَنْظُمُ مَا يَنْظُمُ مَنْ أَمُورِ
 مَدَارِسُ قَدِ تَزَارُ وَقَدْ تَزُورِ
 يَتِمُّ خِلَالَهُ إِبْدَاءُ رَأْيِ
 وَخَيْرَاتٍ وَمَعْرِفَةُ ثَرُورِ
 وَتَكْرِيمِ النَّوَابِغِ فِي فَنُونِ
 وَتَشْجِيعِ مَنْ أَضْحَى جَدِيرِ
 وَشَحْذِ مَنْ دَارَكَ كَلِمَاتِ
 لَتَنْهَضُ حَيَاتِهِ يَدْرِكُهَا الْفَتُورِ
 فَتَلْكَ تَحْيِيئَةَ رَقَمَاتِ وَطَابَاتِ
 تَقْدِمُهَا وَتَهْدِيهَا عَدِيرِ (1)

عجباً لهذا الزمن الآمن في السرب الرخي في العيش كيف تصحبه المعاناة النفسية
 والفكرية، فقد أثقلت الشباب الهموم والهواجس المستقبلية، وربما الفعل اليومي الذي صير

(1) عبد الرحمن السويداء - أشجان - 75

الكماليات ضروريات، وصير العمل يرتكز على الفكر بدلاً من العمل اليدوي، فالأمر لم يقتصر على الذكور، بل حصد معه الفتيات والنساء، ومن أولى ثمرات تعليم الفتاة أنها استطاعت أن تسجل سيرتها الفكرية والنفسية في مرحلة مبكرة من حياتها، فالدكتورة فاطمة القرني سجلت سيرة دراسة الفتاة ومعاناتها في تبوك من خلال قصيدتها (احتفال)، حيث صورت أفراح الطفولة بالأعياد، وتنقلهم في منازل الجيران مغردين بالابتهاج و سرور:

لا مرحباً غداً أفلتي دون أن أدري
يا شبيهة أسفرت تحت خيال في شـعري
أفي الصباح في ربيع العمـر. والمـي
والآن؟! ماذا تركت لآخر العمـر؟!
أينقضي بالسواد العمـر متلحفـاً
وحين أملت كنت بـشارة الفجر
خمس وعشرون كالأحلام أحسبها
مرت، فأواه للعمـر الذي يجري
نادي زماني (تبوك) نداء والهبة
واسـتخبري دورة الأيـام هل تدري
عن طفلة كتتها كالـحلم أتبعها
أخـال كل المـدى يسعى لها إثـري
ردي لعيـدي الطفولة لا مـذاق له
بـدونها وأرجعـني طفلة العـشـر
أزهـو بـفـستان عيـدي بـين أتربـي
وأرسـل اللـحـن في كـون مـن السـحر
أيـن الرفيـقات؟! كان العـصر موعـدنا

تفرق الجموع أضحى مظلماً أصرى
 وأيـن تطوافنا في الحسى والحلى
 ما فاض من قبضتي أخفيه في حجري
 من لى بصاحبة كانت تقاسمني
 شطر لها من حصيلتنا ولى شطري؟!

والشاعرة القرني في قصيدتها التي تمثل السيرة الذاتية تحكي روح البساطة والفطرة،
 حيث الضفائر والأمشاط، والأمومة الحانية، والابتعاد عن الزينات الدهنية الحديثة، التي
 أساءت لمعالم الجمال مبكراً، وهي تحكي روح التعاون بين الجيران، إذ يتبادلون مكونات النار
 والملح والشاي والأواني، وكانت أدوات الولائم والاحتفالات تُجمع من الجيران :

أمـاه يا أمـن أيـامي ويـا سـكـني
 ضـمي شـتاتي أـجل قـد خـانني صـبري
 عـودي معـي فـصلي للجمـع قـصـتنا
 مع العـناد عـنادي الجـامح الفـطري
 أيـن الـضفائر يـا أمـاه؟ أحـسبها
 تـبكيك شـوقاً وتـبكي بي مـن الغـدر!
 تجـدلين عـلى حـرص وأنـثرها
 وتنهـرين، ولا أهـتم بـالنهر
 أيـن الـضفائر يـا أمـاه ويـل يـدي
 ما كـنت أدري قـصـت بقـصها عـري
 يـا ليل كـم خـلد الأحـباب مـن نـغم
 في حـين عـاطر مـن سـالف يـسري
 مـن لى بـجارتنا تـأتي صـغيرتها

أعندكم ملاح؟ قالتها بلا حذر
تلك الصغيرة كم نصبت عباءتها
في ساحة الـدار لـي بيتاً من الشعر
تـزور فيه، تـزار، تـصوغ قـصتنا
توقاً لعهد الصبا تهويمة الفكـر
أيام كانت بيوت الحـي مـشـرعة
للحـب، يا تربها أغلى من التبر
ضـن الزمـان بـجارتنا وبابتها
فكيف جـاد بملاح الفقـد في نحـري؟!

والشاعرة تسجل البيئة المدرسية للبنات ما بين عامي 1380هـ - 1395هـ، حيث
السير على الأقدام للمدرسة، بل إن المدارس وقتها كانت من البناء الطيني، فإذا ما ضاقت
الفصول نصبت الخيام، وكانت البيئة يومئذٍ متألّفة متحابّة متمازجة، مع وجود التنوع،
والذي لم يمنع من التواصل والتعارف

تبـوك ما جـدّ عهد فيك مؤتلق
لا تـداعيت حتـى أول الـسفر
يا صـفحة الأـمس يا حـرفاً يـخلـدني
هيا انـثري كل ما استعـصى عن الثـر
أيـن الطريـق الـذي حتـى الحـصاة بـه
أكـاد أحـضنها شـوقاً إلى صـدري
فـيه العـجـوز الـتي كانت بـضاعتها
مـيدان حـرب نـبـعـرنا ولا نـشـري
وأين مدرـسة الطـين الـتي نـشـرت

من طينها عا عن صابانا أطيب الـذكر
 ما فـصلنا؟! صـدقوني خيمـة شمـخت
 عمودها لم يفـارق دفـؤه ظهـري!
 أين الـدفاتر والأقلام أجمعها
 وأين كراسي مهـزوزة الـسطر
 من لـي ب (أبـلتننا) ما كان أطيبها
 يا وجهها ذلـك النـضاح بالـشر
 كانت (عطـاف) وكنـاء والـبراءة في
 وقع الخطـى نغمـة مشبوبة الطهر
 نحيطها أينما حلـت، فما التفتت
 إلا وجمع لننا قد خـف كالطير
 "عودوا إلى الفـصل" صـاحت، لا نجيب كـمن
 في سمعه الـوقر، لا نـصاع للأمر
 فتتـهي في حنـو وأينما يـدها
 فـديتها من يـد أنـدى من القطر!
 عشرون عاماً مضت، أدري بخيمتنا
 هـوت، تلاشـت، ولكـن لـيس من فـكري
 ما زلت أـجـري إليها كلمـا عـصفت
 بي الـريـاح، وعـز الأـمن في الـصخر!
 أمـاه وألـى الـصبا فأصـغي لقافية
 تقـول مغتـصبة مـودة الـكـبر⁽¹⁾

(1) فاطمة القرني - ديوان احتفال - ص 10 نشر نادي تبوك الأدبي عام 1430 هـ

ويمثل الابتهاج بافتتاح المدارس والمعاهد والجامعات مظهراً عصبياً، نرى معالمه في الجامعات ، وعلى صفحات الصحف، وفي إبداع الشعر، وحكايات القصص، ولقد مرت علينا حكايات ممانعة تعليم المرأة، وأن أبناء المدينة الواحدة كانوا بين مؤيد ومعارض، وها هو الشاعر مفرج السيد يبتهج بافتتاح مدرسة البنات في مدينة المهدي مع أنه يستوطن بلداً آخر، غير أنها بلدته الأولى.

يقول في مقدمة قصيدته "تحية للعاملات والعاملين": أنشئت ببلدة المهدي أول مدرسة ابتدائية للبنات، نتيجة للجهود المشكورة التي بذلها بعض الرجال العاملين المخلصين، وعلى رأسهم سعادة الأمير عبد الله السديري أمير المهدي، وهذ تحية شعرية أبعثها من الأعماق، لسعادة الأمير، وصحبه الكرام، وللمدرسات والطالبات."

في حقل تعليم البنات	حي النساء العاملات
في شحذ عزم الطالبات	وانشد لنا أنشودة
قاموا بهذي المكرمات	واشدد بأيدي معشر
فتحت لهن المغلقات	قل للمدرسة التي
أنشأت جيلاً صالحات	أكرمت من إنسانة
يا أيها المتعلمات	إيه بنيات العلاء
للطالبات الراغبات	هذي المدارس أنشئت
فالعلم نور في الحياة	فانهلن من مشروبها
أوصى بتعليم الفتاة	والدين قد أوصى به
كن البنات الرائدات	إيه أخياتي أجمل
وغداً تكن الأمهات ⁽¹⁾	شاركنا في سيرنا

(1) مفرج السيد - فيض الأحاسيس - ص 33 دار ثقيف للنشر ، الطبعة الثانية 1414هـ-1994م

ووقف الشعراء كثيراً عند الممرضات والطبيبات، وأشادوا بلطفهن وأناقتهن وحنانهن وعطفهن، بل أعجبوا بملايسهن وببسماتهن، وهذه الطيبة تحمل هاجس الطب في مسيرتها، فهي تعنى بالشيوخ والشباب بالمرأة والرجل :

دلفت بطلعتها المهيبة	وبكفها اليمنى حقيبة
فتبسمت لمريضها	رغمأ عن النفس الكئيبة
ودعته ثم تقدمت	توأ إلى الغرف القريبة
فتفقدت نزلها	وكانها أم حبيبة
لا فرق فيهم عندها	إن كانوا شيباً أو شبيبة
ف عجبت مما شاهدت	عيناى من دنيا عجيبة
وسألت من في جانبي	عن هذه الأنثى النجيبة
وعلمت بعد جهالتي	أنى أرى نبل الطيبة
أنى أرى مخلوقه	دفعت لأمتها الضريبة ⁽¹⁾

لا شك أن الانسان ذا القلب الرحيم كثيراً ما يبادر إلى الاعتناء بغيره ، و يقف ذاهلاً عند الطفولة المشردة ، كما أن احتضان الطفولة و الاعتناء بها من مظاهر الكرامة و العناية الألهية لمن رعاها حق رعايتها ، فكيف بمن اعتنى بالتعليم و التربية و النفقة ، يقول مفرج السيد في مقدمته لقصيدته "أبتاي": "إلى الإنسان الذي زرع في قلبي أول بذرة من بذور الحب والخير، الأستاذ (م) صاحب هذه القصة التي رواها لي عن نفسه، وأنا على مقعد الدراسة، وما زالت آثارها عالقة بذهني، أهدي هذه القصيدة"

(1) مفرج السيد - فيض الأحاسيس - ص32 دار تقيف للنشر ، الطبعة الثانية 1414هـ-1994م

ومدت لي الأيدي الضارعة
ولكن أذني لها سامعة
فلإني مشردة جائعة
ومات أبوها من الفاجعة
ولا مسكن إنني ضائعة
وأبكتني القصة الواقعة
فلي طفلة حلوة رائعة
تشاركها لعبة مائعة
وكلتاكما سنهما السابعة
فسارت إلى جانبي طائعة
على ثغرها بسمة ناصعة
وعهدي بها زوجة وادعة
بنيتنا مثلما رابعة
فبتاي هاتان بالجامعة
فنعمأؤه جمّة واسعة⁽¹⁾

رنت لي بأعينها الدامعة
وقالت وقد خانها صوتها
أغثني أغثني وقيت الردى
أنا طفلة فقدت أمها
وقد تركاني بلا عائل
فقلت وقد ساءني ما بها
تعالى معي يا ابنتي بمنزلي
تسر إذا ما رأت طفلة
وأنت أيا طفلي حلوة
وأمسكتها حانياً في يدي
ولما رأتها ابنتي أشرقت
وسُرت بمقدمها زوجتي
وأضحت نوال وهذا اسمها
ولإني سعيد بنيل المنى
وأحمد ربي على فضله

والأطفال مدعاة للتفكير والعناية، فهم ضعفاء في أبدانهم ولغاتهم، وسائر قوامهم، ولكن من يدري لعلهم في قادم الأيام يكون لهم شأن عظيم، والشاعر مفرج السيد يحكي في قصيدة له عنوانها "طفلة" آمال طفلته، فهو يرى فيها الترقى بدرجات التعليم، ويصورها بأن تكون أستاذة جامعية أو طبيبة أو معلمة أو وزيرة، وهذه نظرة تفاؤل للبنات بعد انطلاقة التعليم، وإتاحة التعليم الجامعي:

(1) مفرج السيد، فيض الأحاسيس ص91

ومضت أعينها قريرة
وكانها دنيا كبيرة
بدءاً بطفلتها سميرة
حسنا صافية السريرة
وكانها فيه الأميرة
فهي المدللة الأثيرة
فرايت أشياء كثيرة
أضحت لمدرسة مديرة
أو ذات فكر أو وزيرة
فالعلم قد عمّ الجزيرة
جعل الـدياجر كالظهير
من بعد ما كانت أسيرة
بخطى موفقة قصيرة
أو أصبحت يوماً شهيرة⁽¹⁾

حملت عرائسها الصغيرة
ومشت إلى ألعابها
ودنت تلاعب بعضها
هي طفلة محبوبه
شاهدتها في بيتهم
كانت وحيدة أهلها
وسرحت عبر خواطري
هذي الصغيرة ربما
أو أصبحت أستاذة
لا تعجبوا مما أرى
والعلم نور واضح
وفاتنا قد حررت
وسعت إلى نيل العلا
لا غرو إن هي وظفت

من قضايا تعليم المرأة

ومن القضايا التي تكشفت أثناء مرحلة التعليم الرفض للزواج المبكر بحجة إكمال التعليم، وهذا إبراهيم الدامغ يعتذر للخاطب، فالرفض جاء من البنت ذاتها:

ولكنني سايرت بالرغم مقودي
بأن تعقد العامين من غير مُسعد
من البعد عن مسراك ما أتربت يدي

أبا العز ما أبعدت نجاك رغبة
فقد أقسمت من كنت ترجو لقاءها
ولو كان لي في عسفها ما يعيدها

(1) مفرج السيد، فيض الأحاسيس ص74 دار ثقيف للنشر ط2 1414هـ-1994م

وورد بعيد الغور آلام مجهد
ولم يشرق على السعي مقصدي؟
إلى ساحك الزاهي بثوب مجرد
وأنت الذي يمتاحك الوارد الصدي⁽¹⁾

ولكنني حملت ما بين وارد
وما حيلتي إن أعذر اللوم وانثنى إِبائي
ولو كان لي محض اختيار لقدتها
فأنت الذي يزهو بك العرس والندی

ولما رأى المجتمع فضائل تعليم المرأة انطلق الشاعر محمد عبد الله المسيطير 1352هـ-
1933م والمتوفي في 1426هـ-2005م، يشدو بفضيلة المعلمات والعلم، ويخلع على
المعلمات مكانة عالية:

شوقاً إلى استمرار خط حياتي
بعد التخيل واضح القسّمات
نفسى أدرس هذه اللبّات
فتمر بي في سرعة أوقاتي
بالنفي أحياناً وبالإثبات
بشاكس أو أحمق أو عاتي
ولديه نثر القول كالأبيات

وظفقت أعدو في الحياة يشدني
وتحقق الحلم الكبير بأن غدا
أنهيت مرحلة الدراسة كي أرى
وأعيش أوقاتي سعيداً بينهم
هذا أسائله وذاك أجيبه
ما أحسن التدريس لولا الإبتلا
أو ذي غباء ليس يفهم دراسة

لكن المعلم والمعلمة يبتهجون بالنابعين من طلاب العلم وطالباته، الذين يتألقون
فهماً ووعياً، ويتقبلون النصح والتوجيه، ويتابعون المدرس بالتدوين والمذاكرة، ويحفظون
نفائس الشعر:

(1) إبراهيم الدامغ - أسرار وأسوار - ص 194 نشر مركز صالح الثقافي في عذبة عام 1426هـ

أما إذا وجد المدرس فتية
من رغبة في العلم ثم حماسة
ثم اجتهاد للحصول عليه من
ومع التجاوب للمدرس فطنة
ويزين ذلك كله عقل فلا
فلسوف يرتاح المدرس بينهم
فيهم من الأوصاف خير صفات
للفهم ثم تقبل لعظات
شرح المدرس أو من الورقات
وترى الذكاء يبين في اللحات
صخب ولا رفع لذي الأصوات
ويحس بالإنتاج والثمرات⁽¹⁾

وهو يرى أن المعلم مربٍ يصلح الفرد؛ ليكون متشعاً بالعلم النافع، والعمل
الصالح، والشعور الصادق، وأن يحمل راية الإيمان، والفكر ليصلح به أبناء المجتمع، أو
يكون داعية لله، حافظاً للقرآن، مستلهماً سيرة الرسول الكريم ﷺ.

ولسوف يحرص أن يكون مريباً
ولسوف يرهاها ويسقي دائماً
ولسوف يسهم في بناء حياتها
ويعدها لتكون جنداً للهدى
ما أعظم التدريس من عمل له
حقاً لتلك الأغصن النضرات
ذاك الجني منها بكل ثبات
بحديث خير الخلق والآيات
والحق والأوطان في الأزمان
آثار في الفتيان والفتيات⁽²⁾

وما دام المعلم يرث العلم، ويبدله، فهو ينتمي لأشرف مهنة، مهنة الإيمان، ومهنة
العقول، ولكي تتم الرسالة فعليه تقوى الله في عمله، ومع كل هذا الفضل، فإن الشاعر
يتمنى على المجتمع أن يرفع من شأن المدرس، ويعلي قدره:

(1) محمد المسيطير - ليالي العمر - 408

(2) عبد الله الشبانة - الزفرات الحرى - 237

تباعته من أشرف التبعات
فيمن يدرسهم من الفذات
جيلاً مناه العيش في الجنات
مترفعاً عن سيء العادات
تبنى لنا جيلاً من الأخوات

إنني أرى التدريس أشرف مهنة
فليتق الله مدرس دائماً
ولترفعوا شأن المدرس كي نرى
جيلاً قوياً صالحاً ومثقفاً
وإلى المدرس والمدرسة التي

ومن آماني الآباء أن تنال بناتهم أعلى الدرجات العلمية، وأن يتحلين بقيم العلم، وأن تكون سلوكياتهن نابعة من الدين والعلم والمعرفة، يخاطب الدكتور موسى العبيدان ابنته فيقول:

وجماها علم مفيد قيم
وهو الحياة، ونعم فيها القيم
وبه على طول الزمان تقدم
للواردين عليه طاب مخيم
ويرق طبعاً طالب ومعلم
ليقام صرح للحياة مقدم
ويزينها علم به تتقدم
بيت خراب واقع متهدم⁽¹⁾

أبنتي إن الحياة جميلة
فهو الجمال لمن أراد تجملاً
فالعلم يحيي ميتاً بنميره
والعلم نهر دائم متدفق
ويضاء داجي الجهل من أنواره
هيا انهلي من عذبه ونعيمه
إن الفتاة تزينها أخلاقها
فإذا خلت منه الفتاة كأنها

لقد طرأت ظاهرة جديدة بعد تعليم البنات تتمثل في كثرة المتقدمات للوظائف، حتى تزامت بهن المدن، فأخذ تعليم البنات يوظفهن في القرى، مما جعل الحوادث المرورية تطرأ على السطح، وقد ذهب ضحيتها بعض المدرسات، ومن هذه الحوادث المأساوية حادثة وفاة ست معلمات في الطريق بين تبوك وضبا، وقد كتب عدد من القصص القصيرة، وبعض

(1) موسى العبيدان - تباريح وجد - 85

القصائد الشعرية تعليقاً على هذا الحادث المأساوي، وقد كتب علي أبو هاشم قصيدة يرثي فيها زميلات زوجته عنوانها "مذكرات معلمة": أبي أول رأسمالي كبير

يجبني كبقرة حلوب
ليأكل زبدة راتي الحقير
فيا نساء الأمية اتحدن
فليسقط أبي
وليسقط بند الأجير

أنا معلمة جغرافيا
في قرية من الصفيح..!
أرسم خارطة وطني
وأزرع حبه كما يزرع الفلاح
حبة بزاليا
وبعد الحصبة السابعة
فعمرنا كالفراشات
بعد الحصبة السابعة
نموت على الطريق
ثمانيا.... ثمانيا⁽¹⁾

التحولات في شعر ابن إدريس

هذا بحث كتبه بمناسبة تكريم عبد الله بن إدريس في مهرجان الجنادرية عام 1431هـ - 2010م.

(1) علي حسن أبو هاشم - أنت النساء - ص35

في هذه الليلة أطل عليكم من خلال مثقف عالي الثقافة بتنوعها، مثقف يمثل الوسطية الفكرية التي تتواءم مع تحديات العصر، يحمل فكراً متنوراً، وعلماً شرعياً واسعاً. ويلج إلى عالم الإبداع الحي والواعي، وتزود بعالم الاتجاهات الأدبية وتنظيراتها، وخاض غمار التجارب الحياتية المعاصرة، ومزجها بالتاريخية التراثية، والأمثال والحكم، والتواصل مع الإبداع العربي قديماً وحديثاً وهو متابع واعٍ بالتكوين الثقافي العالمي، والتكوين الإداري والاجتماعي والصراع الحضاري أو التلاقي الحضاري.

وهو لسان حال أبناء وطنه الذين يرفعون راية الدين، وبينون وطناً شاخماً ويفاخرون بالانتماء القدسي والمكاني للحرمين الشريفين والجزيرة العربية.

لقد كان ارتباطه مع أرباب العلم متواصلاً، وولاءه لولاة الأمر وثيقاً، وإطراؤه لأعمالهم البنائية مشهوداً، شأنه شأن كبار الشعراء والحكماء الذين خلدوا الفضائل في شعرهم، وخلدوا الذكر الحسن للأعمال الجليلة على مستوى الأمة العربية والإسلامية.

نبذه عن حياته

عبد الله بن إدريس ولد في نجد عام 1347هـ-1926م، درس في الرياض وعمل في وزارات متعددة وفي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. جمع شعره في الأعمال الشعرية الكاملة وله مؤلفات متعددة.

القيمة الفكرية

إذا ما تأملنا في المكانة الشعرية التي نصنف ابن إدريس من خلالها لقلنا إنه شاعر القيم الأخلاقية السلوكية، فهو يحتفي بالقيم الإنسانية التي تعلق لبناء الإنسان منفرداً وداخل الحلقة الاجتماعية، بل يتنامى فكره، ويتماهى في التكوين البشري، وتبرز في مسيرته الشاعرية القيم الدينية التي تلبس بها، وتمحور شعره في إطارها. والمتفحص لشعر ابن إدريس ينفذ إلى رؤيته الفكرية والفلسفية، بل يدرك التصالح بين العقل الذاتي للشاعر وتلك الرؤى، وروح المثالية الفكرية والأدبية المعاصرتين:

لا تندموا أبداً فلست بنادم
لي مبدئي ولي عزتي وكرامتي
يُرمى على دربي النضار فأنثي
وسوي من تخذ الخطام معوًلا
لا تُستذل لغير حق أنزلا
مستصغراً شأن النضار ومفضلاً⁽¹⁾

والشاعر ابن إدريس قادر على استكناه الحقائق الفكرية الشمولية التي تنبثق من التكوين الذهني التراثي والمعاصر الذي يدعو إلى تجلي البرهان بالحوار والجدل المنطقي. فالمهمة الإسلامية لا تقف عند فرد أو مكان أو وطن، إنما هي أمنية عالمية؛ فهو يشير إلى الصراع الحضاري الفكري الذي يدير الحروب ويدبرها.

وتنزل القرآن وحيأ خالداً
يدعو إلى التوحيد أشرف مبدأ
ومشت تقيم العدل في أصقاعها
ييلو الأكوان من ظلماتها
ويحرم الأسواء من عاداتها
والأمن للأوطان في ساحاتها⁽²⁾

والأنا في شعر ابن إدريس منداحة في خضم القيم الإنسانية السلوكية التي تنشد تصالح البشرية والتزامها بالقيم الخيرية، التي تبني الإنسان والمكان، وتكشف عن الرؤى الموحدة للبشرية التي تخضع لبراهين الكون، وتنطلق من عقلية نبعت من شعور صادق قابلة للتحقيق في عموميتها، فالحب رباط إنساني عقلاني تدعو له الأديان السماوية، والفلسفات البشرية، مثل الوجودية.

فهو يشير إلى المقاصد الإسلامية العامة للبشرية، فكل من تواصل معها فإنه متساوٍ مع الآخرين، ويشير إلى الفضائل والإحسان والتواد، وكلها قيم إنسانية عالمية، تهفو إليها الضمائر الشريفة، وتتعلق بها القلوب النبيلة.

(1) إبحار بلا ماء - ص 10

(2) في زورقي - ص 14، 16

والخير للإنسان رمز صفاتها
يتنور الثقلان من صفحاتها
يحيي الفضائل في رسيس رفاتها⁽¹⁾

هي أمتي وسدى المحبة نسجها
هي أمتي أكرم بها من أمة
سلكت بأبناء البسيطة منهجاً

ويحكي ابن إدريس جل القضايا الفكرية التي تبتغيها البشرية، وهو يستمطر لها القوة الإسلامية التي تبثها وتحميها، وتغذيها، وتجاهد من أجلها، بل هو رجل يرى أن القوة مبدأ إيجابي إذا هيمن الجور والطغيان. وقصائده في الجزائر وفلسطين وسائر مواطن الجهاد المشروع توحى بقوة انفعال واندفاع، بل يعلن الكفاح ضد الجائر الظالم المعتدي، يقول عن الجزائر:

لا... لن نعيد عن الكفاح
ولن نمار ولن نهون
رغم المقاصل والسجون

وتترأى العقلانية الفكرية ونتيجة التجارب في شعره كثيرة، تجلوها كثرة الشعر الذي يجري مجرى الأمثال، كقوله:

للخير لم تحفل بقول عداتها⁽²⁾
في أمة ضعفت بطول شتاتها⁽³⁾
وذا يخاتلنا، والكل صياد⁽⁴⁾

إذا النفوس تجردت غاياتها
ما للتضامن من بديل ناجع
هذا يكيّد، وذا يبتز طيبتنا

(1) المرجع السابق - ص 13

(2) المرجع السابق - ص 12

(3) في زورقي - ص 17

(4) أرحل قبلك أم ترحلين؟ - ص 55

حق الأمموة إحسان وتكرمة إن العقوق لها جرم وإفساد⁽¹⁾ حفظت مجمدي في يسر وإعسار⁽²⁾

إنني أمام مثقف بنى فكره في مرحلة الشباب، في زمن شحت فيه منابع المعرفة من الطباعة ووسائل الإعلام، وندرة الكتب، وصعوبة الوصول إلى قلب نجد، غير أنه لا يفتأ ينهل من الحراك الثقافي العالمي، بل يؤلف كتاباً بديعاً مفيداً يحمل روح العصر، من جوانب ثقافية متعددة : كالدينية والاجتماعية والأدبية والفكرية، وهو مستوعب للاتجاهات الفلسفية والفكرية والنقدية التي تروج بها الصحافة في مصر والشام، ويدرك أثر الحركات الفكرية والأدبية على الواقع الاجتماعي، وبناء الفكر المعاصر، مشيراً إلى تلك القضية بقوله عن الأدباء والمفكرين: "فقد خرجوا من عزلتهم الفكرية، ونزلوا من بروجهم العاجية إلى حيث يعيش الناس، وأخذوا يشاركون بتجاههم الفكري في بناء المجتمع الجديد تصويراً حياً للواقع..."⁽³⁾.

وديوانه الشعري سجل حافل بالمسيرة التاريخية الحديثة للجزيرة العربية، بل يكتب للواقع العربي والإسلامي، ويدون المشهد السياسي للوطن السعودي. وهو أيضاً يتواصل مع ذوي الجاه والسلطان، فيمدحهم ويشيد بأعمالهم الجليلة، ويحضر المنتديات الرسمية والمناسبات العامة، وهي كفيلة بعزله عن أسباب المعاناة الإنسانية الفردية والاجتماعية.

وأضحى ابن إدريس في مرحلته الأخيرة شأنه شأن الشاعر العربي الذي يسعى لرفع مكانته والترقي في درجات الجاه والمكانة العلمية، كجبرير والفرزدق وأبي تمام والمتنبي، ولو أن الشعراء مازجوا بين التأمل الاجتماعي والرقي الذاتي لاستطاعوا تصوير نزعات العصر والمكونات الاجتماعية شأنهم في ذلك شأن الشعراء المصريين، مثل حافظ إبراهيم، وأحمد محرم.

(1) المرجع السابق - ص 55

(2) المرجع السابق - ص 71

(3) شعراء نجد المعاصرون - ص 47

ونحن إذ نتأمل ديوان ابن إدريس الشعري، ونبحر في دهاليز أسطره وأبياته، نجد غياب المجتمع ومعاناته وطبقاته، والأحياء الفقيرة في منأى عنه، وربما يعود ذلك للتباعد بين المكانة الذاتية للشاعر، وحرصه على ملازمة ميادين العلم، وقادة الحراك الديني، ومرافقة العلماء، وهؤلاء في مجبوحه من العيش، والله الحمد فنحن في دولة أكرمت العلماء وأنزلتهم منازل عليا وهم في معزل عن الأحياء الفقيرة لا يدركون معاناتهم، وابن إدريس انتمى إلى تلك الشريحة الاجتماعية.

وفي رأيي أن الشاعر عبد الله بن إدريس كانت تتجاذبه قوى ثقافية، وكان على مفترق طرق بين ثقافات متعددة، فهو التحق بالشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي المملكة ولازمه، والشيخ معروف بعلمه ونفوذه، ويحمل هاجس الدعوة وحراسة الفضيلة، وكذلك استمع لغيره ممن يدعون في حلقات المساجد، ويقرؤون كتباً شعرية حول المذهب السلفي.

ومن العوامل المؤثرة فيه دراسته في كلية الشريعة وتخرجه فيها عام 1376هـ، ومن هنا فإن الشيخ عبد الله بن إدريس أبحر في الدراسات الشرعية، لكن يُسجل له أنه لم يقتصر على تلك الدراسات، فقد أبحر في مكونات الثقافة المعاصرة، وانطلق شعره من هذه المكونات في مستهل حياته، ودرس الاتجاهات الفكرية الأدبية المعاصرة، وربما كانت تلك الثقافات، وتلك الاتجاهات هي ما دفعته إلى الامتناع عن القضاء.

والرجل استصحب الرافدين الثقافيين في حياته، ترنو عيناه تارة الى رافد الشريعة، وتارة الى رافد الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ونجح في أن يحصن نفسه من الوقوع مغبة الانزلاق. وظني أنه ظل مستصحباً تلك الروافد عبر مسيرة حياته العلمية والفنية والعملية، انظر إليه حين يقول:

صفحة ليست تواريها الدهور
وانتظر بعد دياجي الكون نور⁽¹⁾

وثبة الروح بفكر نير
فاطرق الباب إلى أسمى المنى

(1) في زورقي - ص 239

فهو يجمع في شعره بين الدعوة إلى التمسك بالقيم العليا والدعوة إلى ضرورة الأخذ بأسباب التطور والتقدم، بل إن الشاعر ابن إدريس يتحدث بلسان غيره في أغلب الأحيان، استجابة لمكوناته الذهنية أو لمكوناته الاجتماعية أو هما معاً. وأكثر أغراضه في الإسلاميات، وهي من أهداف مكوناته الذهنية والاجتماعية. ذلك هو الشعر الذي يتحدث عن قوة الأمة الإسلامية، ومحاربة الأعداء، فقد حاز هذا الغرض مكانة فسيحة في شعره:

يا قادة الإسلام مرحى جمعكم	في أقدس الأقداس من ربواتها
متضامنين على المحبة إخوة	كل الشعوب ترومكم لنجاتها
ما للتضامن من بديل ناجع	في أمة ضعفت بطول شتاتها ⁽¹⁾

الهوية:

لاشك أن ابن إدريس كان نموذجاً للشباب الواعي المفعم بالأمال، المشبوب بوهج الغايات والأهداف للأمة العربية، المتجاوز حدود الوعي الاجتماعي العام، مما يوحى بهجرة فكرية وإبداعية إلى عالم فضائي مشحون بالشهب والأقمار في ظل أفق الواقع المظلم الذي تعيشه الشعوب العربية، وكان يحمل ذاتاً واعية تصطدم بها موجات الواقع المأساوي، فانصرف في شعره إلى معالجة الحوادث الكبرى المؤثرة في الأمة.

بيد أن شاعرنا لم تكن انطلاقة الشعرية من النوع الصادم مع قضايا العصر، وظني أنه كان يؤثر السلامة على المغامرة، صحيح أنه كان مثل طائر مغرد في أجواء وطنه، غير أن انطلاقة كانت محفوفة بالالتزام!.. ذلك لأن الناس في بلادنا جارحون كالصقور، على حد قول "صلاح عبد الصبور" والهيمنة الاجتماعية لم تكن حصراً على مجتمع دون آخر، بل هي مسيرة اجتماعية عالمية في كل زمان ومكان، فكل طبقة تصور مصلحتها بوصفها المصلحة العامة لكل أعضاء المجتمع، أي أنها تعبر عن نفسها في شكل مثالي، إن عليها أن تعطي

(1) في زورقي - ص 17

أفكارها شكل العمومية، وتصورها بوصفها الأفكار الوحيدة المعقولة والمشروعة على نحو شمولي. وهذا ما نراه في كل أمة وفي كل دولة.

ألم تر إلى حال الدول الكبرى؟ كيف تبتت أيديولوجياتها الجائرة كالشيوعية أو الرأسمالية أو العولمة، ثم هي في مستنقع المزالق قد هوت، بعد أن تكشف للعالم خطأ معتقداتها وأيديولوجياتها.

على أن ابن إدريس كان طرازاً خاصاً، يمثل طبقة مثقفة تدرك تلك المخاطر التي تتوارى خلف هذه المذاهب البشرية الخاطئة. ومن هنا لجأ هو وغيره من المبدعين المستنيرين إلى التوجيه الرباني، وتعاليم الرسل، فقد كان ذلك في رأيهم هو خلاص الإنسانية ونجاتها في رحلة الحياة الممتدة.

إن الباحث عن هوية الشاعرية عند شاعرنا، يدرك أن هناك مؤثرات كان لها كبير الأثر في عقلانية الشاعر منذ طفولته المبكرة، فهو أولاً قد عايش البناء الديني المنفرد في مستهل حياته، فبنى معرفته على حفظ القرآن الكريم، في مجتمع اتباعي، ملتزم بظاهريته النص أو الأحكام المنتقاة التي يستنبطها كبار العلماء لمجتمعهم، وثانياً التلاقي مع الفكر المعرفي، والفكر الثوري العربي في فترة حرجة من تاريخ الشعوب العربية، التي تزرع تحت نير الاستعمار الغربي، وطغيانه، وما كان يطمح إليه من تفتيت القوي العربية، واستلاب خيرات الشعوب، وإعادة صياغة جديدة لخريطة الوطن العربي. الأمر الذي أدى إلى نمو الوعي العربي عموماً، حتى بات الأمر يحتاج إلى إحداث ثورة فكرية واجتماعية في البلدان العربية.

وقد صادفت تلك المحطات الفكرية، وذلك الجو العربي المشحون بالثورة ضد الظلم والاستعمار فتى عربياً، تجلبب بجلباب أمته العربية والإسلامية، وحمل الهاجس العربي في عقله ووجدانه، فاندفع يصور هذه القضايا الواقعية أصدق تصوير. ومن شعره الذي يجسد فيه هذا الاتجاه قصيدته (من نهج الحياة). وقد أبدعها وهو في مستهل العمر، أو في ريعان صباه، حيث الشعور المتدفق، والاندفاع الوثاب، والإرادة القوية، وفيها اتضح مبدؤه، وتجلّى هدفه، وتبلورت غاياته، فالمبدأ هو رقي الشعب وتطوره، وتفانيه للمعرفة والإبداع،

ومناصرة دينه وقيمه، وتلاحم أمته ومؤازرتهم، ليتحرر المجتمع العربي الإسلامي من ذل القيود والخضوع والاستعمار. وظهور (الأنا) في القصيدة ليس معناها مضادة الآخر والمواجهة معه، إنما هو احترام الذات، ودعوة الآخر إلى احترامها، وإنصافها حقوقياً وإنسانياً.

أنا لا أحفل من دنيا الغناء	بمنال ليس رفاف السناء
أو بجاه ليس يبقى خالداً	في سجل المصلحين الأقباء
واكبوا العصر وشادوا نهضة	تنشر الميت وتفنى للبقاء
لا يرون المال إلا آلة	تصهر الشعب بروح الافتداء
لفقير معوز أو عاجز	مسه الدهر بأياب العياء
إن قوما قدسوا دنيا الجيوب	لعمى عن نواميس السماء
همهم جمع حطام زائل	ذاك هم الجاهلين الأغبياء

إن الشاعر يمثل همة أقرانه من الشباب في تلك المرحلة، فهم يبتغون العزة، وينشدون التآزر والتلاحم والعمل الجماعي لبناء الشعوب والأوطان وحماتها، وعليهم ترك ملهيات الشعوب الداخلية التي تؤدي إلى الفرقة والتضاد.

لا تقل ذلك أصيل أو هجين	فكلا النوعين من ماء وطنين
إنما المجد لشهم نابيه	أبدأ يطمع في سبق السنين
همه الملتاع إشعاع الضيا	ء بليل معتم لا يستبين
يسكب الأنوار من مشكاته	في صدور الحائرين البائسين
ليرى الساري إلى آفاقه	موكب المجد ومغنى الطامحين
فإذا ما انداح في أغوارها	غمر الإحساس فياض معين

من رؤى الحق وأحلام النهى ومجالي الخير من دنيا ودين

إن الأبيات فيها لمحات تاريخية ومؤرخة لحياة جديدة، تساير حياة الشاعر الزمانية والمكانية والفكرية، وتسطر علاقات متداخلة في التركيبة الاجتماعية، وتؤصل للنظرة الكونية لدى شباب غض يتمنى المثاليات، وربما لا يدرك العقبات أو لا ينجسها.

ما انطلاق الحر في دنيا الشعور	كرسوف العبد في دنيا الثبور
ذاك شهم للمعالي صاعد	يتسامى فوق هامات العصور
ليس يثني عزمه أو يزدهيه	لدى الحق مآسي أو سرور
واخو الجهل رتيب حائر	ومع الجهل قناطير الغرور
هكذا الدنيا وذي أحكامها	في بني الأرض إلى يوم النشور
وثبة الروح بفكر نير	صفحة ليست تواريها الدهور
فاطرق الباب إلى أسمى المنى	وانتظر بعد دياجى الكون نور ⁽¹⁾

والقارئ للقصيدة يدرك أنها تشع بمكونات الثقافة الذهنية للشاعر، فهي تصور نبع التقليد، والتأثير الديني والخطاب الثقافي المعاصر، والقصيدة تتلاحم مع المبدع، فهي تكشف في لغتها وتصوراتها وإحالتها التاريخية والدلالية المعاصرة عن تشابك المعتقد والموروث، مع الحالة الحاضرة والمستقبلية، وتفاعلها كلها مع التكوين الفكري المعاصر، والحوادث القوية الضاربة في عمق الفرد والمجتمعات، كلها تتلاقى في لغة القصيدة نابغة من شعور المبدع وتكوينه، ممثلة لحالة الأفراد والمجتمعات.

(1) شعراء نجد المعاصرون - ص 289

شعراء نجد المعاصرون:

إن الاختيار جزء من العقل، وانتقاء ابن إدريس لمجموعة الشعراء الذين أوردتهم بكتابه "شعراء نجد المعاصرون" ينبئ عن فكره، فالشعراء الذين ترجم لهم يمثلون نبض الأجيال الجديدة، يتألمون بألم الفرد والمجتمع، ويتطلعون إلى تحقيق آمال الأمة، وينحتون مسارب الثقافة، ويرسمون طرائقها وسبلها، ويعالجون قضايا تعاني منها الأمة وتعرقل مسيرتها، ولسان حالهم قول محمد بن سليمان الشبل:

يتلوى والأغاني بين جنبيه تنوح
نغم في قلبه الخفاق يغدو.. ويرح
كلما فيه من الشدو دموع وجروح

القراءة الشمولية:

إن الذي يلج في ديوان ابن إدريس يدرك أنه أمام مبدع متمكن، ويستطيع أن يحاور متلقيه بقراءات متعددة، عبر مرحلتين رئيسيتين تميز بهما إنتاجه الشعري فأما المرحلة الأولى: فقد تزامنت مع تلك الفترة التي سبقت تأليفه كتاب "شعراء نجد المعاصرون" وامتدت إلى زمن التأليف. وقد تميزت هذه الحقبة الزمنية بإبداعه الشعري الذي سجل فيه نبض الشباب العربي، المكتوي بالظلم الغربي وتمرده على الواقع الاستعماري الجاثم، وصموده ضد الطاغى الجاني، يجمعه ذلك الهدف السامي وإن اختلفت أيديولوجياته. وكانت أنظاره متجهة ضد المستعمرين، ولسان حاله يحكيه ابن إدريس في قصيدته (لا، لن نعيد عن الكفاح)، وهي قصيدة وطنية حماسية توجه بها الشاعر إلى كل مجاهد في سبيل الحق والحرية والسلام، إلى أبطال الجزائر المغاوير، وإلى جميلة بوحريد، وجميلة بوباشا، وأخواتهما في النضال:

لا لن نحيد عن الكفاح
ولن نحار... ولن نهون
او يستبد بنا السكون
رغم المقاصل والسجون
حتى نمرغ طاغياً
طاغ وقاح
في بؤرة الخزي الفظيع
ونذيقه البأس المريع
فشعارنا
لنضالنا:

الا نحيد عن الكفاح
ابدأ.. ولن نضع السلاح
حتى نطوح بالغزاة
بالفاتحين
الغاصبين
بمخالة المستعمرين
ابدأ سنزحف للقداء
للثأر.. للحق السليب
لنظهر الوطن الحبيب⁽¹⁾

ونحن نلمح في تلك الفقرات نبضات وجدانية تصطرع في قلب نابض يهتز
للمؤثرات الوطنية، ويكتوي مثل أقرانه من بني العروبة لذلك الهوان الذي تكابده شعوب
العرب في كل مكان.

(1) شعراء نجد المعاصرون - ص 295

وأما المرحلة الثانية: فقد ظهر فيها الشاعر في صورة الشيخ المبجل الوقور، الذي عركته التجارب، وخبر الحياة، فتنامى فكره، وأينعت رؤاه، ونضجت خبراته، ومن ثم فقد أطر فكره، وأصغى لصوت عقله، وغلب الواقع على عواطفه، وآية ذلك عندي أنني أرى قضايا مسكوتاً عنها في شعره، مع أنها لازمة لكل ذي موهبة شعرية، وتمثل في النظرة التي تخترق مكونات الواقع، فكل شاعر من البشر يتجاوز ما حوله بفعلية ذهنية أو بوحى من شيطان الشعر، والقضايا المسكوت عنها تتمثل في الإنارة الوجدانية الذاتية الغزلية، مع كونه في قوة الانفعال والتوهج الوجداني، وأيضاً ما يقع على ذاته من ألم وأحزان نتيجة الصراع البشري الحياتي الذي يكابده الإنسان في حياته، وهو صراع حتمي وقدرى لا فكاك منه، ثم من أولى بوهج الإحساس من الشاعر.؟!

ونفتقد كذلك الألم الجمعي عند الشاعر في مكونات الحياة التي تسربت على أوطان الأمة العربية من التيارات المنبعثة من الشرق والغرب.

غير أنني أرجح أن تكون ثمة تجارب شعرية محجوبة سواء أكانت مكتوبة أم حجبتها الشاعر ولم يستطع بثها وبعثها في هذا العمر المتأخر. ربما لحرصه على وأدها مبكراً، ورغبته في تقديم إبداع يعلو فيه صوت العقل لا الوجدان، خشية النقد والتجريح، وربما كان ذلك أيضاً محض وهم وخيال، ولكنه عملاً بالقول السائر: "باب يجيك منه ريح سده واستريح..!"

التعاقب مع الواقع العربي والإسلامي :

يشكل شعر ابن إدريس حكاية الصورة أو الظل للتركيبية الفكرية. فشاعرنا فضاء رحب لثقافات متنوعة، وآمال تجاوز الواقع، وتكشف أشعاره عن تحولات في العقلية الوطنية المعاصرة التي تدلف إلى رحابة التنوع الكوني المعاصر، فهو وليد بيئة تشبعت بالثقافة الشرعية الفقهية التطبيقية، ولم ينكشف لها الثراء الثقافي المتلون والمتنوع، لكن الشاعر قفز على الواقع المحلي، وتعالق مع الواقع العقلاني الذي يشكل الحاضر المظلم للفرد العربي المسلم، ويجسد الحالة المأسوية للأمة العربية والإسلامية، ويكشف عن تطور الثقافة وتماهيها، فهو في زمن لا يجد الوطن فيه حدود إقليمية، ولست أستطيع حصر تلك المؤثرات

التي وحدت الشباب العربي في تلك المرحلة، وصيرت منه كياناً له مقاصده وغاياته السامية وإن اختلفت طرائقها ومسارها.

ولسان حاله في قصيدة (في زورقي) يجسد أحاسيس المجتمعات والأفراد التي تدرك أن السلام حلم وليس واقع، وأن تيارات الشقاء تضرب أعماق الوطن العربي، متمثلة في التيارات الاستعمارية الانتهازية، وتيارات التمزق والتخلف، وتيارات الفكر المتضاد والمتصارع.

هذا الاستلهام للماضي والاحتواء للحاضر والامتداد للمستقبل يتمثل في شعر المرحلة الشبابية عند ابن إدريس.

رباه بلـغ بالسلامة زورق الحـلم الجميل
فهنـا أعاصير الشقاء تفـح من خلف الأصـيل
وهنا شراعي لامس الموج المـجنح في ذهـول
وتلفت القلب الشـجي فهالهـ المس الثـقيل
فإلى الأمان لشاطئ ننتـسم الريح العـليل
لعب الخضم بزورقي طغى على مجرى الشـعور
أفما اطـلعت فخلتني كالطير في كف الصغـير..؟
إن كان ذاك فإني ما زلت أحلم بالعبور
إن العبور إلى الأمان لخطوة الشهم النيـل
رباه بلـغ بالسلامة زورق الحـلم الجميل⁽¹⁾

(1) شعراء نجد المعاصرون - ص 290

الأدب والمجتمع:

إن الذي يتابع الحراك الاجتماعي ويدرك تحولاته، ويلج إلى مكوناته الذهنية ويسبر أغوار تفاعله مع القيم والأسس التي تعارف عليها وألفها، ثم يتفحص شعر ابن إدريس يدرك أن شعر الرجل إنما هو صورة عاكسة وظلال للحراك الاجتماعي بمعتقداته وتكاتفه وتلاحمه وتأزره حول قيمه، بل يتراءى له من خلال شعر ابن إدريس الالتزام والإقدام، وتارة يتراءى له معالم الشرائح الاجتماعية المختلفة، كما يتجلى له صورة الفرد الحذر الذي يدرك سطوة وسلطة المجتمع من حوله، وتارة أخرى تتكشف له لمحات تضيء جوانب الاتحاد والتعالي في شريحة من شرائح المجتمع، كما تظهر أيضاً نمطية الانتماء بقوة يشترك فيها المبدع مع العالم مع طالب العلم مع سائر أفراد المجتمع، حيث يجتمعون حول منظومة لها اتجاهاتها وقيمتها، ولها أهدافها ومقاصدها.

وشعر ابن إدريس يجمع بين الوسيلة والكشف، ولنرى من ذلك جانب الوطنية والطبقية، فهما تتجسدان من خلال التحليل النقدي لشعر ابن إدريس، بل تارة يبلغ به الأمر أن يكون صوتاً إعلامياً اجتماعياً، ولا ضير في ذلك مادام الأمر يؤدي إلى بناء وتلاحم وجمع واتحاد. وهو الأغلب في شعر شاعرنا، يقول عن الجزيرة:

وشعارها الإيمان والإصلاح
أنى لها الإحصاء والإلماح
لولا جهاد مرعف وكفاح
من صفحة التاريخ وهي بياح
نسمو به وضميرنا مرتاح
لغداً وريق طيره صدّاح⁽¹⁾

عادت إليك بهيجةً مزدانةً
أم العروبة والمآثر جمّة
هذي المكانة ما اعتليت سنامها
هذا التراث الحي نسخة ما مضى
هذا التراث الخصب إرث جدودنا
هو لمسة من أمسنا وخميرة

(1) إبحار بلا ماء - ص 44

و حين نمن النظر في لغة الشاعر ابن إدريس ندرك قوة ارتباطها بالمجتمع وثقافته،
وأنها تحمل ألفاظه وتحمل دلالات الألفاظ الشائعة، والمضامين الاجتماعية، ومجتمعنا يرتكز
على المعجم الديني كثيراً، وشعر الشاعر يصور كثافة العلاقة الاجتماعية وتأثرها بالروح
الدينية، ويجسد ألواناً شتى من مضامين تتجلى في لغة الشاعر وأسلوبه.
ونحن لو أخذنا نموذجاً واحداً للاستشهاد به لكفانا، كقصيدته (الأبالسة)، فهذه
اللفظة - العنوان - دارجة على السنة شرائح المجتمع بمعنى الأشرار من الناس الذين ينثرون
بذور الفتنة والصراع بين أفراد المجتمع، واللفظة أصلها يعود إلى مركز ديني؛ فإبليس هو زعيم
الشياطين، وهو عدو آدم الذي أخرجه من الجنة، استمع إليه حين يقول في مطلع القصيدة:

تصارعني بالشر خرس أبالسُ لتأخذني أفكارها والوساوس

فالصراع لفظة لها دلالاتها الاجتماعية، فالعرب في صراع دائم، على المستوى القبلي
والطبقي والإقليمي، كما أن الفقر وصعوبة الحياة مصدر من مصادر الصراع. ولاشك أن
الصراع بين الخير والشر صراع أزلي قائم ودائم بدوام الحياة

وما أنا من يغشى الضلال مُيمماً
ولكنني اسم والى كل غاية
فما قيمة الإنسان إن ذل نفسه
وما قيمة الإنسان إن زال خوفه
فيا رب البسنى تقاك فإني
دعوتك يا رباه والقلب خاشع
فلا تغفلن دوني لفضلك مدخلا
إلى موقف فيه الرؤوس نواكسُ
تؤطرها الأخلاق والحق شامس
على مذبح الأهواء والليل دامس
من الله.. أو رانت عليه الحنادس
لأربا بنفسي أن تدور الهوامس
ببابك لم يبرج.. ولا هو يائس
فأنت الكريم الحق والذنب حابس

وأطلق أساري من ذنوبي تائباً عليك اعتمادي لو زني الأبالس⁽¹⁾

فالألفاظ "يغشى، الضلال، مُيمماً، الرؤوس" كلها من المعجم الديني المتداول اجتماعياً، و"نواكس" لفظة اجتماعية لها دلالتها الانكسارية التي تنجم عن الهزيمة، ومن ثم الضعف. والنقاد والباحثون لو تأملوا العلاقة الاجتماعية وصورها وتشكلاتها من خلال الألفاظ، وكذلك لو وقفوا عند التراكم المضموني والمعاني الجزئية لبرزت لهم صور شتى من التلوين والتكوين الاجتماعي.

الشاعر والالتزام الفني؛

التزم الشاعر ابن إدريس بالإيقاع الشعري القديم في جل شعره، وكأنه اقتفى الرعيل الأول من كبار الشعراء، ولكن المغايرة تنهل من وحي المعاصرة. فأنت تعايش شعراً ملتزماً بالموسيقى، وهو ينبجس من نبع الأحاسيس المتأججة بالانفعال الوجداني الذي يموج بمتغيرات العصر، ولا ريب في أن شعره عموماً مرآة صادقة انعكست عليها معاناة الإنسان العربي وهمومه، وأحلامه في غد مشرق مزهر.

ومضى بي الإحصار يقتحم الحواجز والسدود
والقلب يخفق لاغياً والفكر يعلوه الشرود
ومحيطنا ليل فهل نور يضئ لنا الوجود؟
ولقد سئمت وعاقني عن مطمحي الليل الطويل
فتنفس الإصباح عن نور أضياء لي السبيل⁽²⁾

(1) إبحار بلا ماء - ص 116

(2) شعراء نجد المعاصرون - ص 291

فهو من خلال الأشكال الفنية القديمة استطاع أن يفجر طاقته الفكرية الشعورية ويغدو بحق لسان عصره ومرآة مجتمعه المحلي والعربي، فالشعر ذو الأصالة الفنية يستمد ثوابت المكونات الفنية تماماً كما يلتزم بثوابت المكونات الفكرية، غير أن شعره الذي التزم في قوالبه بنهج القصيدة العربية، كان إذاك يخلق في فضاءات عصره، متناولاً كما أسلفنا قضاياها الواقعية.

ومن صدى وقع الحوادث العربية عليه ثورة أبناء الخليج العربي في عمان:

تجري على نسق وفي إتقان	هي وثبة الوعي الرفيع الباني
دوت لترفع راية الإيمان	هي صرخة الحق المجلجل في الفضاء
ثارت تصد ضراوة العدوان	هي زارة الأسد في آجامها
مستعبدى الإنسان في الأوطان	هي ثورة الأحرار تنذر بالفنا
من دون خوف أو معرة شان	السارقي الثروات في رآد الضحى
والطاعين كرامة الإنسان ⁽¹⁾	العابثين بكل حق أقدس

والشاعر يدرك الألعبوة السياسية ومكرها، بل استبان أهدافها ومقاصدها في وعي نابض بالواقع. يقول عن الاستعمار الإنجليزي:

باسم الحضارة والرقي الباني	خدعوا الشعوب لحقبة من دهرها
وإذا الرقي فظائع الطغيان	فإذا الحضارة نزعة وحشية
عاشت على الأطماع والأضغان	تبا لكم من أمة مسعورة

(1) في زورقي - ص 57

فالشاعر يفجر ذاته مستلهماً روح الجماعة نابضاً بتجربة الحاضر الذي ولّد الغليان
إبان الزمن المكون لقصيدته، ويعلق ثورته النارية على المغتصب المعتدي:

وطئي رقاب الانجليز وأحرقني
لك في الجزائر أسوة محمودة
كم صارعوا العدوان في جبروته
شاهت وجوه الانجليز الغادرين
برحاب "نزوى" عصبة الشيطان
وببور سعيد وشعبها المتفاني
لم يرهبوا الموت الزؤام الراني
وطوحت في عالم الخسران⁽¹⁾

التجربة الذاتية:

ابن إدريس يذيب التجارب التراثية في شعره، ويرسم وعي الحاضر الحياتي في
منظوماته وإبداعاته، وتفيض أشعاره بتوالي الحالات النفسية وتنوعاتها وتشكلاتها نتيجة
للتيارات العابرة في أمواج النفس البشرية، تأمل قوله الحائر إذ يناجي ليله في لحظة من
لحظات الاغتراب القاسية:

يا ليل لا أنفك أكتب جاهداً
الحظي المنكود أرسل زفرتي
أم للحياة إذ أنطوي إنصافها
أم للنجوم إذ ائتلقن خوافقاً
أم للطبيعة في مشاهد جمّة
أم قسوة الحلك الرهيب يلف في
فيك القصيد لبالي المكسور
ويوج قلبي في لظى وسعير؟
بين اللبيب وجاهل مغرور؟
مرحاً وطفن عوالم الديجور؟
تغري الشجي بجمها المسحور؟
جلبابه ألق الضيا والنور⁽²⁾

(1) المرجع السابق - ص 60

(2) في زورقي ص 268

ولا ينفك عبد الله بن إدريس يصف شعوره الدافق، ويسجل نبض أحاسيسه المتلاحمة مع المشهد الخارجي، فهو يحمل النفس اللوامة التي تتعاقق مع الكون بجيره وشره وبجلاوته ومرارته، ببؤسه وشقائه، وفرحه ومرحه، بنوره وضيائه، وظلامته وعمته. وينقلنا معه في مناجاة وحوار مع النفس:

يا ليل حظي في الحياة كقطعة
لم أجن من متع الحياة وسيبها
منسوجة من وجهك المنظور
إلا نقاء سريرتي وضميري

ثم هو يؤوب إلى رشد، ويتحلى بالتفكير العقلاني، وناجي ذاته الداخلية: ليست الحياة دائماً كما ترين، ليست هي لحظة ما تشاهدين، وإنما فيها أكوان من عالم الخير والجمال تتكاثف في مكونات أخرى تسر الناظرين. ويتخذ من اللوحات الكونية صوراً حسية تتراءى للناظر، ويتوحد مع الطبيعة في شعره كشاعر رومانسي مبدع.

فأرى الجمال مرفراً ينساب في
وأراه في ملد الغصون يهزها
روض أغن مطرزاً بزهور
مر النسيم مضمخاً بعبير
وفي النجوم كلؤلؤ منثور
وأراه في الشفق المورّد بالغروب

دلالات الألفاظ والتراكيب:

ألفاظ ابن إدريس وتراكيبه نابعة من المكونات الذهنية والفكرية التي تضافرت في تكوين أدبه عموماً، ومعجمه الشعري نتاج تمخض من موهبة الشاعر الفطرية، علاوة على اطلاعه وقراءاته، وانفعالاته الدافقة إزاء قضايا مجتمعه.

والقارئ حين يتأمل في معجم ابن إدريس وفي تراكيبه يمتلئ قناعة بأن هذا المبدع الكبير لاشك متأثر على نحو ما بمدرسة الديوان، ومتجاوبة روحه مع شعراء المهجر، ومتميم فكره بالاتجاه الرومانسي...!

وآية ذلك أن القارئ لا يجد في ألفاظه غلظة في الصوت، وتعقيداً في المعنى فالألفاظ واضحة، وسهلة، وجزلة، والتراكيب في نسج من البيان متينة وقوية ومستمدة من صميم الواقعة الحاضرة، ونتاج لثروة فكرية مستقاة من أحداث العصر، تتفجر بالمضامين الوصفية المباشرة في أغلبها، كما تحمل أطيافا من الصور تتجاوزها التراثية والمعاصرة.

ولتتخذ مثلاً على ذلك، قصيدته في الحرم التي تعرض فيها لفتنة جهيمان، حين دخل الجنة الحرم، وقتلوا وفتكوا بالمصلين والطائفين والعاكفين، فإن ألفاظه وتراكيبه كانت كالأموج المتواترة تندفع برفق واضحة، جزلة، يكتسيها حزن الحدث وبشاعته:

الله أكبر لم تعد مسموعة	فيه.. نداء للصلاة يجاب
حبس المآذن والمؤذن بغيهم	وتكلم الرشاش وهو خراب
هجر المطاف وفزعت رواده	والطائفون تجندلوا أو غابوا
والراكعون الساجدون تشردوا	وخلا المطاف وعُطل المحراب
كم أزهقوا الأرواح وهي بريئة	في موطن فيه الدعاء مجاب
حتى الحمائم رمز كل وداعة	قد فزعت وجلت لها أسراب ⁽¹⁾

ونستطيع في يسر أيضاً أن نقف على ملامح القصيد في شعره الوجداني، على نحو ما نرى في قوله:

معذبتني بالجمال الطري	وأسرتني بالمنى الحاملة
وجارحة كبريائي ارحمي	شبابي وحيرتي الواجحة

(1) في زورقي - ص 23

أنا بك دون العذرى معنيّ وأنت بهجرك ظالمة

ويتجلى اتجاه الشاعر نحو التعبير عن قضايا عصره الشائكة في نماذج الشعراء الذين ترجم لهم، ف شعرهم كشعره طافح بالتحدي والرفض والأمني الوطنية حتى التي يرفضها المجتمع. ويتكشف أسلوبه الرائق العذب أيضا في مراثيه التي يستعرض فيها مناقب المرثي وأعماله الفاضلة، وما اتسم به من فكر رشيد، ومبادئ سامية. كل ذلك يتشكل في ألفاظه المختارة وتراكيبه وصوره.

ولاشك أن ذلك يلقي بظلاله على جانب آخر في شعره، وهو وظيفة الأدب الأخلاقية، فابن إدريس ابن مجتمعه الذي يعلي من شأن القيم الأخلاقية بدافع ديني خالص. انظر إلى رثائه في الملك عبد العزيز، ورثائه في الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ. سيلوح لك حينئذ، كم كان الرجل شاعراً متقد العاطفة، صادق الشعور، محتفياً بالفضلاء، وممجداً للقيم السامية.

كما تناول الشاعر قضايا أخلاقية معاصرة، كان البعض منها نتاجاً طبيعياً لواقع المواطن العربي، الذي قل تمسكه بالقيم الفاضلة، وعزت قيم القناعة والرضا، ومن ذلك شعره عن بيع الذمم من اجل المال إشارة إلى الفساد المالي:

فلقد رأيت المال يُجهد أهله	في جمعه مما أسفّ وما علا
ولقد رأيت الكثر خادم ماله	لا المال يخدمه حفيماً مبهلاً
ما المال إلا بغيّة ووسيلة	لبلوغ ركب يقصدون المنزلاً
لا تحسبوني داعياً لزهادة	متصوفاً يرضى الحياة تبتلاً
كلا.. ولا أدعو لرفض متاعه	مما يحل تنولاً وتمولا
أبدأ.. ولست بكاره انداءه	لكنتي أبغي المسار الأمثلاً ⁽¹⁾

(1) إجمار بلا ماء - ص 10

الوضوح والإضمار:

شعر ابن إدريس يطرح سؤالاً قوياً في خاطري، ألا وهو: هل يكون الوضوح الشعري وراءه غموضاً، أو يتوارى خلفه تأويل ينبئ عن حراك اجتماعي أو ذاتي داخلي؟! وهل الحذر عند الشاعر يستطيع أن يجنب المحذور منه سواء أكان محذوراً مجتمعياً أو مذهبياً أو سياسياً؟

أغلب الظن عندي أن الناقد المتأمل المؤهل بتكوين فلسفي ومنهج فكري يستطيع أن يتأول ما وراء الظاهر المنطوق، وينشره للقارئ أو المتلقي، وقديماً قال الفيلسوف اليوناني أرسطو: "إن الفلسفة هي تحليل الظواهر أو الأشياء".

وهل نرى من وراء حجب السياقات والصور ثمة أنواعاً من الحوار أو الجدل الباطني المضمّر بين الشاعر ومكوناته الذهنية أو تركيبته الاجتماعية؟ إن وظيفة الناقد هنا هو تمحيص ذلك فكرياً تماماً كتمحيص الفيلسوف.

وقصيدته في رثاء شاعر لم يمّت، إنما هي إسقاط لذات الشاعر، لأن الشاعر المرثي مات وهماً بجاذبة سير قسراً، لكن الشاعر يقول إنه ملّ الحياة، واستماله روح النبوغ، والنبوغ جف، وقراءتي للقصيدة توحى لي أنها إسقاط على حياة شاعرنا ابن إدريس وطموحه الذي يرى أن لم يبلغه:

أتراه ملّ السير في ترحاله	حديباً يروم السعد في إخطاره
أم صرّم الشؤم المرين بساحه	خيّط الرجاء فحط في أوكاره؟!
ملّ الحياة تلفه بقتامها	وتذيقه الآلام في أطواره
أغرّت به روح النبوغ سهامها	فتحطمت لما هوى بجواره
غنته آخر مقطع لقصيدة	فغفا شرود اللحن في أوتاره ⁽¹⁾

(1) في زورقي - ص 216

والشاعر يبيث فكره عبر الدلالات الظاهرية والخفية للغة الشعرية، بل تتكشف المفارقة المضمونية، مصوراً للحراك المجتمعي أو ناقداً له من خلال التضادية الظاهرية أو القبول الذي يوازيه رفض للتضاد

أبنيّ إن أباكمو لم يستطب	أن يستهين بعلمه متوسلاً
أو يستهين بعزة موروثه	تأبى المروءة أن تُذلل وتُخذلاً
أو يستهين بفكره وبجسه	ومواهب تبني المجادة والعللاً
كلا.. فلست ببائع أو مشتر	بمبادئي نزل الطماع أو اعتلى
فرجولتي تأبى النفاق تقرباً	وكرامتي تأبى الهوان تحولاً ⁽¹⁾

تلك نزعة وجدانية متأثرة بالمدرسة الرومانسية التي ترفض القهر والظلم وترفض التوسل.

عنصر الإيقاع:

التشابه الكوني ظاهرة يدركها المتأمل بين سائر مكونات الكون؛ بين البشر، وسائر الموجودات الحية، فلا عيب في التشابه، والتقليد نوع من المحاكاة والتشابه، والتقليد يولد الإبداع، ومن هذا الإتياع: ظاهرة موسيقى الشعر العربي، والوزن العروضي لا يحجب الإبداع، بل هو مضمّاره، ومغذٍ له، ومعين عليه، وحافظ له، وهو ليس معناه رفضاً للشعر الحر، فالإبداع لا تحصره حدود ولا قيود، وكل اتجاه يستوعب الانطلاق والتجدد والتغاير.

والتزام ابن إدريس ببناء القصيدة العربية في جل شعره، إنما هو تشابه وإتياع، لنهج في القصيدة العربية انتهجه كبار الشعراء العرب، وقد تفرد فيه شاعرنا وأبدع. متصرفاً في اللغة في سهولة ويسر، مؤثلقاً في تجاربه الشعرية، مبدعاً في سياقاته التركيبية محلقاً على جناح

(1) إجمار بلا ماء - ص 13

القصيدة العمودية التي تلتزم الوزن الواحد والقافية الواحدة. وابن إدريس وظف الأوزان توظيفاً متميزاً، واتخذ من الفعل الموسيقي الداخلي عوناً له.
فالقارئ لشعره أو السامع يجد أن الألفاظ تحمل دلالة موسيقية من ناحية بنائها اللغوي، وتجاور حروفها، وكذلك تكوين الجملة القصيرة وتجاور ألفاظها، فالألفاظ ذات إيقاع والجمال ذات إيقاع. وهي متلاحمة مع التدفق الفكري المهيمن على الشعور. وقد استثمر ابن إدريس بلا تكلف تلاحم الجرس الصوتي لعوامل البناء الموسيقي، فالعلاقات الصوتية عنده تعانق أحاسيس المتلقي بهدوء.

يا سارق الأحلام من بين جنفنا

وزارع الأسقام من نبع عيننا

طف بي مع الأنسام في الروض والزهر

لعلني أسلو...

رجع أغانينا في سكرة الروح

وأندب أمانينا بلحن مجروح

واذكر مغانينا في هدأة الفجر

آه.... متى أسلو؟

يا لوعة حرى في قلبي الباكي

أوقدتها جمرأ بلحنك الزاكي

فاستوجي أجراً وسرحي فكري

فربما أسلو..!

ها أنت يا قلبي ومجتلي فكري

وقفت في دربي لتوثقي أسري

بثغرك العذب ولحظك السحري

فالآن لن أسلو

يا وردة عذراء لم يجنّها جان
شممتك عطراً فهجت إشجاني
أعدت لي ذكرى ماض من العمر
فالآن لن أسلو⁽¹⁾

فأنت ترى جرس الحروف الياء والألف، والنغم المتألف في (بين جفنيا)، ثم لين الألفاظ وحسن تجاور حروفها الذي منحها إيقاعاً ذاتياً للكلمة مما جعل مجاورتها للألفاظ الأخرى يبني سياقاً متآلفاً، وهكذا لو واصلنا التحليل لكشفنا عن موسيقى متلاحمة من مكونات اللغة وجزئياتها.

ثم إن الشاعر قد استهل القصيدة بالتنوع في أبياتها، فالقصيدة وردت عنده متنوعة، فتارة ثلاثة أبيات ثم مقطع آخر مكون من بيتين، ثم يعود لثلاثة أبيات.

ويمثل هذا البناء قصيدته المشهورة (في زورقي)، وفي قصيدته (سلوان) يأتي بثلاثة أبيات ثم بخاتمة مفصلية مكونة من كلمتين. والأبيات عنده مجزوءة، فهو يميل إلى الرقة والسهولة كما يتضح من القصيدة السالفة.

وهو يقترب من التنعيم الأندلسي الذي تجسد في الموشحات مع أن "ابن سناء الملك" يدعي سبقه وأوليته.

بل هو ينظم قصيدة مكونة من مقطعات أكثر من رباعيات أو خمسات، فبلغت المقطعة عنده سبعة أبيات، وجعل القصيدة مكونة من أربع مقطعات، وليست موحدة في قافية واحدة، وهذه القصيدة هي (من نهج الحياة) في مستهل حياته الشعرية.

وفي تلك المرحلة من إبداعه الشعري دلف إلى عوالم شعر التفعيلة كما في قصيدته (صوت الجزائر)، ولكنه في المرحلة التالية، حينما تجاوز مرحلة الاندفاع، إلى مرحلة النضج الفكري والثقافي، والتركيز في شعره على الموضوعات الفكرية والسياسية والاجتماعية، التزم

(1) شعراء نجد المعاصرين - ص 292

حينئذ البناء الموسيقي الذي يقوم على القافية الواحدة، وإن كتب القصيدة مقطعات كما هو في القصائد الرثائية وقصائد القضايا الإسلامية.

وملخص القول:

إن الإيقاع عند ابن إدريس متنوع، فالشاعر زواج بين عمود الشعر القديم وقبس من الشعر الحديث، إلى جانب تعلقه بالموشحات وتقسيم القصيدة وإن قصرت. ونهجه هذا يوحى بالانسجام بين المضمون والانفعال ودورهما في تشكيل اللغة والصورة والإيقاع. كما استطاع أن يوجد التلاحم بين المكونات الشعرية لإبداعه؛ لينقل للقارئ العربي تصورات الإنسانية الذاتية، وحسه الجمعي المعبأ بالهاجس القومي والوطني.

قراءة في ملحق "إبداع"

(المسائية/العدد 1413/3368هـ)

أقترح على الملحق أن يعني بقضية التشكيل، لاسيما في الشعر فهو يُعين على تذوق القراءة، ويساعد على مران اللسان ويصحح مسار المضمون..."

زكي قنصل والعصامية :

إن العصامية إذا تألقت تخطف بصري، وتستحوذ على كياني، فكيف إذا كانت أول زهرة ألتقي بها في إبداع المسائية هي عصامية (زكي قنصل)؟!
وزكي قنصل هو ذلك المهاجر الشامي الذي ذاق نفسه مرارة الغربة، فأخذ يعمل ليكسب ويعيش، وطفق يتعلم ليبنى فكراً، ويتألق إبداعاً.
والعيش في بلاد لا مكتبات فيها ولا علم إنما تعتمد على النذر اليسير من إصدارات الصحافة، وعدد محدود من الأدباء، ورغم ذلك فإن نجمه الصاعد يعلو ويسطع شاعراً وكاتباً، مما يدل على كونه رجلاً عصامياً بنى نفسه رغم ما اعترضه من صعوبات وعراقيل، ولعل ممارسة الشاعر للتحرير قد صقلت موهبته وعصاميته معاً.

وزيارة هذا الشاعر الكبير للوطن السعودي وإعجابه به تذكرني بسياسة استقطاب العقول التي انتهجها الملك عبد العزيز في مستهل النهضة، وهي سياسة لا ريب أخالها تعود بالنفع على بلادنا؛ فتشجيع مثل هذه النخب المثقفة واستقطابها لزيارة الجزيرة، تمكث بها زمناً تدون خواطرها، وتتفاعل مع ثقافتنا، وتمنح آراءها النيرة إذا استشيرت لاشك سيعود بالنفع العظيم على بلادنا من ناحية، وتتداخل ثقافتنا في تكوينها المعرفي والشعوري من ناحية أخرى. وهذه مسألة لن تتحقق على النحو المنشود إلا إذا نشطت ملحقاتنا الثقافية في البلدان العربية وغيرها، واضطلعت بهذه المهمة الجليلة، مهمة استقطاب المثقفين، ونشر ثقافتنا،

وكتبتنا، وأدبنا الغزير الذي حاز إعجاب شاعرنا زكي قنصل نفسه خارج حدود الوطن السعودي، ولا شك أن الأمر سيجر نفعاً عظيماً أيضاً على المؤلف السعودي عينه.

قِيسَات من الملحق:

- على الصفحة التاسعة من الملحق مقطوعة بعنوان (بوح) لعبد الله بن سليم الرشيد، وفيها تعاتب المعشوقة الشاعر فيما هو ظاهر من الأبيات، ولعل هذا العتاب صادر عن وجدان الشاعر نفسه، حيث يقول:

بعض هذا العتاب فالقلب واه وحرروني تود أن تستريحا

وقد يكون الشاعر متوسلاً الرمزية حيث يقول:

بعض هذا العتاب لا تجعليني ألفظ الأمس والجمال القبيحا

فهذه الحضارة البراقة التي تدعوه تؤدي به إلى تذوق الماضي المرّ، ولكنه سرعان ما يلفظه كأنه لقمة غير مستساغة، ولست أدري كيف يكون الجمال قبيحاً؟! اللهم إلا إذا كان الخطأ في تمييز الجمال من القبح كامناً في الذهنية الأولى التي لا تملك القدرة على التمييز بين ماهو حسن، وماهو قبيح!!

- وهذا هو الشاعر يحيى السماوي ينقلنا إلى ماضيه البعيد في قصيدته (رانيا) التي تتدفق نبضات شعورية تلتقي وشكل القصيدة الفني، فهو يقف معها مباشرة في تفعيلية واحدة:

أخال بيوت قرينتنا تغازلني وتفتح لي نوافذها حقول التين

والقصيدة تحكي حكاية الأمس للشاعر وجيله، وبيئته، وذلك التعلق النفسي
القطري بالدور والمنازل ومهد الطفولة والصبأ، ومواطن الذكريات البرينة الحلوة، فالقصيدة
في جملتها خاطرة عابرة، أو موجة لطيفة من موجات الذكريات.
غير أننا لا نشاطره المضمون حين جعل كفي "رانياً منديلين، فهل هما لإزالة العشق
وتباريح الغرام؟ أم أنهما لغرض لم يستبين؟

كفأ رانيا للعشق منديلين ولي من رانيا أحلامها الخضراء

• يطالعا الشاعر إبراهيم خليل إبراهيم بقصيدة تفيض عذوبة ورقة، ناهيك عن كونها
تثير مشاعرنا نحو قضية اجتماعية أسرية وإنسانية، وهي قضية اليتيم الذي يعانيه النشء
الصغير من جراء فراق الأب أو افتقاده، وهي قضية تلقي بظلالها السوداء على
نفسيات الأبناء لاسيما عندما يكونون في فترة الطفولة المحتاجة إلى الرعاية والحنان
الأبويين. يقول الشاعر على لسان الأم الملتاعة:

ماذا جناه الطفل حتى يكتوي بسياط بعدك والفراغ الملهب؟
ماذا جناه الطفل إن بعد الهوى سيعيش كالطير اليتيم الأزغب
بالأمس قال وقد بدا متألماً: إن مت يا أماه هل يأتي أبي؟!

والقصيدة تكشف عن بعد اجتماعي مأساوي آخر هو الهجران بين الزوجين
وانفصالهما بعد قصة حب تقطعت خيوطها بمُدية الحياة الصعبة، أنها قصة الأمنيات
والأحلام الجميلة والرومانسية الواهية التي لا تستند على أرضية ثابتة من الواقع، فيلتقي
الحبيبان زوجين قد ركبا سفن الأمانى، لا يحسبان للواقع حساباً، فإذا الأحلام تغدو
خيالات، والحب سراياً...!
وعن ذلك عبر الشاعر بقوله:

أو لم تكن أنت الذي ناديتني
وحملتني في هودج الحب الذي
وعلى بساط ساحر فوق السحاب
فسبحتُ بجرك والأمانى مراكب
زائته أحلامي وندى مراكي
رفعتني وعلى السنا أبحرتُ بي

والقصيدة تفيض بالشعور الخصب، فالشاعر استلهم حياة تلك المرأة، وتحدث عن معاناتها بضمير المتكلم، فكأنما قد عبر عن مأساة المرأة أصدق تعبير، وتلك القصيدة الرائعة في نظري هي تاج في مفرق ملحق (إبداع) لهذا الأسبوع، انظر إلى عذوبة ألفاظ القصيدة في هذا الموضوع:

توجتني في موكب فكأنني قطر الندى تحتال بين الموكب

- أفرح على الملحق أن يعني بقضية التشكيل لاسيما في الشعر؛ فهو يُعين على تذوق القراءة، ويساعد على مران اللسان، ويصح مسار المضمون، ولنضرب مثلاً بقصيدة (أنا وأنت) لمعيض العسيري فالعنوان به لبس وغموض لافتقاره إلى التشكيل في لفظة (أنت). والقارئ لمقدمة القصيدة يتبادر إلى ذهنه من الوهلة الأولى أن الشاعر لا ريب يتحدث عن علاقة تربط بين صديقين حميمين من الشباب الذي ينبض قلبه بواقع المسلمين المتهالك، غير أن الأمر يحتاج إلى قرينة إذ الأبيات اللاحقة تعرض لقضية عشق وقصة غرام، ولو أن التشكيل كان قد صُفّ على حروف (أنت) لكان اللبس قد زال

أنا وأنت رفيقان يمور بنا
ننسب من شفة الأفاق أغنية
جرحان نحن فجرح كله شعب
موج من الحب في بحر من القيم
تهزّ قلب الربى قدسية النغم
من الدماء وجرح غير ملتئم

فاقرأ لفظة (أنت) بالفتح، ثم أعد قراءتها بالكسر ستجد المعنى مختلفاً
لكن القارئ إذا واصل القراءة في أبيات القصيدة سرعان ما يكتشف
أن الحديث عن حب عذري ملتهب يخنقه الصمت، ومارد الشيطان
يخترق مسارب الدماء:

والريح تعصف رغم الصمت في دمننا
ما أجمل الحب والأهواء صادقة
كأنها ماردا ينسل في الظلم
كالماء في الجذب أو كالنور في الظلم

حسين عرب

شعره نبض لمشاعر الأمة في آمالها وآلامها (جريدة الرياض 30 ذي الحجة 1414هـ)

"ثم هو يعيب على عدم الوضوح في قصيد الشعر
الحر، ولا يعترف بدعاوي التجديد التي تدعو إلى
التحرر من القافية، وما الشعر الحر في رأيه سوى
ضحالة في القول، وتقليد جاهل للغرب..."

الشاعر حسين عرب مازال عطاؤه الشعري متواصلًا ومتنوعاً حتى توفاه الله عام
1430هـ، فمنه ما يمثل تطور شعره، ونظرته إلى المجتمع وتقاليدته، ومنه ما يرتدي عباءة الحس
الوطني ويتلبس بقضايا الأمة العربية والإسلامية، ومن ذلك قصيدته في حرب الخليج، التي
أعلن فيها رأيه في جرأة وصراحة:

قد سمعناك أيها المتجني	وعصيناك أيها الهدّام
ورأيناك والجنون فنون	تزهيك الدماء والألام
لا تعد للصواب لا ينفع النصح	لمن لا يفيد الإكرام

وشعره متعاطف مع أحداث الأمة العربية وقضاياها الجسام، فهو متألم للفرقة
العربية، يرصد الحروب الداخلية للعالم الإسلامي، ويقف حزيناً أمام قضية فلسطين، ذلك
الجرح العربي الذي لا يريد أن يلتئم، يدون ذلك النضال النبيل من أجل الحرية، وسعيًا وراء
تخليص هذا البلد الشقيق من دنس بني صهيون، ومن ذلك الرصد الأليم ما كتبه الشاعر عن

الفدائية (سنة المحيدلي) التي فجرت عبوة ناسفة في حصن إسرائيلي، واستشهدت عام 1405هـ في قصيدة يقول فيها:

اكتبي تاريخنا بالذهب
وارسميه بشظايا الغضب
واتركي كل جان غادر
يضع الأقوال باسم الغضب
طفح الكيل ولا من منصف
كالح المنظر والمنقلب
وظمى السيل وما من معتب
حلف مارون وصهيون غدا
غدره الذئب ومكر الثعلب
شايعتهم حيزبون وجهها
كالح المنظر والمنقلب

والشاعر واحد من الشعراء الذين تغنوا بوصف المكان، وضمنوا أشعارهم أحاديث عن مدن المملكة وحواضرها، نجد ذلك واضحاً عند شاعرنا الذي أفرد قصائد بديعة تحدث فيها عن مكة والمدينة والرياض.

وبناء القصيدة عند حسين عرب كثيراً ما يرتدي عباءة الحوار، يحكي خلاله أفكاره وينثرها على لسان مفكر أو رجل حكيم، يقول الشاعر في إحدى قصائده:

قال الحكيم: رويداً أيها الرجل
أضنيت نفسك فيما ليس يحتمل
وهو يستهل به بيتاً بعد جملة من الأبيات
قال الحكيم: تأمل كل ما حكمت
به المقادير أو دالت به الدول

وقوله:

قال الحكيم: وخير القول أصدقه
وليس في الصدق إسراف ولا جدل

أما مذهبه الشعري فإنه يعبر عنه في قصيدة عنوانها (الشعر الحر)، إذ يرى أن الشعر الحق له مجور، وأن التفاوت إنما يكون في الزحافات والعلل في الموسيقى الداخلية، وأن الالتزام ببحوره هو سر جمال الشعر، وعنوان سحره، والوزن هو القيد الذي لا يتجاوزه إلا الموهوب.

قال لي صاحبي: أفي الشعر شعر
غير حر؟ وفيه شعر حرّ؟
قلت: كلا، وإنما الشعر فن
ذو مجور، لهن مد وجزر
قال: في وزنه يقولون: قيد
مستبد، وفي قوافيه حجر
قلت: في وزنه جمال وإيقاع
وأسر، وفي قوافيه سحر
إنما الشعر آية الله في الفصحى
ولا يفهم الفصاحة غيرّ
بل هو الذروة المنيعة، لا يسمو
إليها إلا المنيع الأغر

ثم هو يعيب على عدم الوضوح في قصيد الشعر الحر، ولا يعترف بدعاوي التجديد التي تدعو إلى التحرر من القافية، وما الشعر الحر في رأيه سوى ضحالة في القول، وتقليد جاهل للغرب.

والذي ظنه الدّعيون شعراً
غمغمات من الكلام وهجر

خلاصة القول: إن الشاعر الوزير حسين عرب قد أخلص لوطنه، وأمتة العربية والإسلامية؛ فشعره نبض الأمة العربية والإسلامية، يتحدث عن أمنياتها، وآمالها، وجهادها، إلى جانب إيثاره وطنه بكثير من إبداعه، ناهيك عن كونه واحداً من أولئك الشعراء الذين التزموا الأصالة الفنية، واستوعبوا في حللها المضامين المعاصرة.

والشاعر حسين عرب ولد في مكة المكرمة عام 1338هـ، نشأ في بداية تكوين الدولة السعودية الثالثة وهو من السابقين الأوائل الذين كانوا رواداً في الصحافة وفي الشعر وبل من أولئك المثقفين الذين يحملون فكراً حديثاً إلى جانب علمهم الاسلامي والعربي فهو جمع بين التراكم الثقافي وهو شاعر نفث في شعره حركة البناء السعودي وتطور المدن بل تطور الحياة وهو عاش في البناء السياسي الفكري فعمل في الوظائف الحكومية والوزارات وكل ذلك الفيض من التجارب يفيض به شعره الذي صدر في الأعمال الكاملة للشاعر حسين عرب في حياته قبل سنين وفاته عام 1430هـ.

الشاعر محمد حسن فقي

" وهو يتلبس فلسفة الشك الدائم حول هذه الحياة،
وبكل أسى يصف مجتمعه، وما فيه من الأحقاد
والشورور، يعتمل في ذاته إحساس بأنه غريب في
مجتمع لا يبادل مشاعره وأحاسيسه المرهفة....!"

لعمري ماذا يتاح لي من القول في وقفة عجلى عن شاعر عظيم في عقليته، وجدانه،
وفكره، وعمره المديد الحافل بالعطاء الذي تجاوز التسعين، أمدّه الله بالصحة وحسن
الأعمال. تلك العوامل التي جعلت من شاعرنا محمد حسن فقي المولود عام 1331هـ
شاعراً عظيماً، وكانت حصيلة إبداعه مثل أكبر ديوان في العربية وما ذاك إلا لأن الشاعر
عاش عصراً زخر بالتطورات والنكبات التي أثرت القصيدة الشعرية، وصبغتها بروح العصر
شكلاً ومضموناً.

وشاعرنا من أكثر شعراء زماننا تفاعلاً بالأحداث، فكثرت نتاجه الشعري، وتوهجت
إبداعات قصائده، تعرض للقضايا الاجتماعية، والتطلعات الوطنية، تتلون بتلون الحياة
المتغيرة، فينطلق الشعر نابضاً بالشعور، دافقاً بالإحساس مصوراً للحياة أصدق تصوير.
والشاعر محمد حسن فقي شاعر مرهف الحس، يتسامى على مكدرات الحياة الحبلى
دوماً بالابتلاءات، والحنن، وقد صيرته التجارب من فرط الحس المرهف طائراً يخلق في
الفضاء غير عابئ بعواصف الزمن الهائجة، ولكنه رغم ذلك يستشعر الغربة في داخله،
ويعيش محنة المنفى في ذاته:

هذان على الهوى ثائران
تجوبان كالهزار المغاني

فأنا والهزار في روضنا الضحاك
وإذا بي كأني ذو جناحين

فهو طائر لا يستقر له قرار ولا تهدأ له نفس إنما يتخبط على غير هدى:

وتخبطتُ في الظلام وفي الوحشة طيفاً يجتازُ حُزناً فحزناً

ويقول:

أحس بأنني أعيش في متاهةٍ غريباً ما استقرُّ على حالٍ

حتى الألفة البشرية المتولدة عن الأهل والصحاب لم تستطع أن تجذب شاعرنا
لفترات استقرار وإنما تدفع به إلى التحليق بعيداً:

ولي بينها أهلٌ وصحبٌ ومنزلُ لكنهم طُراً بعيدون عن بالي

فهو شديد الفرار من الذين جعلهم الله مهذاً للسكنى والطمأنينة والمودة والرحمة
وهو يقيل عثراتهم لكنه ينأى عنهم:

وما أنا بالزاري عليهم فإنني بعيد بروحي المستريب وأوصالي

بل إنه زهد الدنيا وعاف الكون كلُّه، فلم يعد يأنس بهما، مدركاً أن الحياة يوماً ما
ستنتهي، وأن الكون مجبول على حتمية الصراع، فضاقت نفسه الشاعرة بالدنيا الفانية،
وعزفت روحه المرهفة عن الكون الملول:

بعيد عن الدنيا عن الكون كلُّه كبعد النجوم الزهر عن ربنا الخالي

وربما كان عزوفه هذا مبعثه رؤاه الفكرية التي يقرر فيها اشتعال جذوة الشر، وانزواء مظاهر الخير، رغم إيمانه بأن الصراع بين وجهي الحياة الخير والشر مسألة حتمية، ارتضتها مشيئة الإله الحكيم، غير أنه يغضب غضبة شعورية لانتصار الشر على الخير في مواطن شتى.

قد يكون الشرُّ في نصبٍ ويكون الخيرُ في كسـلٍ

وشعره يكشف عن غموض النفس التي انغمست في فلسفة فكرية عميقة متأثرة بالنظرة الدينية للحياة الدنيا؛ فهي دار ممر لا دار مقر، وهي ابتلاء واختبار، ومصيرها للزوال والفناء طال عمرها أو قصر. والإنسانُ عرضةٌ للنكبات والويلات، بل إن حظه من الشقاء الدنيوي أمر حتمي، إذ لا راحة في الدنيا، وشاعرنا يدرك تلك الحقيقة، ويمطرنا بأبيات غامضة غموض مشاعره يبث القصيدة شكايته، وينثر في ثناياها أسئلته الحائرة:

أيها النفسُ كم شكوتُ وما كنت
لم تكوني لـوامة..ولئن كنتِ
أنا كالذئبِ استلذتُ من الفتك
صدوقاً فردعتني الشكاوي
فلن تكسي عليّ الدعـاوي
فلو شئتُ كفّه لتعاوى

وتتميز تجربة الشاعر (محمد حسن فقي) بتبلور ناحيتين مهمتين ممتزجتين هما التأملية الفكرية ورقة الأحاسيس الشعورية، فالشعراء الوجدانيون تهفو نفوسهم إلى الطبيعة ويرون فيها ملاذاً تسكن إليها أرواحهم، وتأنس بها قلوبهم، تنزع نفوسهم إلى الهروب إليها، والتعانق مع مفرداتها: طيوراً، وأزهاراً، وأريجاً ونسمات هواء منعش أسير..
لكن شاعرنا وإن شاركهم هذه النزعة، وهذا التعانق، إلا أنه تجاوز ذلك إلى اليقين بأن ذلك كله إنما صائر إلى الفناء، وأن شدو الطيور إنما هو ترنيمات حزينة تحمل في طياتها إدراكاً خفياً بتلك الحقيقة.

يا هزاري الذي يغرد في الرو
ض شجياً بعشه المهجور
ما أرانا إلا التعيسين لكن
أنت شادٍ شاكٍ بجنب صبور

إذن تتعاقب وتتلاحق مكونات الشاعر الذهنية والوجدانية في تجربته الشعرية وقدرة
الشاعر على تصوير هذه التجربة تنبثق من توالد هذه التجربة عن فلسفة فكرية، ومشاعر
وجدانية ذات طابع تأملي أكثر منها ميلاً عاطفياً، وكم كان صادقاً في التعبير عن تلك
المكونات الذهنية والوجدانية حين قال:

يا ضميراً.. يُجِلُّه الحسُّ والفكرُ
لأنت الضمير يعلو الغماما

إن الترقب والخوف يملآن وجدانه الحزين، ويصيرانه كائناً يسكن الحزن في أعماقه،
ولكنه ذلك الحزن النبيل، الحزن الذي يحمل في داخله معرفة بالحياة.

وتطلعت للحياة بمقتـ
خائفاً من سُعار هذا الجنونِ

والشاعر يدرك أن الحياة الخادعة هي السراب الكبير، وأن التعلق بها، وعقد المقاصد
والأمنيات عليها حماقة كبرى.

أعطيها وخذ بريق الأمانـي
فهذا البريقُ بعيشي عيوني
أنت تجري خلف السراب وهذا
ثمري يانع وهذي غصوني

وهو يدرك بعقله المتأمل أن لا بصيص أمل يُجنى وراء السراب، ومن هنا فهو
يصور الحياة مثل الفاتنة العابثة الساخرة ذات الكبر والدلال التي تحتقر الآخرين:

إن هذي الحياة تدعو إلى السُّخْرِ
قد تبينتُ في ملامحها الغلفِ
وحنينا تدعو إلى الإشفاق
صنوفاً من الأذى والشقاقِ

وهو يتلبس فلسفة الشك الدائم حول هذه الحياة، وبكل أسى يصف الشاعر مجتمعه وما فيه من الأحقاد والشورور، يعتمل في ذاته إحساس بأنه غريب في مجتمع لا يبادل له مشاعره وأحاسيسه المرهفة.

ورأيت الرفاق ينأون عني
منهم يجيش به الصدرُ
ويشدون كالزمان وثاقي كل ودّ
رياءً طوق من الأطواق
واليسرُ مبرمُ الميثاق
ينقضون الميثاق في ساعة العسرةِ

وتوشك فلسفة الشك الدائم عنده أن تتغلغل في السلوكيات البشرية أمام عينيه، فتمسك به الحيرة، ويصرخ بهذا التساؤل الحائر:

ما الذي يرتجيه عان من الدهر
ومن أهله سوى الإرهاق

تلك الحالة أسلمته للحيرة الدائمة بل صحبته في تكوينه الذهني والوجداني، وكانت مورداً ثرياً لتجربته الشعورية فهو يدرك مصداق الحياة حين تحدث بلسانها:

أنا من حير القرون ومن
ساد عليها وعاش عبر القرون

والمبحر في شعر محمد حسن فقي لاشك يلتقي مع عبقرية استطاعت أن توجد التلاحم بين الفلسفة والفكر في أسلوب سهل ممتنع.

وكذلك فإن القارئ يعجب أيما إعجاب بقدرته اللغوية التي نسج من خلالها عصاره
فلسفة إنسانية في ألفاظ قريبة التناول، بعيدة عن التعقيد، بل هي ألفاظ حيّة نابضة بالشعور
الراقي والألم النبيل.
والمفحص لديوان محمد حسن فقي يقف على عبقرية شعرية فذة، غزيرة في
إنتاجها، عميقة في معانيها، متنوعة في أغراضها وموضوعاتها، فليس ثمة باب في الشعر لم
تطرقه.

الجاسر الشعلة المضيئة:

انطلق الجاسر من قرينته
والظلام مدّهم في الآفاق
والأمراض تفتك الأجسام
تمرّد هذا الجسم النحيل
والتحق بأجل جادة، جادة العلم والعمل
أرانا عزما عجيبا وسعيا حثيثا
يحصد النور حصدا
يجلو به أهداب الظلام
تفلت الجاسر من القيود التي صنعها الرجال والجهل
فأخذ يجوب الجزيرة كالرياح التي تحمل البذور، وتجمع السحب، وتنزل الغيث
وأخذ يشدو: تعالوا معي نسبر الأغوار، ونرتقي إلى الأقمار
تعالوا معي نكشف الغمة عن جزيرة الأمة
نكشف مكنونات سهولها ووديانها وتلالها وجبالها
ونعلن للملأ تاريخها ومجدها
نفض غبار الظلام والبهتان عن أهلها، ونكشف زيف الرحالة والمؤرخين عن أبناء

الجزيرة

.....

الجاسر في شبابه هدهد يجوب الآفاق ويجلو الأخبار
 الجاسر في شيخوخته بلبل يغرد في قصره
 ينثر بمزامير المعرفة الأزهار في حقول العقول
 إنه يهز أدواحاً معرفية يتساقط منها ثمرا جينا
 أراك في العلوم الشرعية تنهل من بحر، وتقذح فكرا
 أراك في التاريخ تستخرج اللؤلؤ والجوهر
 أراك في علوم الأرض كاشفاً منيرا
 أراك في اللغة متمكناً قديرا
 أراك في الأدب تجلو الفكر وتستهيوي الشعور
 أراك في علم الأنساب باحثاً منصفاً تنشر وتبهر
 أراك على قمم المعالي ترفع شعلة الأنوار

.....

تنامت بذور العلم فأضحت إكليلك الدائم، حتى أبصرت ما وراء الستور والستائر
 تسعون عاما تستقي الأمطار، وتنبت الأزهار
 فيا علامة الجزيرة:

بموتك أيها العلم جفت ينباع
 بموتك أيها العلم تقرحت القلوب، وتفجرت الكلوم
 بموتك أيها العلم صمت الصوت الندي

.....

فيا علامة الجزيرة، العلم بك كثير، والقول ينثال في الصدور، واليراع ينفث بك
 سحرا. لكن الموقف يطفو عليه وهج الشعور مما يؤجل الرصد والتحليل عنك يا أبا محمد إلى
 حين

الشاعر محمود عارف

"شعره في الغزل يجنح إلى العفة والطهارة، يكاد القارئ يستشعر حين يقرأ له هذا الفن الشعري أنه أمام شاعر من شعراء العرب العذريين، الذين لا يندفعون وراء عواطفهم المشبوبة.."

هناك عدد من المفكرين والأدباء كان لهم دور الريادة في بناء الفكر الوطني الذي يقوم على استلهام الشريعة السمحة، والنظرة المثالية التي تحمل القيم الإنسانية التي تتفاعل مع البناء والتطوير، ومن هؤلاء الذين استلموا قيادة الصحافة والرقابة الفكرية في ربوع الجزيرة، وشمروا سواعدهم، وشحذوا عقولهم، ووجهوا أقلامهم تجاه القضايا الاجتماعية والفكرية والأدبية والنقدية العامة في سائر أوجه الحياة شاعر المملكة الكبير محمود عارف. والشاعر محمود عارف أديب وشاعر سعودي رائد من منطقة تهامة. ولد في جدة عام 1907م، ترقى في الوظائف الحكومية، حتى عُيِّن في مجلس الشورى بمكة. عمل رئيساً لتحرير جريدة عكاظ في بداية قيام المؤسسات الصحافية في المملكة. وهو عضو سابق في النادي الأدبي الثقافي بمجدة.

وهو من أولئك المبدعين الشعراء والكتاب الذين خاضوا غمار الحياة الفكرية، والحياة الصحفية أيضاً، فقد كان دائم الحضور مبدعاً، وكاتباً، وناقداً، ومحاوراً، وحياته حافلة بال إعطاء، لم يثنه تقدم عمره وامتداد زمنه عن أن يكون حاضراً منجزاً، مجالساً لأصحاب الفكر والقرار حتى وافاه الأجل.

وشعر محمود عارف يتواصل مع حياة الجزيرة فهو ابن بيئتها وابن تكوينها الاجتماعي، يمثل شعره تطور البناء الحضاري بجوانبه المختلفة في المملكة العربية السعودية، بل إنه يسجل مراحل هذا التطور، ويدون لكثيرٍ من صور الحياة على أرض الجزيرة، ويشيد ببناء المدارس والمعاهد والجامعات ويؤصل لكل حدث اجتماعي، بل إنه أهم الشعراء الذين

عايشوا البيئة القروية والريفية وكتبوا عن ملامح الحياة في أبحاثها، ووصفوا إبلها، ومزارعها، وحياتها الرعوية، وصحاريها الممتدة.

ولعل أهم ملامح يتبينه القارئ في قاموسه الشعري أن ألفاظه قريبة المأخذ، متداولة شعبياً وصحفيًا، وهي مع ذلك ألفاظ سليمة الفصاحة، باهرة التأثير، رقيقة المعنى، جزلة الأسلوب.

ومن ذلك قصيدة كتبها الشاعر يحيى بها الشيخ أبا تراب الظاهري في حفل تكريمه، يقول فيها:

يا منجماً فوق التراب	كنتَ الفقيه مبرزاً
تنضو النفائس والذباب	ومعلماً لغة الكتاب
ما كنت أحسب أن باعك	خضت الخضم من اللغة
طال واخترق السحاب	واجتزت تيار العباب
وتعلم اللغة الفصيحة	للكهول وللشباب

وفي قصيدة رقيقة اختار لها اسم (عيون الليل) يقول فيها:

نسيتُ دنيائي لكن لستُ أنساك	أغازل البدر أغريه بعاطفتي
يا حلوة، أهمتني الشعر عيناك	لعله فيك يلقاني ويلقاك
كم كنتُ أسهر في ليلي على أمل	يا ليتني عشتُ في أحلام عاطفتي
والسهد بين عيون الليل يركاك	أغفو وأصحو على أحلام دنياك
عيناك نافذتا دنيا مرفهة	وأشرب النبع آمالاً مشعشة
دنيائي في ما أعاني غير دنياك	تجدد الصبر في وجدان مُضناك

كما أن شعره يميل إلى التصوير الحي لمشاهد الواقع دونما محاولة إلى التأنق والمبالغة في نسج خيال تركيبى يجهد ذهن القارئ في تلمس معانيه. إنه كفنّان تشكيلي يعتمد إلى الواقعية الفنية في أعماله، ويرسم اللوحات التي تُنتزع من الواقع انتزاعاً، ومن هنا كان شعره أكثر ميلاً إلى الشعبية وسهولة المضمون. إن شعره في مجمله لوحة من واقع الحياة لا غرابة فيه، وقل أن تجد عنده الولوج إلى تركيب الصور ذات الإيحاء والتأثير.

ففي قصيدة له يعبر فيها عن روحانيات شهر رمضان، وتلك اللحظات النورانية الشفيفة التي يقف فيها المسلم بين يدي خالقه في صلاة التراويح خاشعاً متقاداً يدعوه المدد والعون، حيث يقول:

فيه التراويح المضيئة مسبح للقلب للإيمان يعمر مرفقاً
ساعاته عمر الزمان مليئة بالذكر حيث العمر عاد محلقا

وفي مقدمة ديوانه عاصفة الصحراء الذي ضمنه قصائد عذبة في أغراض شعرية متنوعة، كتب الأستاذ عبد المقصود محمد سعيد خوجه: "تلك الروائع التي عطر بها الأستاذ محمود عارف حياتنا الأدبية، وأثبت من خلالها أن الشاعر لسان قومه ومرآة مجتمعه" ثم أردف يقول واصفاً شعره أصدق وصف: "شعره رقيق جزل طروب، حالم الموسيقى، هادئ الإيقاع، عذب الكلمات، رشيقي المعاني". وفي قصيدته التي اختار اسمها عنواناً لديوانه، يقول:

سوف تحيا الكويت أرضاً وداراً حرة في الورى بلا استعباد
حرة في الورى بلا استعباد للعلا للبناء... باستعداد

كما أنشد في فلسطين قوله:

عاشت فلسطين الحبيبة بالفدى والانتفاضة في حماس أشعلت
بسيادة.. والقدس للمتغلب حرب الحجارة كالشواظ الملهب

كما أن شعره في الغزل يجنح إلى العفة والطهارة، يكاد القارئ يستشعر حين يقرأ له هذا الفن الشعري أنه أمام شاعر من شعراء العرب العذريين الذين لا يندفعون وراء عواطفهم المشبوبة، ليصوروا خلجات وجدانهم تصويراً حسيماً في جرأة وتهور. إنما هو ذلك الشاعر الذي يدلف إلى هذا المضمار على استحياء وخجل، ومن ذلك قصيدته الشعرية الرقيقة التي يقول فيها:

صفراء كالتبر تستوري مشاعرنا	حتى ثملت وما سكري بصهباء
باللطف تسكبه من عين حوراء	تسي القلوب إذا مرت مهفهفة
شربتُ من عينها كأساً معتقة	كأنها روضة في قفر صحراء

ولم يخلو شعره كذلك من الحكمة، فقد نثرها في كثيرٍ من أبياته، حيث يقول:

صاحب العقل ناجح بالتروي	وأخو الجهل فاقد المعيار
-------------------------	-------------------------

ويقول:

ومصير الجبان لا بد يلقى	متناه في ساعة الانهيار
-------------------------	------------------------

كما يقول أيضاً:

شرف البطولة في الحياة شهامة	تحمي الذمار وترفع الأحنافا
-----------------------------	----------------------------

ومن هنا فإني أقرنه بمعاصره (أحمد قنديل)، فكلاهما شاعر المجتمع بكل أطيافه وألوانه، ناهيك عن أن شاعرنا حجازي الحياة والإبداع، فرقة الحجاز وظرفه تبدوان في إبداع

الشاعر، وقد أفرد في شعره قصائد صوّر فيها الحياة في مدينتين كبيرتين في المملكة، هما: مكة المكرمة وجدة، لذا كان من الواجب على المدارس لشعره أن يقف على خصائص الحياة المعاصرة في هذا الجزء من وطننا السعودي.

إن محبي الشاعر محمود عارف يعرفون له الدور البارز الذي أسهم به في الحراك الثقافي والأدبي والإعلامي، كما كانت له إسهاماته الرياضية البارزة، حيث شارك في تأسيس لعبة كرة القدم بالنادي الأهلي بجدة.

كما كان الشاعر مكثراً في شعره الذي جمعه في ثلاثة عشر ديواناً، فضلاً عن نتاجه المقالي الذي يربو على أربعمائة وست مقالات، والذي لم يخلو من الهمم الإصلاحية، والشعور الوطني الصادق.

ومن دواوينه الشعرية: ديوان المزامير 1380هـ، وديوان على مشارف الزمن 1385هـ، وديوان مدينتي جدة 1387هـ، وديوان الفردوس الحالم 1395هـ، وديوان عاصفة الصحراء 1395هـ ومن مؤلفاته النثرية: حصاد الأيام، وأصدقاء قلم، ليل ونهار، أوراق نثرية.

منوعات الغزّاوي تكشف عن مواهب متعددة (جريدة البلاد 14 جمادى الأولى 1408 هـ)

"حينها جادت قريحة الشاعر الغزّاوي بهذه القصيدة الرائعة، التي أعلن فيها ثورته على العقل الغربي المتخّم بالغرور والكبر.."

وسط الجدل الدائر في الساحة الأدبية في بلادنا أُلصقتُ بأدبائنا بعض التهم، وطفق فريق من النقاد يرددوها، الأمر الذي جعل بعض الشوائب تعلق بأدبنا وأدبائنا، من هذه التهم تلك التي أُلصقت بشاعرية الغزّاوي، ونسجت حوله سحباً ضبابية حجبت أدبه عن الطليعة من شبابنا، وأخص بالذكر هنا حصرهم شعره في غرض واحد هو "المديح"، والإدعاء بأنه لم يتجاوزه إلى غيره، ورغم أهمية هذا الغرض الشعري في أدبنا العربي، فإن الغزّاوي في رأبي لم يكن حبيسه، وقد عارض هذه المقولة صاحب مجلة المنهل الأديب (عبد القدوس الأنصاري) رحمه الله، وكان صديق الغزّاوي الحميم، العليم بأسراره، حيث صرح بأن الغزّاوي لديه الكثير من القصائد التي لا تمت إلى المديح بصلة.

وفي رأينا أن الغزّاوي شاعر قدير، استحوذ على كثير من أغراض الشعر، وجمالياته الفنية، وهو كغيره من الشعراء تتأثر تجاربه الشعرية بالأحداث التي تحدد به وتحصره، فتلامس شعوره، وتثير كوامن نفسه، ومن ثم يتدفق عطاؤه، ومن خلال رحلتنا وسياحتنا الطويلة المتأملّة في أدب الغزّاوي تكشف لي قدرته الشاعرية المتعددة الجوانب، وتسخره هذه القدرات الفنية لخدمة دينه ووطنه، فروض نفسه على هذا الاتجاه، وكثر في شعره، وفاض على غيره من الأغراض الشعرية، غير أن ثمة أغراضاً كثيرة تجلت في ديوانه الشعري.

لقد تبين لنا أن الرجل شأنه شأن شباب زمانه الذين أخلصوا في طلب العلم على نحو عصامي، وتفاعلوا مع الأحداث العربية والإسلامية والوطنية، وقد غلب الجانب

الفكري على الجانب العاطفي على جيل الغزاي نظراً لطبيعة الظروف الحياتية التي نشأوا فيها، وقصيد الغزاي في هذا المضمار أكثر منها في جانب الوجدانيات، والرومانسيات الذاتية.

فالغزاي شارك الأمة العربية والإسلامية آلامها وأحزانها، ونزف الجرح العربي في قلبه، واصطلى مع الأمة بنار الحروب التي أشعلها الغرب، ورغم حداثة سنه، وندرة قنوات تواصله مع الأمم الأخرى إلا أنه استشرف الواقع المأساوي لشتات الأمة وهوانها، وطحنها بين فكي الاستعمار، وعاصر استنجد العرب بعصبة الأمم وخذلانها لهم في مناصرتهم وتخليصهم من أغلال الاستعمار.

ففي قصيدة عنوانها (نحن وجمعية الأمم) عام 1342هـ - وهي قصيدة بمنأى عن غرض المدح - يقول فيها:

نعم قد استسمن الأقوام ذا ورم
وأحسنوا الظن في جمعية الأمم
وأملوا أنها تسعى لصالحهم
سرعان ما خاب فيها الفأل من أمم
عنت لأغراض أوروبا وأنطقها
ضد الموائيق من حادوا عن الذمم
تربعوا في منصات وأروقة
لا يشعرون بما نلقاه من ألم
كفاكم يا دهاة الغرب موعظة
ما يوم غليوم عن أبصارنا بعمي

واستلهم الغزاي للأحداث يتبلور في هذه القصيدة حيث أطلق على (عصبة الأمم) جمعية الأمم، وهو الاسم الذي أطلق عليها عام 1945م.

ومن القصائد الوطنية الخالصة تلك القصيدة التي نشرها في مجلة الإصلاح عام 1347هـ، وفيها يقول:

إلام نلوم الحظ نوسعه عتياً
وما هو في الدنيا بمقترف ذنبا
ويبهتنا ما قد نرى من تزاحم
نسف به شرقاً ويسمو به غربا
نصد فلا نعني بغير سفاسف
ونرضى ولو كانت ضمائرنا غضبي
ونقنع بالإطراء يبدو مموهاً
ونقبع مستملين من جهلنا سبا
إذا جال المرء العيان أصابه
ذهول يمس الحس والنفس واللبا

وفي العام ذاته يتبعها بقصيدته المشهورة (هذا هو الشرق)، قالها بمناسبة زيارة الشاعر الإنجليزي (كبلنغ 1865م-1936م) إلى مصر وفلسطين، والذي احتفت به الصحف وقتها، وهو المشهور بعبارته التي تناقلها الكتاب: "الغرب غرب والشرق شرق، ولن يلتقيا". حينها جادت قريحة الشاعر الغزاوي بهذه القصيدة الرائعة، التي أعلن فيها ثورته على العقل الغربي المتختم بالغرور والكبر:

لا (الشرق شرق) إذا ما ثارت الهمم
كلا ولا (الغرب غرب) يوم يصطدم
ولكنها سنن التكوين ثابتة
على العصور فلم تحفظ لها ذمم

أجل تقهقر هذا الشرق ما نغمزت
قناته بعد أن طالت بها الأمم

ولاشك أن القصيدة تبرهن عن مدى الوعي الذي يتسم به العلماء والمفكرون
والأدباء، فيما يطرحونه من آراء وتوجيهات ونظرات ملهمة للمستقبل، وتكشف القصيدة
كذلك عن إدراكهم الكامل للمخاطر والانحرافات التي تحيق بالأمّة، فيطلقون صرخاتهم
التحذيرية، انظر إليه وهو يقول:

وخالفوا فطرة الخلاق وافترقوا
فسامهم كل خسف من رقى بهم
واسترسلوا في غطيظ النوم فاندحروا
منذ استوى فيهم الأحياء والرّم
تسم الشرق بالأدواء فاتكة
بجسمه واعتراه الجهل والعدم

ويسجل إعجابه بالمناطيد التي سبقت الطيران في الرحلات الجوية عام 1929م، غير
أن الطائرة كان لها السبق والتطور فيما بعد، وفي ذلك يقول:

تعلو المناطيد بالركاب حافلة
متن السحاب وتدنو حيث ترتسم

ويقول أيضا:

يا شرق حسبك ما لاقيت من عنت

أفق، فإنك بعد اليوم مقتحم
وواصل السعي في التعليم مقتبساً
خير الفنون وإلا مضك الألم
وقل (لكبلنغ) إما جاء معتذراً
هذا هو الشرق لا ما قلت أو زعموا

تلك كانت لمحات سريعة عن فترة زمنية محدودة من عمر شاعرنا الغزاوي، لا تتجاوز عشر سنين، وفيها إشارة واضحة إلى تنوع الغزاوي في شعره، وإرهاصاته المستقبلية الصائبة، وسأتناول الحديث بنوع من التفصيل في مقالات أخرى إن شاء الله.

الغزوي والشباب

(جريدة البلاد 24 جمادى الأولى 1408هـ)

"وفي القصيدة تصوير نابض بالحالة النفسية للإنسان
في مكة المكرمة يومها، إزاء ذلك السيل العظيم
الذي غمر الكعبة، وشعاب مكة....."

والغزوي لا عيب فيه غير أنه اندفع بعمق يبحث عن جواهر اللغة، والتمس
أصالتها، واستخلص منها جمال الكلمة، وتعانق معها بشعوره، وأودعها تجاربه التي تفيض
بالحب الإنساني الخالص، وتنأى عن المواجهة والعداء مع الواقع الخارجي، وتربأ بنفسها عن
عقوق الماضي المجيد، أو مغازلة الحاضر الخانع للفكر الغربي الوافد، على عكس ما فعله
غيره من شعراء عصره، حين ترمدوا على واقعهم، فاحتقروا موروث الأجداد، ورفعوا القبعة
إجلالاً لما أسموه الحضارة الغربية..!

لقد واكب تيار الغضب والتمرد في الشعر العربي التيار المحافظ، الذي اتسم بالالتزام
والاعتدال في نظراته للأصالة والمعاصرة، فلا هو نبذ الماضي، ولا هو وأد الإضاءات العالمية
الأدبية، بل مدّ جسور الصلة والتواصل بينهما، فأفرز تلاحقاً مختاراً، وأنجب توالداً نجيباً.
ولقد كان الغزوي واحداً من أرباب ذلك التيار المحافظ، وأفرد له كبار الكتاب
والأدباء والنقاد أحاديث وكتابات سلطت الضوء على إبداعاته، من هؤلاء الأستاذ الدكتور
محمد بن سعد بن حسين. والأستاذ عبدالله القرعاوي والشيخ الأستاذ أحمد جمال، وكثيراً ما
كان الغزوي يأخذ مساحة شاسعة من ندوة معالي الأستاذ عبد العزيز الرفاعي، وليس أولى
من الدكتور عبد العزيز النهاري من أن يستقطب الكتاب، ويثير الهمة فيهم، ويدفعهم إلى
البحث عن أصداف الغزوي الكامنة التي يُخشى عليها من تعاور الرياح، وفيضان الماء،
وتعاقب الليل والنهار، وفاءً لأدينا الكبير الذي تفرغ في سبيل الحياة الفكرية التي تقوم على

شرف الكلمة وخدمة الحق والخير والجمال، ولاشك أن في الساحة الأدبية رجالاً مهتمين بالغزوي، غيورين على لغتنا، حريصين على إحياء أدبنا الذي ظل رقيقاً للصحف السعودية ردحاً من الزمن. من هنا كانت المحاولات الدؤوبة لإحياء تراث الغزوي، الباسق طلعه، المثمر فكره، المبهر شاعريته. فهلّموا إليه أيها الأدباء.

وقد أشرنا في مقالة سابقة إلى الوطنية في شعره التي تفيض بحب الوطن والأمة العربية الإسلامية، وذلك في مواجهة التهمة التي حصرت منه على المديح وبيننا أن الذين يطعنون في شعر الغزوي، ويقصرونه على غرض واحد قد جانبهم الصواب؛ لأنه قد جسد تجاربه الحياتية في قصائد شعرية مطولة، شأنه شأن شعراء العربية الأوائل، الذين اعتمدوا على القصيدة الطويلة في الحديث عن أغراضهم المتنوعة، على نحو ما نجد في قصائد الفرزدق وجريير والأخطل، الذين لم تناههم معاول النقاد، ولم يوجه إليهم تهمة اختزال شعرهم في غرض واحد، فقد تناثرت في ثنايا قصائدهم الطوال أغراض الغزل، والمديح، والهجاء، والحكمة، ووصف البيئة. إذن فلم جناح بعض النقاد إلى وصم شاعرنا الغزوي بشاعر المدائح، فيما شعره في الحقيقة يفيض بالأغراض الشعرية المتنوعة؟!!

لقد جادت قريحته بعشرات المقطوعات الشعرية التأملية والقصائد المطولة في الغزل، والإخوانيات، والحكمة، والتأمل الذاتي والاجتماعي، والأحداث العالمية والإسلامية، وكانت خلاصة تجاربه التي تتألق في شعره تمثل الصراع الحياتي، بل إن شعره عينه هو ديوان الحياة الثرية الخصيبة في ربوع الجزيرة، وسجل لأحلام إنسان هذه البقعة من الأرض.

والغزوي دائم التواد والتحاب للشباب، وله نظرة أمل فيهم، كثير التواصل معهم يسمع تغريدهم، ويستمتع لهمومهم ويتغنى بأحلامهم، ويدفعهم إلى المعرفة،

انظر إليه وهو يخاطبهم في احتفال المعهد العلمي السعودي وتحضير البعثات عام 1360هـ في قصيدة بعنوان ((من بني مدرسة أغلق السجن وراءه)) يقول فيها:

يتهدى في صباه
ورعاية وقضاة

أنتم اليوم شباب
وغدا منكم رجال

ونجـوم ورجـوم	وبنـاة ودعـاة
وجنـود وبنـود	وأسـاة وحمـاة
وعلـيكم واجبـات	هنـ أسباب الحياة
إنكم أمـال شـعب	قـدس الله حمـاه

وكثير من الأدباء والشعراء الذين تواصل معهم الغزاوي في بداية مشوارهم الأدبي مشجعاً لهم، وحاضناً إياهم لم يزالوا يحفظون له هذا الجميل ويقدرونه، وقد أشار إلى هذه الخاصية الأستاذ القرعاوي الذي أخذ يردد على مسامعي ذات يوم بعض أبيات الغزاوي التي مازال صداها يجوب أنحاء الذاكرة، رغم بعد العهد وامتلاء المسافة الزمنية بصخب الحياة ومشاغليها.

وقد سطر الغزاوي نشيدا وطنيا متحدثاً فيه بلسان الشباب، يقول فيه:

نحن أشبال العرين
نحن أصحاب اليمين
نحن أبطال اليقين
كلنا نفدي حمـاه

وجادت قريحته بشعر رقيق في استقبال كشافة العراق والشام، كما خاطب شباب وطنه بقصيدته ((تحية الجيل الجديد)) في رجب عام 1369هـ، وقال عنها محرر جريدة البلاد السعودية: إنها ذوبان قلبه، وتجارب عمره، ينثرها للشباب؛ ليجد فيها ضوءاً ينير له السبيل، وظلاً يفيء إليه من هجير الحياة، استهلها بقوله:

ما هو المجد التليد	من هو الشعب المجيد
كيف نسمو ونسود	وبم الماضي يعـود

وأجيبى يا بطاح
خاننا الوعي التليد
أن تفوزوا بالفعل
يتسامى في جلال
كل صبح ومساء
من دواعي الخيلاء

كلمينا يا صلاح
ما هو الحق الصراح
وبودي لو حرصتم
وتحوزوا كل مجد
ثم غنوا وأغنى
فانجزونا ما وعدتم

والغزوي دائم الارتباط بالطبيعة الملاصقة لإنسان الجزيرة، وتحس حين تلج إلى عالمه الشعري أنك أمام شاعر شديد الانفعال والحساسية أمام القدرة الآهية التي تُصرف الطبيعة كيفما تشاء، فكل شيء عنده بمقدار، وكل أمر وراءه حكمة لا يعلمها سوى علام الغيوب، إنه ينظم قصيدة شعرية في سيل الأربعاء الذي حل بمكة في 6/3/1360هـ، ذلك الحدث الذي يعد قدراً من أقدار الله التي يجب على المؤمن أن يتقبلها بكامل الرضى والتسليم.

وفي القصيدة تصوير نابض بالحالة النفسية للإنسان في مكة المكرمة يومها، إزاء ذلك السيل العظيم الذي غمر الكعبة وشعاب مكة، حتى لكأن القارئ يشعر أنه في قلب الحدث العظيم:

صلة الأرض بأفاق السماء
يوم ست في ربيع كالدلاء
عاود الكرة حيناً وأفاء
أهل أجدات يغاديهما الغناء
قابع في كسره يخشى البلاء
بالروابي السود من رمل وماء

شهد الوادي غداة الأربعاء
أسفر الفجر من الغيث معا
كلما أجلى وأهوى برهة
وكان الناس فيه رهبة
لا ترى منهم سوى مضطرب
ومشى السيل كبحر زاخر

في دوي الرعد يعدو موجة بين هدم وعويل ونجاء
غمر المسجد منه لجة حاذت البيت إلى باب النداء

ويتحدث عن تدفق المياه العذبة إلى جدة، بعد معاناة طويلة، في قصيدة طويلة بعنوان
(لكنما هي تجري بينكم ذهباً) في عام 1367هـ:

رؤيا بها العين تصحو بعد إغفاء أم أنها العين رأى العين للرائي
أم أنها النهر يجري من منابعه سبائكنا من (لجين) ذاب في الماء
أم جدة هذه أم دجلة نشرت بها الحياة ودبت بعد إقواء

وكثيراً ما يمد بصره وبصيرته في الكون والطبيعة، فتمتزج نفسه بألوان من المفارقات
والتواصل أحياناً، فيصف ذلك التضاد العجيب، وتلك المفارقة الكونية المثيرة إذ يشهد في
تجربة شعورية لحظة احتضار الشمس حال غروبها، وانبثاق البدر وسط العتمة في إحدى
أمسياته على الشاطئ:

أطل ينص في خفر العذارى وتلك تغص تقلقها الغيوب
وخلف كليهما الألوان شتى يرققها الشمال والجنوب
لجين حيثما استقبلت يجري وتبر فوق أمواج يذوب

قال الغزوي هذه القصيدة وهو مطرق على كورنيش جدة في عام 1367هـ فكيف
لو أطل عليه اليوم في بهائه وجماله وروعة تنسيقه وتنظيمه على أية حال إن لجدة اليوم
شعرائها الذين يرسمون لوحاتها الجميلة في كل زمان ومكان إن شاء الله.

بين الغزاوي والعواد (1408/04/25هـ)

"وقد أبدع في شعره وأجاد، حتى قرن اسمه بكبار
شعراء العربية من أمثال: مسلم بن الوليد،
والبحثري.."

نشر الأديب الأستاذ عبدالله القرعاوي مقالا في صحيفة البلاد بتاريخ
14/04/1408هـ بعنوان (الشيء بالشيء يذكر)، تناول فيه الحديث عن أحمد إبراهيم
الغزاوي، ذلكم الشاعر القدير والعالم اللغوي، الطاعني الحضور في الساحة الأدبية، وفي
الصحافة السعودية منذ عام 1401هـ.

ورغم التفاعل الفكري في الواقع، والحضور الدائم في وسائل الإعلام الصوتية
والمريئة للشاعر إلا أنه ظل مجهولاً بين أبناء وطنه لأسباب كثيرة، ربما يعود جُلّها إلى أن
الرجل لم يطبع ديوانا ولم يؤلف كتابا، ولم يجمع مطالعاته وتعليقاته في (أم القرى) و(البلاد
السعودية)، ولا مقالاته اليومية في (الندوة)، ولا شذراته في (المنهل) لم يجمعها في كتاب، وقد
بلغت أكثر من ألفي صفحة حينما جمعتها.

وإنتاج الغزاوي لو نشر كله لوجد فيه القارئ علماً وافراً زاخراً بالمعارف القديمة
والحديثة، وتصويراً صادقاً لمراحل التطور التي شهدتها الجزيرة في عقودها الأخيرة. وفي فترة
كثُر فيها الحديث عن الفصحى وغرائبها كان هو المدافع عنها، الذي اشتهر بمحاولته الجادة
لنشرها وشيوعها بين المجتمع والدعوة إلى نبذ العامية ومجانبتها، إضافة إلى كتاباته الغزيرة
المتنوعة التي تعالج القضايا الاجتماعية، وتطرح الاقتراحات البناءة.

وأذكر منها ذلك الاقتراح الذي ضمنه إطلاق اسم (العزيزية) على الحي الحديث في
مكة المكرمة، وكان يُعرف آنذاك باسم (حوض البقر). إن أدب الغزاوي وإنتاجه الفني الغزير

أكثر من أن يُحصى في بحث واحد، أو رسالة يتيمة، وحينما شرعت في دراسته اضطررت لجمع الكثير من شعره ونثره الغزيرين من الصحف السعودية.

وقد أثار الاستاذ القرعاوي في مقاله قضيةً لازمت الغزاوي، ولا زالت عالقة بأذهان فريق من النقاد، وهي أن الغزاوي مجرد ناظم مقلد للشعراء، وتلك تهمة نسجها بعض النقاد المعاصرين حول شعر الغزاوي، الأمر الذي جعله ينطوي على نفسه، ويُعرض عن قول الشعر، وكاد أن يثنيه عن مواصلة المسيرة الأدبية الحافلة. وليس أدل على ذلك من تلك المحاور التي دارت وقائعها بين الغزاوي وصديقه الأديب محمد حسن العواد رغم اختلاف المذاهب الفنية والاتجاهات المنهجية، لقد ابتدره الأستاذ حسن العواد قائلاً:

أيها البلبل المغرد بالشعر، ألا أين ذلك التغريد؟!
لم أثرت تنزوي الشهر تلو الشهر مستعصيا عليك القصيد؟!
أدلالاً هجرته عساك أم ملالاً؟
فلقد كنت والنظم شقيقين، وسيان منشد ونشيد.

فرد عليه الغزاوي ردأ يوحى بالتأثر النفسي من جراء النقد الموجه إليه قائلاً:

أي هذا الذي تواضع شكراً إنما أنت في (البيان) المجيد...
كيف لا أوتر السكوت وأصغي لشعور يصوغه (التجديد)..
أنا ما قلته تضالع ضعفا والذي حكته الضليع الشديد...
قد عصاني وما تجانيت عنه محكم النظام والنتاج المفيد
وتعالى جد (الإله) فماذا بعد (فرقانه) يحيط النشيد...
مازج الروح وحيه فهو حي وهو الرشد والهدى والخلود.

وكان الشاعر محمد حسن العواد قد أعاد إلى الغزاوي الثقة بنفسه، وقدراته الفنية الفريدة، فعاد الغزاوي إلى محراب شعره وفنه أشد توهجاً وبريقاً.

والأبيات تعطينا صورة عما كان عليه الرعيل الأول من الأدباء، وما اتسمت به علاقاتهم من حسن الحوار، ودمائة الأخلاق، وصدق المودة، حتى وإن كان الخلاف في الرأي قائماً، فالأديب النبيل الذي يحمل رسالة سامية في الحياة لا يحمل في ذاته شراً لمن يشاركه القضية والرسالة، إنما يقف إلى جواره في لحظات المحنة والانكسار، يشد أزره، ويمد إليه يده مساعداً ومناصرًا.

والأبيات تذكرنا أيضاً بقضية (الأقواس) في شعر الغزاوي، والتي تحدث عنها الأديب الأستاذ عبد العزيز الرفاعي، وكان له حوار مع الغزاوي في صحيفة البلاد. وعلى شاكلة هذه المحاوره نرى الكثير منها عند شاعرنا، والذي لا ريب فيه أن الغزاوي جمع بين الحسينين، إذ حافظ على الأصالة الفنية والسياق الفني للقصيدة العربية، فلم يجد عنهما، ولم يتجاوزهما، وقد أبدع في شعره وأجاد حتى قرُن اسمه بكبار شعراء العربية من أمثال: مسلم بن الوليد، والبحثري، كما أن أصالته الفنية هذه لم تمنعه من التواصل مع الجديد الحديث، فقد احتضن المعاني الحديثة، والمضامين المعاصرة، وسخر لهما البحور الشعرية العربية في غير تكلف ولا تعسف. فهل يكون عيباً أن يكسو الشاعر تجربته الشعرية بالسياق الذي يمثل الأصالة؟

وعلى شاكلة هذه المحاوره الراقية يلتقي الغزاوي مع عدد من الأدباء والشعراء، فله محاورات عدّة مع الشعراء السعوديين أمثال ابن خميس والأنصاري، والسنوسي، وهناك محاورات بينه وبين عدد من شعراء البلاد العربية من الكويت، وفلسطين، ومصر. كما أن له - رحمه الله - كثيراً من الرسائل التي يحتفظ بها بعض الكتاب والأدباء.

وهناك قضايا أثارها الأستاذ القرعاوي في مقالته سأتناولها إن شاء الله في مقالات نبعث بها إلى (البلاد) لعلها تجدد العهد بالشاعر الكبير أحمد الغزاوي رحمه الله وتلي رغبة الأستاذ الفاضل عبدالله القرعاوي.

والشكر الموصول له على حرصه الخالص، وسعيه الصادق نحو تخليد ذكرى العلماء الأفاضل، فجزاه الله خير الجزاء.

الغزاوي بين جامعتين (الرياض 1417/05/24هـ)

أهداني أخي الدكتور عبد العزيز الشعلان قصاصة
من جريدة الندوة، كتب عليها 11510 في
1417/5/3هـ، والقصاصة تحوي مقالاً للأستاذ
فهد محمد علي الغزاوي، وفيه يزف لنا البشري
بالإفراج عن تراث الغزاوي وآثاره ((التي كانت
محتجزة في كواليس الجامعة بكراتينها وحقائبها،
البعض منها مخطوط بيده والآخر مطبوعاً مصححاً
ومشكلاً، ومصادقاً عليه بتوقيعه...)).

فقلت في نفسي منتشياً: إنها لبشري سارة أن تهتم جامعة أم القرى بهذا الشاعر
الكبير فهو ابن مكة المكرمة، والشاعر يمثل ديواناً صادقاً لسيرة وطنه، وإني لأشارك الأستاذ
فهد الغزاوي شكره لمعالي مدير جامعة أم القرى الأستاذ الدكتور سهيل حسن قاضي، بل
أحترم مبادرته، واقدر له رعايته للفكر والأدب عموماً، وأشكر له هذه المبادرة الطيبة التي
جاءت بعد أقل من عام بتكليفه وتشريفه بإدارة هذه الجامعة المباركة. وهي في الواقع دليل
ساطع على إنجازه العلمي والإداري، وتصديق لحسن ظننا به. والحق أن كثيراً من الزملاء قد
ناشدني بسرعة التوجه إلى معالي الدكتور سهيل كيما أطلععه على نتاج الغزاوي شاعرنا
الكبير، وأحثه على هذه الفكرة الطيبة.

وإعجابي بهذا العمل يجعلني أبدي بعض تعليقاتي - أو فلنقل مداعبتي البريئة -
لأخي الأستاذ فهد الغزاوي فهو الذي أعلن القضية مشكوراً:

• إنك ذكرت عملية الإفراج المتأخرة، وامتدحت بها جامعة أم القرى وهي لعمري جديرة بذلك، لكن لماذا لم تشر إلى عملية الإخراج المبكرة التي أشرفت عليها جامعة الإمام، حيث سجلت الرسالة عن (الغزوي وآثاره الأدبية) جمعاً ودراسة في عام 1405هـ، ونوقشت الرسالة في ذات العام وقام المؤلف بطباعة ديوان الغزوي في عام 1406هـ. وللعلم فإن جامعة الإمام ممثلة في كلية اللغة العربية وقسم الأدب لها مبادراتها المبكرة في دراسة الأدب السعودي وتسييل الضوء على أدباء الوطن، أمثال: أحمد الغزوي، وعبد القدوس الأنصاري، وعبيد مدني، ومحمد السنوسي، والفلاحي، وعبد العزيز الرفاعي وغيرهم، فظهرت حولهم رسائل جامعية منهجية.

• كان من حق الذي قام بإهداء تلك الصحف إلى الجامعة أن تجزل له الشاء والعرفان، فلست أدري متى وصلت لمكتبة الجامعة؛ لأنني في رحلة بحثي قمت بزيارات متكررة لمكة المكرمة، واستعنت بأخي الأستاذ صادق حجازي الموجه بإدارة التعليم، وتكررت زيارتي لمكتبة جامعة أم القرى، وقد كان عميدها آنذاك الأستاذ الدكتور سليمان العايد، الذي سهل لي سبل البحث في المكتبة، وأطلعني على مقصورة مكتبة الغزوي، فلم أجد تلك الصحف المدون فيها شعره أو نثره..!، وليتني وجدتها، إذن لكفتني وأغنيتني عن البحث المرير، والتدقيق الشاق في تقليب وقراءة الصحف السعودية، لجمع تراثه منها، وإذن لسلمت عيني من الإمعان المرهق والسهر المضني في قراءة التصوير. أغلب الظن عندي أنه لو كانت تلك الصحف حقاً في مكتبة أم القرى لما كلفت نفسها عناء تصوير صحيفة أم القرى على الميكروفيلم الذي بعثت به إلى مشكورة.

• يقول فهد الغزوي: ((ظل ستار النسيان وكواليس الظلام يغشيان ذلك التراث العظيم)) يعني: تراث الغزوي، وأنا أقول: لا أعتقد أنه كذلك بعد أن نشرت عنه دراسة كاملة، وتم طبع ديوان شعره في مجلدين منذ عام 1406هـ أي بعد موته بخمس سنوات، بدليل استعانة كثير من الباحثين والمؤلفين في الأدب، وفي مناهج التعليم بتلك الدراسة، وذلك الديوان في رسائلهم الجامعية ومؤلفاتهم، بل إن الديوان عينه

قد تداول بكثرة في المكتبات التجارية، وعُرض في كثير من معارض الكتاب في الداخل والخارج، وقامت وزارة الإعلام مشكورة بشراء نسخ منه لتوزيعها، كما أهديت نسخاً منه للمكتبات العامة، والنوادي الأدبية، التي بعثت تطلب المزيد، كنادي جدة ونادي القصيم.

- ذكر كاتب المقال أن لمعالیه ((اتصالات كثيرة بالأدباء والمفكرين والمهتمين بالأدب))، وذكر قائمة بأسمائهم، ولست أدري لماذا لم أدرج ضمن هذه القائمة؟ ألا يؤهلي تألّفي عن الغزوي واضطلاعي بنشر ديوانه أن التحق بهذه القائمة..!
- لست أدري ما موقف اللجان والمشرّفين عليها من كتاب (أحمد الغزوي وآثاره الأدبية) الأجزاء المطبوعة والمخطوطة منه. إنني على ثقة بمعرفة الأساتذة الأفاضل بالدور الجليل الذي تلعبه جامعة أم القرى على الساحة الأدبية في ربوع المملكة أياً ما يكن فإنني أقدر آرائهم وأعمالهم البحثية والنقدية.
- ولا يفوتني أن أشيد بالأديب الأستاذ الدكتور محمد بن سعد بن حسين الذي اقترح عليّ (أحمد الغزوي) موضوعاً لرسالة الدكتوراه بعد أقل من عام من وفاة الغزوي، وكان له الفضل بهذا السبق، وإنني لسعيد بهذا التوجيه، وزادت سعادتي معاشتي للغزوي طوال أربع سنوات، كنت خلالها معجباً به، مفتوناً بشعره، الذي نقش حب الوطن في وجداني، وأثرى معارفي وثقافتني، لقد كان رحمه الله بفته وأدبه الخالد سجلاً راصداً لبناء دولتنا الرشيدة بقيادة الراحل الملك عبد العزيز يرحمه الله.
- وأيضاً فإن سمو الأمير عبد المجيد أمير منطقة تبوك سابقاً وأمير منطقة المدينة المنورة حالياً قد دفعني إلى المبادرة السريعة بالطباعة، وحين أهديت له المخطوطة بعد المناقشة مباشرة فاجأني بكتابة المقدمة لها إعراباً عن رغبته الأكيدة في إخراج هذا العمل، وهذا تشجيع معنوي شرفني أن يتوج كتابي بمقدمته، مما دفعني إلى المبادرة إلى طباعة هذا الكتاب مهما كانت كلفته وصعوبته.
- خلاصة القول: إنني سعيد غاية السعادة بمبادرة معالي مدير الجامعة الدكتور سهيل حسن قاضي، وأعضاء هيئة التدريس الذين يسهمون بجهد مشكور في إحياء تراث

الغزاوي، والترويج له، والاحتفاء به، فهو شاعر عربي فريد، يستحق منا أن نُعلي قدره، وأن نرفع شأنه. إنني على استعداد في سبيل ذلك أن أقدم ما عندي من مجلدات مخطوطة جاهزة للطباعة إلى جامعة أم القرى - إن رغبت - إسهاماً مني، و عرفاناً لهذا التراث الخالد الكبير.

• تنويه: أما نثر الغزاوي فقد قمنا بجمعه في ثلاثة مجلدات ضخمة، وذلك في أكثر من ألف وستمائة صفحة، وهو مازال مخطوطاً.

ابن خميس النجم الأفل (مجلة الأربعاء 22/06/1432هـ)

"وابن خميس شاعر فذ، متنوع الثقافات، وعالم
مفكر، ومفكر متأمل أبحر في التراث، وخبر الحياة
كرجل حكيم، يطرح في شعره فكراً راقياً ومضامين
سامية..."

يسألوني عن عبدالله بن خميس فأقول : ن الرجل متنوع الثقافات ، هو علم عالم
متعدد الجوانب ، و قمة ذلك كونه مفكراً ، متأملاً في الحياة ، يطرح فكراً ثقافياً لأبناء وطنه ،
و تراه و تجده عالماً باحثاً يجوب آفاق التراث و يتعاقق مع توصل الحدث عبر الوصف المكاني
، و الزماني ، فمعجمه (معجم اليمامة) يتناول الوصف القديم ، و يكشف عن توصيف
حديث ، موضحاً مسيرة التاريخ و أثرها على المكان ، بينما نجد غيره من الباحثين يكتفي
بتجميع ما في بطون الكتب ، و هو علامة لغوي يجوس عبر كتب التراث و المعاجم ، و له
أبحاثه و برامج الإذاعية التي كشفت عن عمق بحث و فصاحة في اللغة و قدرة بيانية و طلاقة
لسانية فكان برناجه محبباً للنفوس .

و هو أيضاً مبدع شاعر قدير جمع أطراف اللغة ، و أني أسميه فرزدق العصر ، فما
أشبهه بالفرزدق من ناحية التكوين النفسي الذي يتشكل في التعالي و الاعتزاز بالنفس من
حيث الشعور و الإحساس ، و هو يتعاقق مع الفرزدق بكونه شاعر أمة يتحدث بلسانها و
يقترن بحكامها ، و يرصد واقعها و أحداثها فديوانه يسجل الأحداث الإسلامية المعاصرة
كأحداث الجزائر و فلسطين و غيرها ما يقول عن مذبحه تل الزعتر ص 129:

أشلاءه كتلاً طيناً على الطين
غير الحصاد الأ قومي أغيثوني

سلهم عن التل كم أفنوا و كم تركوا
كم ذا ينادي به طفل ووداعة

إن كان لا صلة الإسلام تنقذني ولا العروبة بالناس تؤويني

وكم من الحوادث التي يتألم لها العربي و هو لا حول له و لا طول و هو يمثل الواقع العربي فهو يصف حال العرب :

مزقت بين العدا أشلاؤهم
وفشت فيهم نكايات آخر
لذعة أسوأ من وخز الإبر
والأمانني مع هذا جمّة
كل يوم هيئة أو مؤتمر
حادث في كل يوم مؤلم

وكذلك يسجل التطور في الوطن الغالي . فتارة يقول في جلب الماء للرياض و تارة يسجل مناسبات وطنية ذات تأثير اجتماعي . و يتضح الاقتراب من الفرزدق في بنية النص الفنية ، فهو يمنح من الألفاظ القوية الجزلة ، ذات الصوت الجهوري التي استمدها من المعجم العربي ، بل غير الجارية على اللسان المعاصر ، فأثرت تلك الألفاظ المنتقاة على تركيب الجمل و بناء السياق ، و هي تتشكل مع أحاسيسه و تجربته التي نرى بعدها عن الوجدانيات فشعره إلى نفسه أقرب من شعر الفرزدق إلى شعوره الوجداني .

و ربما أن الذي أبعد ابن خميس عن الوجدان صعوبة الحياة التي كونته فهو طالب علم شرعي ، و مغترب في شبابه ، إلى كونه جزءاً من المجتمع الذي شكلت الدعوة تركيبته الذهنية و الوجدانية ، ثم إن همته تجاوزت به مرحلة الصبا ، فكان حازماً جعل العقلانية أولاً فاخترت العواطف كثيراً .

و هو كاتب له تواصله مع الحياة الوطنية و العربية و الإسلامية فقد أسس جريدة الجزيرة التي ما زالت شعلة تضيء في أرجاء الوطن ، و كان العزيمة الصادقة التي تنفث في روح الكاتب أمطاراً من الانفعالات فكأنها جمعت بين ابن خميس و خالد المالك فكان له أثرها في صحيفة الجزيرة .

و لا انسى كثيراً من الأفكار الإسلامية القوية التي خاطب بها ولاة الأمر كالدعوة للجهاد التي خاطب بها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز (طيب الله ثراه) ، و من مقالاته الوطنية كدعوته إلى إيجاد بحيرة كبرى في صحراء نجد تمد العاصمة بالمياه .
و كثافة نتاج ابن خميس العلمي و الإبداعي يفتح الباب لدراسات متعددة . فتاريخ حياته تاريخ وطني متحرك متطور ، و بدون مسيرة التعليم في مستهل حياة دولة تنامت حضارياً و هو قريب من الولاة و العلماء و الوجهاء ، بل مراكز الدراسات العليا فهو عميد كليتي الشريعة و اللغة بالرياض .

و كثافة إبداعه و عمقه المضموني و الشكل الفني و الجمالي يحتم دراسات ميدانية ، تكشف عن بنية اللغة ، و مصدرها ، و تواصلها في مسيرة الإبداع ، و تحويلها إلى تكوينات بيانية متقاربة أو متقاطعة تكشف دلالات نفسية و اجتماعية و تواصل الموروث في تكون ذهنية الشاعر ابن خميس و أحاسيسه ، فالشاعر تتنازع ثقافات شتى تراثية و معاصرة ، و أحداث واقعية لها وقعها في مسيرة إبداعه ، و نبت في بيئة ذات شموخ نجدي فعمل على حضوره و تجسيد تاريخ و تدوين الواقع بذات الشموخ بل يعلو ذلك في إبداعه الذي يرتفع بع عن أقرانه .

و الذي لا ريب فيه أن إبداعه مكون من شبكة معلوماتية تحتاج إلى فرز و بيان و تأمل و من ثم كشف دلالات .

و نحن لو شرحنا قصيدته في وادي ابن عمار لأدر كنا مدى تشعب الموروث و تعانقه مع الحاضر بل هيمنته في المضمون و البناء اللغوي و الشكل الفني يقول منها :

و إني و عن شط بي عنه النوي زمناً	ناء بي عنه ترحالي و أسفاري
لأفتديه و ما أبغي به بدلاً	من شعب (هوان) أو من ربيع سنجار
أحب بسفح طويق إنه جبل	مراع مجد لمعتلم و مشتاري
تفياته (تميم) في فتوتها	و استقدحت من ذرا زنده الوادي
تمد خفا ببذل الجواد مسجحة	و أن أهيجت أعدت كل بلتار

إن مثل المفكر أو المبدع كممثل النجوم المضئية، يشرق فكره ويشع منه في الحياة، هداية للحائرين، ونوراً للسالكين. فإذا مات، ورحل جثمانه عن الوجود لم تنزل إشعاعات فكره، وقبسات منه فتدايل ومصابيح تنثر الضوء، وتنشر النور في الكون الفسيح. ولقد كان ابن خميس واحداً من هذه النجوم، فارق الدنيا، ولم يزل منه خالداً كنجم ما إن يعتريه الأفول حتى يعود إلى الحياة لامعاً، وفي صفحة السماء متوهجاً متألقاً. وأيم الله إن الأجساد لترتحل وتفنى، بيد أن الفكر النبيل باق، والأدب السامي خالد لا يموت.

والم تأمل في شعر ابن خميس لاشك يقف على ملامح القصيد لديه، ويحس ذلك الفكر الذي يتسامى بالمعتقد، ويتنصر للانتماء العربي، وينقش الوطنية في الوجدان. وشعر الشاعر يدور في إطار هيمنة تلك المحاور.

فالشاعر مشحون بالهاجس الديني، والانتماء الإسلامي، يشدو لتراث الأجداد وثقافتهم وتاريخ الأمة الإسلامية، يفخر بقيام الدولة السعودية تحمل راية التوحيد، ولواء العقيدة. لقد كان مشحوناً بالروح الإسلامية التي تنتصر لقيم الدين، وتُعلي قيمة الحضارة الإسلامية المجيدة.

أمة نحن لا نبالي الأعداي أو نحابي مهينة أو مربية
نحفظ العهد والعلاقة بالله ونبقى لكل جيل حسيبه

أما عن جرح الأمة الإسلامية الذي ما انفك ينزف دماً ومرارة، الجرح الفلسطيني الغائر في صدر العربي الثائر، فلم يخلو شعر ابن خميس من الإشارة إليه، فبمناسبة افتتاح المعرض الفني لصالح رعاية أسر مجاهدي وشهداء فلسطين، الذي أقيم بالرياض عام 1386هـ، أنشد الشاعر السعودي الثائر قصيدته التي يقول في مطلعها:

تخذ السلام العاجزون تعلّة
أين السلام؟ فما أعلّ وأمرضا

الثار يوقظه الحسام المتضي
والحق كل الحق فيما قد مضى

قلنا لعالمنا بنصفه حقنا	قالت به (فتح) وقلنا عنوة
فأشاح عن سنن الصلاح وأعرضا	يهنيك يا (فتح) الطريق المرتضى
فأشاح عن سنن الصلاح وأعرضا	رفضت محادثة السلام وإنها
واليوم نستسقي السلاح فإنه	أين السلام؟ فما أعلّ وأمرضا
أهدى سبيلاً نحو أسباب القضا	قلنا لعالمنا بنصفه حقنا

ويرى الشكلايون أن الشكل هو العنصر الاجتماعي الحقيقي في الأدب، وربما تصدق هذه المقولة إلى حد كبير على شعر ابن خميس، فإبداعه كله يتواصل مع التراكمات الاجتماعية التراكمية المتوارثة، ذات الصلة بالحفاظ على الهوية الإسلامية والعربية، وهو نجد متأثر بمكانه، وهو ابن الدرعية بتركيبها المتعددة عاصمة الدولة السعودية وموئل الدعوة، حاملة التجديد الديني في جزيرتنا العربية منذ ثلاثة قرون، وقد أشار إلى ذلك في قصيدة رائعة يقول فيها:

فآزره آل السعود ولم ينوا لإعلاء دين الله، أبلوا وشيدوا
فأرسوا على أرض الجزيرة دولة يحوط حماها مصحف ومهند
فمن هاهنا سادوا، ومن هاهنا علوا، ومن هاهنا تاج العلى كان يُعقد
ومن هاهنا شوس الملوك تتابعوا إذا مات منهم أصيد قام أصيد
ومن هاهنا تغزو الجيوش جحافلا فكم اتهموا في كل صقع وانجدوا
يروحون أفواجا إليه كأنما لهم فيه من شيطان دجلة مورد
فعاد إلى الإسلام سابق مجده، ولم يبق من يعثو بظلم ويفسد

ومع التكوين الالتزامي لبنية الذهنية عند ابن خميس لم يكن منغلقات عن الأفكار الحديثة المفيدة، بل كان الصوت الحر الذي يرفع راية المبادرة والدعوة، فهو أول من دعا وزير المعارف/ سمو الأمير فهد بن عبد العزيز في عام 1373هـ إلى تعليم المرأة. ونحن نرى

ملامح ذلك في أسرته، فالكاتبة والروائية والقاصة (أميمة الخميس) من أوائل من كتبت في القصة وتواصلت مع المقالة، وقد حقق الله أمنية الشاعر في عهد الملك فهد، ومما قاله في هذا الحلم القومي الكبير:

يا نصير العلم هل من شرعة تمنع التعليم عن ذات الخبا
إنها في ذاتها مدرسة إن خبيثاً أنجبت أو طيباً
فمعاذ الله أن تبقى بنا دمية للهو فينا نجيتي
وإذا ما ثقفت فتياتنا أعلنوا ضد النساء الحربا،
كيف يرضى عالم جاهلة تقلب البيت جحيماً ملهبا
يخرج الأطفال منها صورة إن ينالوا العلم ضلوا الأدبا.

ولاشك أن هذه القصيدة تفيض علينا بالدلالات الاجتماعية والنفسية، وتزخر بالصور الموحية في مجمل تكوينها التي تكشف عن عادات الجزيرة العربية وتقاليدها في تلك الفترة الزمنية من تاريخها، وتلك سمات فنية تتجلى في الكثير من شعره، ومن ذلك ما قال في إحدى قصائده:

في مغانٍ من الجمال حديث ومعانٍ من الجلال نجبية
فهي أسد العرين في سالف الدهر وحصن الولا ومهد العروبة
شربت من عصارة الدهر مرّاً وتحست خبث الشراب وطيبه
كل حين تعدو عليها العوادي من مصابٍ يعتامها أو مصيبة
كلما خف للجهاد فريق عرف الموت من ذويه نصيبه

ويتولد الخطاب الفكري في شعر ابن خميس من انفعال العنف والغضب الذي يكسو أكثر شعره الوطني لاسيما في القضية الفلسطينية، فهو مشحون بالغضب الشائر ضد الكيان

الصهيوني الغاشم، الذي انتهك مقدسات المسلمين في فلسطين، ودفع بألته ليدمر كل ما هو فلسطيني، تحت مرأى ومسمع الدول الكبرى لاسيما الولايات المتحدة الأمريكية التي ترعى ذلك وتشجعه..!

وقد بدا ذلك البركان النفسي الذي يعتمل في ذات الشاعر، بل في أعماق كل عربي غيور في قصيدته (تل الزعتر)، التي يقول فيها:

سل عنهم (التل) كم أفنوا وكم تركوا
أشلاءه كتلا، طينا على الطين
كم ذا ينادي به طفل وودعه
عبر الحصار: ألا قومي أغيثوني

وابن خميس شاعر فذ، متنوع الثقافات، وعالم مفكر، ومفكر متأمل، أبحر في التراث، وخبر الحياة كرجل حكيم، يطرح في شعره فكراً راقياً، ومضامين سامية، ناهيك عن كونه رجلاً مؤرخاً وجغرافياً، يحمل في جعبته العلم الكثير. فمعجمه (معجم اليمامة) مؤلف ضخمة يقع في مجلدين، وهو مؤلف موسوعي يعرض فيه شاعرنا تاريخ اليمامة، هذه البقعة الحبيبة من بلادنا، موضعاً مسيرة التاريخ، وأثرها على المكان، وكان الأديب الكبير ابن خميس لا يقف عند ما دونته الأفلام حول الأماكن والبلدان، إنما كان يرتحل ليقف على الأمر بنفسه مخالفاً غيره من الباحثين والمؤرخين الذين يكتفون في تأريخهم للبلدان والأحداث على ما في بطون الكتب.

هو علامة لغوي إذن، يبحر في كتب التراث والمعاجم، وله أبحاث قيمة، ومؤلفات لاشك تثري الفكر العربي المعاصر، ناهيك عن براجمه الإذاعية التي كشفت عن سعة أفقه، وخصوبة معارفه، وفصاحة لغته، وطلاقة لسانه، وقدرته العذبة على البيان والخطابة، لقد كان رحمه الله مبدعاً فريداً، متعدد المواهب والقدرات، وما أشبهه بالفرزدق من ناحية التكوين النفسي الذي يتشكل في التعالي والاعتزاز بالنفس.

وديوانه الشعري يعد ملحمة في الوطنيات، إذ يسجل الأحداث الإسلامية المعاصرة كأحداث الجزائر وفلسطين وغيرها.. يقول عن مذبحة تل الزعتر ص 129:

سل عن التل كم أفنوا وكم تركوا
كم ذا ينادي به طفل ووداعة
إن كان لا صلة الإسلام تنقذني
أشلاءه كتلاً طيناً على الطين
غير الحصاد ألا قومي أغيثوني
ولا العروبة يا للناس تؤيني

وكم من الحوادث التي يتألم لها العربي وهو لا حول له ولا طول، إن الشاعر هو الآخر يحترق قلبه ألماً لحال أمته العربية التي تمزقت أشلاؤها، وضعف بأسها، وهان قدرها على الأمم، وتكسرت قناتها على شيطان الفرقة والمطامع الشخصية لقد وصف الشاعر حال العرب أصدق وصف حين قال:

مزقت بين العدا أشلاؤهم
حادث في كل يوم مؤلم
والأماني مع هذا جمّة
وفشت فيهم نكايات أحر
لدعة أسوأ من وخز الإبر
كل يوم هيئة أو مؤتمر

على أن العقلية الناقدة حين تبحر في إنتاج شاعرنا، سرعان ما يتكشف لها اقتراب ابن خميس من الفرزدق في بنية النص الفنية؛ فكلا الشاعرين يمتلكان قاموساً شعرياً قوامه الألفاظ القوية الجزلة ذات الصوت الجهوري، المستمدة من المعجم العربي، بيد أن ابن خميس أقرب إلى العقلية والموضوعية، فيما الفرزدق يُعلي جانب الوجدان والذاتية في شعره. ولعل مرد ذلك في شعر ابن خميس كونه نشأ في بيئة عربية تتسم فيها الحياة بالصعوبة والعنت، ويطغى عليها صراع الأحداث الاجتماعية، وطبيعة حياته هو، فقد كان طالباً للعلم الشرعي، وذاق الاغتراب، وعاصر التغيرات الاجتماعية التي شهدتها الوطن في فترات عمره الممتد. كلها كانت عوامل تضافرت مجتمعة لتبلور شخصيته المحافظة، وتشكل فكره العقلاني.

لم يقتصر إبداعه على الشعر فقط، إنما كان رائداً في فن الإبداع النثري، لاسيما المقالة الصحفية، ولا ننسى كونه مؤسس جريدة (الجزيرة)، التي كانت ولم تزال شعلة تضيء في أرجاء الوطن، وكان هو نموذجاً للكاتب الوطني الذي لا ينفك يطرر الصحافة بمقالات غزيرة في فكرها، حبلى بالرؤى والانفعالات. من ذا الذي يستطيع أن ينسى دعوته خادم الحرمين الشريفين الملك (فهد) للجهاد، وكذا مقالته التي خاطب بها ولاة الأمر يستنفرهم مقترحاً ضرورة إيجاد بحيرة كبرى في صحراء نجد، تمد العاصمة بالمياه.

ولاشك أن كثافة وغزارة إبداعات ابن خميس العلمية والفكرية والأدبية تفتح الباب أمام الباحثين والدارسين للقيام بدراسات متنوعة تدور عنه، حياة، وفكراً، إذ إن التأريخ لحياته هو في الواقع تأريخ سيلقي بظلاله على تاريخ الوطن، وعلى مراحل التنامي الفكري والحضاري في ربوع المملكة. لقد كان الرجل قريباً من الولاة والعلماء ووجهاء القوم في الوطن السعودي، وشغل في فترة زمنية من عمره عمادة كليتي الشريعة واللغة بالرياض.

وكثافة إبداعه بما فيه من عمق مضموني وشكل فني وجمالي يستنفر الهمم العلمية، والعقول الفكرية للنهوض بدراسات ميدانية، تكشف لديه عن بنية اللغة ومصدرها، وتواصلها في مسيرة الإبداع، وتحويلها إلى تكوينات بيانية متقاربة أو متقاطعة تكشف عن دلالات نفسية واجتماعية، وتظهر ذلك التلاحق الفني في أدبه بين الأصالة والمعاصرة، وتبين عن أثر ذلك التلاحق الفني في تكوين ذهنية ابن خميس الشاعرة المبدعة. ألم تر أن قصيدته في وادي ابن عمار دليل على ذلك التمازج المثمر بين حرصه على الأصالة، وتأثره بالمعاصرة، لقد انعكس ذلك واضحاً على المضمون الشعري والبناء اللغوي والشكل الفني في ثنايا القصيدة.

ناء بي عنه ترحالي وأسفاري
من شعب "بوان" أو من ربع سنجار
مراع مجد لمعتام ومشتاري
واستقدحت من ذرا زنده الواري

وإني وإن شط بي النوى زمنياً
لأفتديه وما أبغي به بدلاً
أحب بسفح طويق إنه جبل
تفياته (تميم) في فتوتها

تمد كفاً بذل الجواد مسجحة وان أهيجت أعدت كل بتار

إن شعر ابن خميس يورد على المتلقي كما هائلاً من الخواطر النفسية والاجتماعية. فلو قيض الله له باحثين في اللغة وفي إشعاعات أدبه، إذن لتكشفت لغة الصحراء وموروثها الجزل الفصيح؛ فشعره منحوت من الصخر، ومن وعورة الصحراء ونقاوتها، إذ تتسم ألفاظه بالقوة والحزم والعزم، وتغشى على تراكيبه وأساليبه التراكمية العربية الممتزجة بالروح الإسلامية، وبتاريخية المنطقة، وتشيع في لغته الشاعرية ملامح المعجم اللغوي العربي لأبناء وسط الجزيرة، مهد العرب الفصحاء، وميدان الرحلات العلمية القديمة لأجدادنا العرب الأوائل أيام انصرفت عزائمهم وانشغلت خواطرهم بجمع اللغة من أفواه العرب الأقحاح. وابن خميس إذا حلق في أجواء الشعر لا ريب يستحوذ على القارئ ببيانه وفصاحته وقاموسه الشعري الذي يحتضن الألفاظ العربية القديمة، وكأنه فرزدق زمانه. إن لغته الشاعرية تحوي ألفاظاً ذات صوتية جهورية، ومفرداتٍ حبلية بالنبرة العربية القوية التي تشع جرأة، وصراعاً، واندفاعاً، وتراكيب تكتسي بملامح الجبال والأودية، وتحمل هجير الصحراء، وترتدي زفير الرياح وهياجها.

وابن خميس واحد من الشعراء الذين عاصروا مراحل تكوين المملكة السعودية الحديثة، وواكبوا تطور الأحداث في ربوع الجزيرة، فكان على قرب من عاصمة الدولة الرياض، وكان مولده في العاصمة السعودية الأولى (الدرعية)، وشهد الفرقة، وقطع الطرق، وفقدان الأمن، ثم هيأت له المقادير أن يعاصر مرحلة النهضة السعودية، واستقرار الأمن في أرجاء البلاد، ووثبة العلم وانطلاقته، كل ذلك كانت عوامل بلورت شاعريته، وجعلته حاملاً لهم الوطني أينما ذهب، فاندفع يمدح الملك عبد العزيز مؤسس الدولة السعودية، ويشدو بالوحدة الوطنية، ويغرد لقيام الدولة السعودية، وهو في أثناء ذلك لا يفتأ يطلب العلم متنقلاً بين المساجد والكتاتيب، ثم يلتحق بمدرسة دار التوحيد في الطائف، ثم سرعان ما ينضم إلى ركاب أولئك المتخرجين الذين ينطلقون بدافع الحب والوطنية مساهمين في الإدارة السعودية، وفي بناء قواعد تربية راسخة.

ولاشك أن شعره مرآة صادقة تعكس مراحل بناء المملكة، وتكشف عن هاجس الأمة العربية الحالم بالوحدة والتطوير، الداعي إلى وجوب نبذ الفرقة، والعودة إلى حياض الدين أملاً في استرداد المجد الإسلامي القديم، وأذكر يوم دعا الملك فهد رحمه الله إلى الجهاد، فإذا بصحيفة الجزيرة في صباح اليوم التالي تطالعنا بمقال حماسي للشاعر يبارك فيه دعوة الملك فهد.

هذا والباحث في نثر الشاعر يكتشف أنه لا يقل عظمة وعدوبة عن شعره؛ إن مؤلفه (معجم اليمامة) يرتبط فيه المكان بازدواجية الماضي والحاضر، ويرصد فيه ما قال شعراء العرب القدامى، والقارئ نثرياته في الصحف السعودية يلمس فكره المثقف، ودعوته إلى الإنجاز والابتكار والبناء الطويل الأجل، ومقترحاته التي تكشف حبه لهذا الوطن المعطاء، ومنها ما نادى إليه من ضرورة إيجاد البحرية في وسط صحراء نجد لإمدادها بالمياه.

والشاعر ابن خميس أتاحت له فرصة التواصل مع الملوك السعوديين، والأمرء والعلماء، والأدباء، وله معهم محاضرات ومحاورات كان هو فتاها المتألق، لما تمتع به من موهبة خلاقة، اشتقت تكوينها من الثقافة الإسلامية، والإبحار في التراث اللغوي والتاريخي، والتزود من أمهات الكتب الشرعية، والاطلاع على التيارات الفكرية الحديثة.

واللغة الشعرية لابن خميس تمتزج بإيقاع موسيقي أخذ ساعد على تكوينه وقوف الشاعر على الموروث الشعري العربي، كما أن موضوعاته الشعرية متنوعة خصيبة لكنها متحدة الإيقاع يكاد يشبه في شعره الفرزدق شاعر العربية الكبير، كما بينا سلفاً.

كما أن عناصر التراث العربي بشتى أطيافها تتشكل في شعره، ولم ينساق وراء التنوعات الموسيقية الحديثة بل صهر مضامينه الشعرية في الشكلانية العروضية القديمة.

ولاشك أن ابن خميس يمتلك ناصية اللغة بما اطلع على المعاجم اللغوية، وما امتلك من معرفة عميقة بأسرار اللغة وتراكيبها، وما امتلك من قدرة إبداعية على استمداد المضامين الحديثة التي تدلف إلى مكونات الأحاسيس الانفعالية.

وحياة ابن خميس حافلة بالإبداع والإنجاز، فهو شاعر، ومؤلف، وكاتب صحفي، وباحث متفرد، ومحاضر مفوه، وكان له برنامج إذاعي متميز عن الشعر العربي، وأذكر أيام

كنت طالباً للعلم في قاهرة المحروسة، قد التقيت بولده صالح بن خميس، وقد راعني ما يتمتع به من لغة شعرية فصيحة، فأدركت يومئذٍ كم كان ابن خميس مؤثراً في أسرته..!

رحم الله ابن خميس، فقد كان شاعراً من شعراء الجزيرة الكبار، وكان عالماً في ميادين الثقافة المتنوعة، وشهد له معاصروه بالدور الرائد في تأسيس صحيفة الجزيرة، ونجح في أن ينقش اسمه خالداً في ذاكرة الوطن.

لقد فقد الوطن صوتاً ندياً قوياً مدوياً عبر ما يقارب من قرن يشدو للبناء الوطني، ويدعو إلى رفعة الإسلام، ويدافع عن العالم العربي.

إنه يمثل صوت الإنسان العربي وأمانيه وتطلعاته، ويحمل الهاجس العربي بتراكمه لغةً، وديناً، ومكاناً، وزماناً.

نازك الملائكة والمعاناة

(مجلة الأربعاء 1428/05/27هـ)

"وكانت تسود قصائدها مسحة من الحزن العميق،
فكيفما اتجهنا في ديوانها (عاشقة الليل) لا نقع إلا
على مآتم، ولا نسمع إلا أنيناً وتوجعاً وبكاءً"

نازك الملائكة الشاعرة العراقية التي بدأت معاناتها مع الحياة الفكرية في مراحل شبابها الأولى، فاستلهمت الحرية باندفاع الشباب، وتمردت على الواقع الفكري، والواقع السلوكي، وتنقلت في ربوع لندن بكل تموجاتها الفكرية التي كانت تمثل الصراع بين الفكر الشرقي والغربي، والصراع بين الشيوعية والرأسمالية، والصراع بين التدين والإلحاد. وما لبثت أن هاجرت إلى أمريكا ذلك العالم الذي كان يمثل حلم المثالية للعالم الحر في تلك المرحلة، قبل السقوط الحالي الذي تتدحرج فيه. وحينئذ حدث أكبر تحول فكري ونفسي واجتماعي في حياتها كلها، إذ أعلنت التوحيد، ولم تنقض سنتان حتى التزمت الصلاة، فاستكانت روحها، وهدأت خواطرها، وطفقت ترشق قلمها الإبداعي في صدر تلك الموجات الصاخبة العاتية التي هبت على الوطن العربي ثائرة على كل قديم موروث، وداعية إلى حداثة جذرية في الحياة الأدبية شعرها ونثرها.

لقد وقفت نازك الملائكة في وجه تلك الموجات العارمة، تناصر القديم وإن اصطبغ إبداعها الشعري بأصباغ الحداثة الشعرية، ولكنها أصباغ لا تتنافر مع القديم، ولا تنبئ عن مجافة حلاوة الأصل وعذوبته.

ولقد وقفت تناصر قضايا أمتها العربية، ضاربة بذلك مثلاً على أن المرأة العربية لا تقل عن الرجل قدرة على تحمل الصعاب، وفهماً لطبيعة الصراع الكوني بين الخير والشر،

ووعياً بقضايا الأمة في حاضرها ومستقبلها. ها هي تعاني معاناة الشعب العربي، وتصف الجرح الفلسطيني وصفاً صادقاً دامياً.

يا قبة الصخرة من صلاتنا سيرتوي أذار
وتنبت الرايات والثمار
صلاتنا تفجر الأنهار
تعيدنا للموطن المسروق وتمحو العار
وتنشطر أشلاء ممزقة مثل لبنان
جنوب لبنان قرى مروعة
أوصالها مقطعة
سكانها إلى القبور جثث مشيعة
بيوتهم خرائب منشورة أعمدة مخلعة
حرائق مندلعة

والعراق موئلهما الأول، ووطنها الغالي، لم يغيب عن خاطرهما، رغم بعدها عنه، واغترابها الدائم، إنه جرح غائر في وجدانها هو الآخر، ومأساته جزء من مأساتها، فهي لم تكن راضية عن التموجات السياسية في العراق التي أفرزت صراعات على الحكم، وثورات تدميرية، وأجواء اجتماعية تكبت الحريات، وتقيد الفكر، وتغتال الحرية والديمقراطية. الأمر الذي دفعها إلى إثارة الغربة بما فيها من مرارة وشقاء، لا يكاد يجذبها إلى وطنها إحساس بالأمان أو الأونس أو الرضا، وهي إذ ترصد في شعرها مأساة الشعب الفلسطيني أصحاب الشتات إنما ترصد في عقلها الباطني مأساة وطنها العراق.

إن قصيدتها في فلسطين تكاد تكون تصويراً واقعياً لمأساة العراق ومعاناة العراقيين فهل ثمة أصدق قولاً في رسم لوحات العراق الحالية من قولها في فلسطين:

كل يوم تموتين في القدس، كل صباح
يقتلونك، تنقل أخبار موتك سود الرياح

تسقطين شهيدة

في الشعاب القريبة والطرق البعيدة

ترتدين مخصبة بدماء العقيدة

وتهيمن ظمأى شريفة

في دروب الظلام وحيدة

والدموع القديمة تغسلها

كل يوم دموع جديدة

والأبيات اللاحقة أيضاً لا تحتاج إلى توضيح أو تحليل، إنما هي لوحات صريحة واضحة، إذ تنقش عليها ملامح المعاناة العراقية وهي تعود لمخاطبة أمها، وكأنها تخاطب وطنها العراق أو تتحدث بلسان فتاة عراقية إذ تقول:

كثر القتل يا أمي

وتعدد موتك حين رأيت حُمانا

يستباح وثرمى ولا نرمي

والعدو يصادر حتى تسابيحنا وكرانا

وظفولتنا ودمانا

يسكن منا مزق الم والعظم

وله النصر في كل حرب، ونحن الضحايا

المآذن والعتبات تسابق سبايا

إنها شاعرة ملهمة، وشعرها إنساني عالمي، يتمخض عن مضامين ومقاصد إنسانية فاضلة.

ولدت الشاعرة نازك الملائكة في بغداد العراق، في 23-8-1923م ونشأت في بيت علم وأدب، في رعاية أمها الشاعرة سلمى عبد الرزاق، وأبيها الأديب الباحث صادق الملائكة، الذي اختار لها اسم (نازك) تيمناً بالثائرة السورية (نازك العابد) التي قادت ثوار سوريا في نضالهم ضد الاحتلال الفرنسي في ذات العام الذي ولدت فيه الشاعرة. ومن ثم تربت في مناخ أسري يتسم بالدعة والرفاهية، وبيئة توافرت فيها أسباب الثقافة. وقد قضت أعوام صباها مع أسرته، ثم فرت من العراق في أواخر الخمسينيات خوفاً من تفشي العنف الثوري في تلك المرحلة.

درست نازك الملائكة اللغة العربية، وتخرجت في دار المعلمين العالية عام 1944م، تلقت دروساً في الموسيقى، ثم توجهت إلى الولايات المتحدة الأمريكية للاستزادة من معين اللغة الإنكليزية وآدابها عام 1950م، وهناك أتاحت لها فرصة دراسة اللغتين اللاتينية والفرنسية إلى جانب الإنكليزية، وفي أمريكا نالت الماجستير في الأدب المقارن من جامعة ويسكونسن - ماديسون. ثم قفلت عائداً إلى العراق، وانتقلت للتدريس في جامعة بغداد، ثم جامعة البصرة، ثم جامعة الكويت، قضت عاماً من عمرها في بيروت، وسرعان ما سافرت عام 1990م، بسبب ظروف حرب الخليج الأولى إلى القاهرة، ومكثت مقيمة في مصر في عزلة اختيارية حتى وافتها المنية في صيف 2007م.

لنازك الملائكة قصائد مشهورة، وأعمال نقدية معروفة، وقصص، وبعض نصوص السيرة الذاتية.

مثلت العراق في مؤتمر الأدباء العرب المنعقد في بغداد عام 1965.

ولها من الشعر المجموعات الشعرية التالية:

عاشقة الليل صدر عام 1947.

شظايا ورماد صدر عام 1949.

قرارة الموجة صدر عام 1957.

- شجرة القمر صدر عام 1965.
يغير ألوانه البحر طبع عام 1970
مأساة الحياة وأغنية للإنسان صدر عام 1977.
الصلاة والثورة صدر عام 1978.
الأعمال الكاملة - مجلدان - (عدة طبعات).

ولها من الكتب:

- قضايا الشعر الحديث عام 1962م
التجزئية في المجتمع العربي عام 1974م
الصومعة والشرفة الحمراء
سيكولوجية الشعر عام 1992م

كتبت عنها دراسات عديدة ورسائل جامعية متعددة في الكثير من الجامعات العربية والغربية، وكانت تسود قصائدها مسحة من الحزن العميق، فكيفما اتجهنا في ديوان عاشقة الليل لا نقع إلا على مآثم، ولا نسمع إلا أنيناً وبكاءً وأحياناً تفجعاً ووعولاً، وهذا القول لمارون عبود.

نشرت الشاعرة ديوانها الثاني (شظايا ورماد) في عام 1949م، وثارت حوله ضجة عارمة حسب قولها في قضايا الشعر المعاصر، وتنافست بعد ذلك مع بدر شاكر السياب الشاعر العربي الكبير حول أسبقية كتابة الشعر الحر، وادّعى كل منهما أنه أسبق من صاحبه في هذا المضمار، وأنه أول من كتب الشعر الحر وقد ذكرت الشاعرة نازك الملائكة في كتابها قضايا الشعر المعاصر قولها: 'كانت بداية حركة الشعر الحر سنة 1947م، ومن العراق، بل من بغداد نفسها، زحفت هذه الحركة وامتدت حتى غمرت الوطن العربي كله، وكادت بسبب تطرف الذين استجابوا لها أن تجرف أساليب شعرنا العربي الأخرى جميعاً، وكانت أول قصيدة حرة الوزن تنشر قصيدتي المعنونة ((الكوليرا)) وهي من الوزن المتدارك (الخبب)' ويبدو أنها كانت متحمسة في قرارها هذا ثم لم تلبث أن استدركت بعض ما وقعت فيه من

أخطاء في مقدمة الطبعة الخامسة من كتابها المذكور فقالت: "عام 1962 صدر كتابي هذا، وفيه حكمت أن الشعر الحر قد طلع من العراق ومنه زحف إلى أقطار الوطن العربي، ولم أكن يوم أقررت هذا الحكم أدري أن هناك شعراً حراً قد نظم في العالم العربي قبل سنة من نظمي لقصيدة (الكولير) ثم فوجئت بعد ذلك بأن هناك قصائد حرة معدودة قد ظهرت في المجلات الأدبية والكتب منذ سنة 1932، وهو أمر عرفته من كتابات الباحثين والمعلقين لأنني لم أقرأ بعد تلك القصائد في مصادرها".

قبضة من أثر جميل

"وديوانه يسجل مسيرة حياته الفكرية والعاطفية، لكنه لا يكشف عن مسيرة حياته العملية أو المهنية، ربما كان مردّد ذلك كونه من رجال الأمن في المملكة، والأعمال الأمنية تحفها السرية.."

مدينة العلا منبت الحضارات ومستقرها، فقد عاشت فيه بعض إمارات عاد قوم هود، ثم تعاقبت عليها حضارة الثموديين الذين أرسل إليهم النبي صالح عليه السلام، ثم حضارة اللحيانيين، ثم تدفقت إليهم الأنباط من الشمال، ومن هذه المدينة انطلقت الكتابة الثمودية، وفيها تطورت بعض الخطوط العربية، وقد شاهدها رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم في طريقه لغزوة تبوك. واستوطنت منطقة العلا بعض القبائل العربية، مثل قبيلة بلي، وبنى عذرة وقد ظهر في المنطقة الشمالية شعراء، منهم: زهير البلوي - الذي عُمر أربعمئة سنة، وهزم الغساسنة، ومدحه النابغة الجعدي - وجميل بن معمر صاحب بئينة، وعروة بن حزام العذري، وكثير عزة، وقيس بن الملوح (مجنون ليلي)، وظهر في المنطقة أكثر من ثلاثين شاعراً ماتوا حباً وهياماً.

وظلت مدينة العلا مهذاً للحضارة العربية، وصارعت عبر أحقابها الزمنية المتلاحقة أمواج الجهل والفقر، وعانت خلال تاريخها الممتد من فقدان الأمن، وعزوف الدول الإسلامية عن الاهتمام بدروب الحاج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، حتى أشرفت على ربوع الجزيرة شمس العهد السعودي، فوجه ولاة الأمر عنايتهم بالتعليم، فكانت العلا من أوائل المدن التي عانقت أنوار المدارس الحديثة. فتعلم أهلها، وتخرج شبابها في مدارسها وكلياتها، ثم انطلقوا إلى الوظائف الحكومية والخاصة، العسكرية والمدنية.

وقد أجزلت لي المقادير عطاءها إذ تعرفت الشاعر سليمان المطلق، الذي ينتمي إلى مدينة العلا. عرفته حين كنت طالباً وكان هو ضابطاً ممتلئ الحيوية، وكانت الشرطة لها هيبتها في نفوسنا، فكنت معجباً به وقتها أيما إعجاب.

غير أن أمواج الحياة وتصاريف المقادير حالت بيننا، فلم أقابله إلا في حفل استقبال صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن سلطان حين تولى إمارة منطقة تبوك، وقد عهدت إليّ اللجنة يومها بقراءة الشعر، فكان رحمه الله شاعراً لطيفاً، متباسطاً في حديثه، وحواره، إذ مضى ساعتئذٍ في حديث عذب ومتع يحادثنا ويناقشنا حول أبياته الشعرية.

ولما ألفت كتابي (تبوك قديماً وحديثاً) كان الشاعر سليمان المطلق في صدارة الشعراء الذين ترجمت لهم، وهو أهل لذلك، لأنه شاعر من الشعراء المجيدين المبدعين في المنطقة، وشعره جدير بالدراسة، وكان أدبه غزير الإنتاج، ووجود ديوانه الشعري عندي صيره في طليعة الشعراء الذين أستشهد بشعرهم في مؤلفاتي عن الأدب السعودي.

لقد توجني ابنه اللواء أحمد سليمان المطلق بشرف كتابة المقدمة للطبعة الثانية لديوان أبيه، الذي يحمل عنوان (قبضة من أثر جميل).

ولاشك أن ذلك العنوان يوحي بدلالات متعددة، فالشاعر يلتقي مع جميل بثينة الشاعر العربي القديم في جانب من جوانب حياته؛ فجميل بن معمر صاحب بثينة عاش في وادي القرى قريباً من العلا، وتنقل من العلا غرباً إلى تيماء شرقاً إلى حسمى وتبوك شمالاً، ثم هاجر إلى مصر، وله قصيدة يصف فيها تلك الرحلة ويذكر تلك الأماكن التي مرّ بها من العلا إلى تبوك إلى مصر ومازالت تلك الأسماء قائمة رغم مرور هذا الزمن البعيد، وقد شاء الله أن يقتفي شاعرنا سليمان المطلق أثر جميل، ويجيها ذات التجربة، فاستوطن تبوك، وتنقل عبر القارات، استمع إليه وهو يقول:

وروايات دهر شرحهن يطول
وأخر تحمدين الليالي وهن طول
كأن من الليل باق حولهن فلول

بثينة والهوى العذري وجميل
ومنازل قوم دارسا رسومها
ومن شامخات الذرى حمر وغطش

يشير إلى الجبال السوداء من الحرات حرة الإبل والرياض، ويشير إلى مكونات البادية من الرعاة فتيانا وفتيات:

وعشار بيض ويمسح شبعاً
وكتاعب قد كان ينظرن خلصة
وعتاق من الدهم جدهن أصيل
ويقلن في نجوى بثينة وجميل⁽¹⁾

إن الشطر الأخير ملمح رمزي أنيق لسيرة جميل وبثينة، وما زالت متوارثة في المنطقة، وثمة ملمح آخر ربما يتوارى في شعر الشاعر سليمان المطلق، وهو تأثره بهؤلاء الشعراء العذريين، الذين تعذبوا بالحرمان العاطفي، فجادت قرائحهم بقصائد رائعة في الشعر العذري، الذي يتسم بثوران المشاعر، مع عفة الألفاظ، والقارئ المتأمل في قصيد الديوان، يدرك كم كانت شاعرية سليمان رقيقة عذبة، وأن تجربته الشعرية يؤطرها هاجس الحب على نحو ما، وإن لم يصل ذلك الحب إلى الحرمان والبؤس. إن تجربته الشعرية فيض من الأحاسيس الرقيقة العذبة.

أين حبك ينبوع العطاء
كيف لا أتذكر أيام التلاقي
كيف كنا في ليالينا طيوف
أنت شوقي وفتوني وشجوني
أنت أيامي وأحلامي وفكري
أين أيامنا نعمنا باللقاء
كان حبا فيه عز الكبرياء
تنهل النور بكأس من سناء
أنت أفراحي وعيدي وهنائي
أنت أجوائي وأصداء دعائي⁽²⁾

(1) ديوان قبضة من أثر جميل - ص 61.

(2) ديوان قبضة من أثر جميل - ص 217.

ويقول أيضاً:

أنا ابن بثينة وجميل
ومنهم حب خالاتي⁽¹⁾

ويقول في مضامين أخرى عذرية للحب:

لا تقولوا فتى قد ضاع من كمد
رضعته في لباني فهو يشملي
فما أنا بالذي عنه بمنصرف
وما أنا بالذي يصغي لمن عتبا⁽²⁾
لقد رضيت به إن كان له سببا
عظما ولحما ومنه العرق والعصبا

وديوانه يسجل مسيرة حياته الفكرية والعاطفية لكنه لا يكشف عن مسيرة حياته العلمية أو المهنية؛ ربما كان مردّد ذلك كونه من رجال الأمن، والأعمال الأمنية تحفها السرية كثيراً حفاظاً على أسرار الناس. أما رحلاته فهو كثير الحديث عنها في شعره، كرحلته لبانكوك في شرق آسيا، ورحلته إلى أوروبا ورحلاته الداخلية داخل ربوع الوطن.

وسليمان المطلق شاعر فذ، وحسبه أنه رائد الشعر في المنطقة الشمالية الغربية، وهو شاعر الطبع لا التكلف، يبث شعره ارتجالاً، لا يكاد يقف عنده متأملاً أو منقحاً؛ كما يجري تعديلاً أو يدخل تحسيناً على قصائده كغيره من شعراء الصنعة، إنما شعره بوح التجربة الانفعالية، وعفو الخاطر دونما تكلف أو تصنع.

وتتلون تركيبة الشعر المضمونية عند الشاعر بأطياف الموروث الحضاري للجزيرة، وتتشح بوشاح المكان التراثي، وتمتزج بالتكوين الاجتماعي الريفي بشقيه الزراعي والأعرابي، فهو يقف عند النخيل متأملاً، ويصاحب الراعي بمزاميره في الفيافي وفي بطون

(1) المرجع السابق - ص 51.

(2) المرجع السابق - ص 77.

الأودية وعلى سفوح الجبال، وشعره يكشف عن واقعه المعاصر، ويصف عالمنا المعاش بمكوناته العمرانية والحضارية، وطائراته، وملاعبه، وغيرها من ألوان الحياة المتنوعة. إن شعره شعر اللحظة الزمنية المرتبطة بوحى المكان والحدث المصاحب. وشعره تصوير للنفثة الشعورية، والخاطرة المندفعة، في قوالب شعرية من الألفاظ الفصيحة القرية المتناول، والمعاني شديدة العذوبة والرقّة، والخطاب الشعري الذي لا غموض فيه ولا رمز، والتراكيب الواضحة التي ترصد الواقع والشعور في صراحة دونما تعقيد أو إبهام، ولهذا فشعره ينهج منهج الأدب الواقعي.

والشاعر اللواء سليمان المطلق يتلاحم مع كوكبة من الشعراء العسكريين الذين ظهرُوا في شعرنا السعودي الحديث، ومنهم: اللواء علي زين العابدين والشاعر اللواء علي الغامدي، والشاعر اللواء فهد النفجان، والشاعر اللواء عبد القادر كمال. والقارئ لشعرهم جميعاً يدرك أن إبداعهم يمثل ظاهرة شعرية لها مكوناتها الخاصة، ولها تشكيلها الفني، وهي ظاهرة جديرة بالدراسة.

الدكتورة مريم البغدادي ورحلة المعاناة (مجلة الأربعاء 1428/07/18هـ)

"إن عقيدتها في الغرام تستحضر في ذاكرتنا تلك
الحركة الأدبية الشعرية التي ظهرت في أوروبا إبان
القرنين الثاني والثالث عشر على أيدي مجموعة من
الشعراء سموا بشعراء التروبادور..."

رحلة متواصلة مع الفكر والأدب والكلمة الدالة، القوية الإيحاء، تنقلت خلالها
الأدبية الشاعرة الدكتورة مريم البغدادي إبان مرحلة الطفرة البترولية العالمية التي حظيت
بلادنا منها بالخط الأوفر، كانت نموذجاً من أولئك الفتيات النابغات اللاتي استماهن مشوار
الدراسة والابتعاث، وشغفن بمواصلة التعليم العالي، وثابرن مكافحات غير ملولات، حتى
صرن أعلاماً ونجمات مشرقاً.

نشرت لها مؤلفات عدة من أهمها (المدخل في دراسة الأدب) و(مقالات في الأدب
العربي القديم)، وديوان (عواطف إنسانية)، بالإضافة إلى مجموعة بحوث أدبية، ودواوين
شعر مخطوطة.

ورحلة الشاعرة مع الإبداع في تلك المرحلة رحلة ذاتية وجدانية، كانت فيها نموذجاً
للمرأة التي تحلت بالقوة والإصرار، حتى تمكنت من أن تشق طريقها نحو مستقبل زاهر.
ورغم كونها تمثل طرازاً للمرأة العربية التي تتسم بالشخصية المثابرة القوية، التي فرضت
نفسها على الساحة الأدبية في زمان كانت فيه تقاليد القبيلة الذكورية ترى في مجرد تذييل
مقالة أدبية، أو قصيدة شعرية باسم امرأة نوعاً من التمرد والخروج عن الذوق والعرف، إلا
أنها لم تنس يوماً كونها امرأة تشعر بما يشعر به بنات جيلها، فالشاعرة تحتلج المشاعر العفيفة
في وجدانها وتتصارع، شأن غيرها من النساء. تقول في قصيدة "لن أخون":

وتركت قلبي في النوى عطشانا
وصرمت جبلي فاشتفى أعدانا⁽¹⁾

أنبتت أنك قد وصلت سوانا
وأطعت غيري في الهوى وهجرتي

إنه عتاب المحب المجروح قلبه، حين يتوجه بالخطاب إلى المجافي الود، المهاجر الذي أغرته الملامح الجديدة، ودفعته روح الطفرة المادية لتلوين حياته بحسب نزعاته الوجدانية المتحركة، ثم هي تواصل عتابها الحزين بقلب مكلوم، ونفس كسيرة:

جرحا عميقا زادني أحزانا
فينا تُعْرَضُ ذِلَّةٌ وهوانا⁽²⁾

وحملت أقسى ما يُحَمَلُه الفتى
واشدد حزني حين رحلت لغيرنا

إنها القراءة الواقعية للتفاعلات الوجدانية حين تعتلج النفس وتثور، موزعة بين حرارة الود القديم، وعهوده، وتنكر الخل الحبيب وجفائه.

هل في وفائي ما يعيب هوانا
وتشتتي بالحب، كم أبكانا
شوقٍ تفجر في الحشا بركاننا⁽³⁾

هل يا رفيقي خنت عهدك في الهوى
ويلي ويا ويحي لقلّة راحتي
كيف السبيل لقتل شوقٍ قاتل

إن استفهامها الحائر ليبين عن عمق المشكلة، وحجم المعاناة، وكلماتها (ويلي، ويحي، تشتتي) الحبلى بالأسى والأسف تكشف عن تلك المفارقة العجيبة، إذ يقابل الحب بالنكران، والإحسان بالإساءة والهيام الصادق بالصد والهجران.!

(1) ديوان عواطف إنسانية - ص 13

(2) ديوان عواطف إنسانية - ص 13

(3) المرجع السابق - ص 13

أنا لن أخون ولن تهون مودتي لكن سئمت الصد والهجرانا
إنني وربّي حين أطلب ردّه كالطفل حين يغادر الأحضان⁽¹⁾

وألفاظ القصيدة غاية في العذوبة، وموضوعها يدور حول فضيلة العفة والعفاف وصيانة الأعراض، والالتزام بالتوجيه الرباني، والشاعرة توظف (لن) التي تفيد استمرار النفي في المستقبل في التعبير عن صدق ودّها، وبقاء حبها، ونشدان القلب لمواصلة ذلك الود رغم التناهي، وهجران الحبيب.

إن في شعرها جنوحاً إلى الحب العذري، الذي يكتوي صاحبه بنيران الغرام، ويتلظى فؤاده العاشق بجريق الحنين والهيام، ولا ينفك يحلم بالوصال وباللقاء، بيد أن الحلم لا يعدو إلا سراياً وأوهاماً، والقلب يهوى في جحيم الحرمان والأسقام. لاشك أن الشاعرة المبدعة تتلاقى مع شعراء العربية العذريين في تجربتها الشعرية المتشحة بالحزن، والممتزجة بالحرقة والألم، الطامحة إلى نشدان وصال متعذر، الوفية لحب مستحيل، المتسرلة بفكرة المحنة الدائمة، والمعاناة المستمرة التي تشابك خيوطها مع ذات الفكرة عند شعراء التروبادور من الأسبانيين والفرنسيين أولئك الذين يستلذون بحرمان الحب، ولا يتمنون الوصل مع المحبوب حتى لا تنعدم جذوة الحنين والحرمان والمعاناة. تقول في قصيدتها "براني الوجد":

سألت عليك يا أملّي وكان الشوق كالذهب
يُحَرِّقُ جِلَّ أركباني ولا أشكو من النصب
براني الوجد أرقبني وصنت وذاك من أدبي
سأبقى الوامق المشغوف مسجوناً مدى الحقب⁽²⁾

(1) المرجع السابق - ص 13

(2) ديوان عواطف إنسانية - ص 15

وتكبر المعاناة في التجربة الشعرية، وتشتعل بوهج الحرقه والألم، ولكن الأيام كعادتها تمضي غير عابئة بانتشاء سعيد أو انكسار حزين، وما تلبث روح الشاعرة المحبة أن يستبد بها الملل، ويجتاحها السأم من ذلك الحرمان الدائم وتلك الحالة الشجية المتواصلة من الحزن والأسف، والمتولدة عن استمرارية الصدد، وبقاء المجافة، ولعل ذلك الملل مردّه تعاقب الأيام الذي يسفر عن تغير في الفكر، وتقلب في المشارب، ولا ريب أن التحام الشاعرة بالعلم والمعرفة ودراستها الأكاديمية ربما كان عاملاً من العوامل التي ولدت ذلك الشعور المفاجئ بالملل. تقول في قصيدتها أنت أقصى غايتي:

يا منيتي قد ضقت ذرعاً بالفراق وبالنوى
إنني سئمت من الصدود ومن تباريح الهوى⁽¹⁾

وهي توظف المعجم الوجداني كثيراً في شعرها؛ فالروح والحب والشوق ونار الوجد، وذوبان القلب، والحنين، والجوى، كلها نغثات الوجدان، وثوران المشاعر

يا روح روحي ذاب قلبي من حنيني واكتوى
والشوق ذرّ بأضلعي نار المودة والجوى⁽²⁾

يا من أراك بعالمي ولا أرى أحداً سواك
إنني وهبتك مهجتي إن شئتَ أجعلها فداك
هذي عيوني ضاحكات لو ترى والقلب باك
منذ النوى أخفى الجراح وتشتفي وقتاً تراك⁽³⁾

(1) المرجع السابق - ص17

(2) المرجع السابق - ص17

(3) المرجع السابق - ص17

وهي تستمد من المدرسة الوجدانية (مدرسة أبوللو) التائق الشعري، واستمداد الصور الوجدانية وتوظيف الألفاظ التي تعبر عن مكنون المشاعر الداخلية أصدق تعبير كالنور، وعيوني، وخاطري، والنبع، والرقعة، والجمال الساحر، والملاك الطاهر.

يا من يعذب في فؤادي ثم يُشغل خاطري
كالنور يعث في عيوني في جمال ساحر
يا حسنه في كل شيء كالملاك الطاهر⁽¹⁾

وهي تتنازل عن كبرياء الذات التي غالباً ما تقوض أركان الحياة الزوجية، فترسل النداء شجياً حزيناً ملوناً بالآهات تبعث به إلى حبيبها لعله يعود:

عد لي ملاكي كي تجرب صحبتي ومودتي
كيما ترى كيف العذاب وكيف كانت حالتي
إنني سقمت من الهوى بل حان وقت نهايتي
ما كان غيرك لي هوى بل أنت أقصى غاييتي⁽²⁾

ويحتل الوجدان الذاتي مساحة كبيرة من ديوانها (عواطف إنسانية) وهي تدافع عن حبها دفاعاً قوياً، لكن بأسلوب لغوي برهاني، وبمضامين توحى بأن الحب لا يحتاج إلى براهين تدعمه، ولا إلى حجاج تفسره، إنما هو سر الخالق يودعه في قلب المخلوق على نحو مفاجئ، ودوناً مقدمات أو تبريرات...!، تقول في قصيدتها "حديث العفة":

قالوا: سُحرت به فقلت: لجه أنطوع
قالوا: جفاك فقلت: إنني في النوى لا أجزع

(1) ديوان عواطف إنسانية - ص 18

(2) المرجع السابق - ص 18

قالوا: سقمت فقلت: راضٍ والمحبة تُوجع
إن الملامة في الهوى يا لائمي لا تنفع⁽¹⁾

إن القضية عندها أنها تحب، وأن ذلك الحب سر غامض يجتاح الفؤاد، وينزل منه منزلاً لا يكاد المرء العاشق معه أن يسأل: لم؟ وكيف؟، وما يزال الحب يسري في الشعور، ويتغلغل في حشايا القلب، حتى يبلغ العاشق في حبه مبلغاً لا يكاد يرى معه عيوب حبيبه، أو نقائص أليفه، بل ويقنع منه بالنذر القليل من الوصال، ويلتمس له المعاذير. وإلى ذلك المعنى سبقها جميل بثينة حين قال:

وإني لا أرضى من بثينة بالذي لو رآه الواشي لقرت بلابله
ورغم معاناتها مع العشق، وما تجد من وجدٍ وحرمان فإنها مع ذلك ترى أن الحب
نعمة من الخالق، وأن الصباية شعور طاهر عفيف لا يداخله إثم، ولا تعيبه خطيئة، وقد
صرحت بذلك في قصيدتها "الهوى نعمة":

يقول بأن الهوى نعمة ومن كان صبّاً فلا يائمه⁽²⁾

إن عقيدتها في الغرام تستحضر في ذاكرتنا تلك الحركة الأدبية الشعرية التي ظهرت في أوروبا إبان القرنين الثاني والثالث عشر على أيدي مجموعة من الشعراء سُموا بشعراء التروبادور.

والتروبادور مجموعة كبيرة من الشعراء الموسيقيين الذين اشتهروا في جنوبي فرنسا في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. وأصل الكلمة لاتيني تروبير أي يؤلف، لكن كثيراً من الدارسين يعتقدون أن الكلمة تعود إلى أصل عربي هو طرب، وأن شعراء التروبادور

(1) المرجع السابق - ص 19

(2) عواطف إنسانية - ص 22

كانوا يصدرون في أشعارهم عن محاكاة وتقليد لشعراء العرب في الأندلس (أسبانيا الآن)، وقد نظموا في مختلف فنون الشعر، غير أن الموضوع الذي استهواهم جميعاً هو الحب، فطفقوا ينشدون الشعر في المرأة، واتخذوها رمزاً للفضيلة، وجعلوا يتغنون بحاسنها.

والشاعرة كما نلاحظ في أبياتها السابقة تعتمد منهجاً شعرياً رائعاً في إثبات عقيدتها في الحب، ذلك المنهج الذي يعتمد على المحاورة، والجدال الذي يستدعي سؤالاً وجواباً، وهو طرح شعري راقٍ، يفضي في النهاية إلى إثبات منطقتها، ويكشف عن وجهة قضيتها. إنه طرح هو الآخر يذكرنا بأسلوب الزمخشري البلاغي في كشافه المفسر للقرآن.

لقد سجل موروثنا الشعري القديم معاناة الرجل الوجدانية، ورصد خواطره الشعورية، وقضايا حبه، وصور في القصيد ما كان يكابده من تباريح الهوى، وآلام الغرام، كما أصل لمعاناة الرجل عموماً مع الحياة، لكنه خلا من الحديث عن معاناة المرأة خصوصاً، وأعرض عن وصف ما يعتلج ذاتها من مشاعر وأحاسيس، كأنما يصمّ أذنه عامداً متعمداً، اللهم إلا إشارات طفيفة، تناثرت في كتب التراث عن شاعرات عربيات قليلات...!

لقد كانت المرأة العربية حبيسة أعراف القبيلة وتقاليدها، ضحية الفكر الذكوري الذي ظل ردحاً من الزمن مستلباً حقها في التعبير، ناظراً إليها نظرة دونية.

حتى هبت رياح التغيير في عصرنا الحديث تجتاح الحياة، وتبشر بأن وراء الأفق تلوح رحمة الإله حاملة الخير الكثير للمرأة، فإذا الكيان الأثوي الذي كان موصوماً بالدونية، مغلقاً دونه الأبواب والأقفال، ينطلق في الحياة على بصيرة وهدى، تعانق روحه الحياة، فيستنشق نسيمات التعليم، ويشم عبير المعرفة يمضي في الحياة حاملاً قسمته من المسؤولية، إلى جوار الرجل جنباً إلى جنب، وسواءً بسواء.

وفي أرض الجزيرة لم تكن المرأة بمعزل عن تلك التغيرات الكاسحة، لقد انعكس ذلك عليها أيضاً، ولامس على نحو جذري واقع حياتها، فطفقت تباشر حياتها على نحو جديد، تشارك الرجل في قضايا الحياة المصرية، تنهل مثله من معين العلم والمعرفة، تقاسمه صنع القرار، وتعيّنه على مكدرات العيش صابرة، مكافحة، قوية وصامدة.

وعلى صعيد الساحة الأدبية صار القلم الأنثوي يكشف عن نفسه، وغدا الأدب النسوي يقف على أرضية صلبة من الجودة والإتقان. وشرع الشعر النسوي يصور أدق خلجات النفس الأنثوية بما تحمل من رغبة ورهبة، وحب وكراهية، ورضا وغضب، وأمانٍ تداعب الروح، ومعاناة تكتوي بها النفس.

ومن الرائدات في هذا المضمار سلطنة السديري والدكتورة مريم الغامدي. غير أن القارئ لديوانيهما يجد عند الأولى قبسات تنشرها على استحياء في ضباية لا تخلو من حذر، وعند الثانية – شاعرنا مريم البغدادي – يلمس انطلاقة وجرأة في سبرها لأغوار نفسيتها، وتصويرها البليغ الدقيق لخلجات هذه النفسية الشاعرة التي تتلاطم على شطآنها أمواج الحب العذري، وتحدث في أعماقها صراعات الأمانى والأحلام حول فارس الأحلام، التي ترتابها الهواجس والظنون حوله، إذ هي مندفة في شعورها نحوه فيما هو ذلك الرجل المجاني المهاجر، هي تريد الاستحواذ، فيما هو يتأبى ويستعصي:

وأوصله في الهوى مخلصاً	ويجفون ويهجر بل يصرم
وحين أكلمه في الهوى	يشير إلى كما الأعجم
بكل الوسائل أفهمته	وعلمته وهو لا يفهم ⁽¹⁾

إن النفس العاشقة ليؤرقها ذلك الهجران، ويضنيها ذلك الصد، إذ إن الحب لا يرويه إلا الحب، والعشق لا يزدهر ويينع إلا إذا تهيأت له تربة الوصال، ونسمات الحنان، وأنوار المودة المتبادلة، وريّ الرحمة المتواصلة، فإذا أقفرت التربة، وشح الحنان، وانطفأت المودة، وعزت الرحمة، ذبلت أوراق الحب، وخبا بريق العشق، وضافت النفس العاشقة ذرعاً. ففي قصيدتها "رحيل" أنشأت تقول:

(1) عواطف إنسانية – ص 22

فأزهدكم بعدكم صبري
فأزهدكم بعدكم صبري
وبُدِّد في النوى جلدي
وشوق زاد في كميدي⁽¹⁾

وفي لحظات الإحساس المرير بذلك التجاهل، والتأبي، تتخذ النفس العاشقة قراراً بالانفصال، والكف عن ذلك الحب الذي لا يجلب لها إلا الألم، والعذاب، غير أنها سرعان ما تعود بدافع ذلك الحب الكبير الذي تولد في نفسها واستقر، حتى لا فكاك منه، أنها تصور ذلك المعنى في خطرات شعورية مثل الموجات الهادئة أحياناً، والهادرة أحياناً أخرى، وقد أنشدت تقول في قصيدتها "الحب اللعوب":

كلمما شئت انفصالا
كلمما شئت انفصالا
هزني شوقي وقالا
مُتَّ حياً وانشغالا

وتأتي الثورة النسائية الكبرى حين يتناهى إلى أسماع المرأة العاشقة خبر زواج الحبيب بامرأة سواها. إنه الزلزال الذي يعصف بكيانها، واللطمة التي تبطش بكرامتها. تقول في قصيدتها "بعتي من أجلها":

قد بعني يا سيدي قد بعني
وأهنتني من أجلها ونسيتني⁽²⁾

وتواصل الشتائم لهذه الضيفة الجديدة:

من أجل ماكرة كذوب لمتي
من أجل سيئة الفعّال وصمتي⁽³⁾

(1) المرجع السابق - ص 26

(2) عواطف إنسانية - ص 27

(3) المرجع السابق - ص 49

إنها مرحلة الحرب الكلامية التي تولد قرار الانفصال والتحول إلى مرحلة جديدة مثقلة بهموم الحياة، وتبعات ذلك الانفصام، وآثار ذلك الطلاق، إنها حلقة جديدة من المعاناة ولكن هذه المرة بطعم آخر، لقد أضحت المحبة العاشقة وحيدة تكابد مشاق الحياة، ونظرة المجتمع المتخلفة للمرأة المطلقة. وفي قصيدتها "التلاعب بالحقوق" أنشأت تقول:

وحرقت الأمانى في فؤادي	وشطت ثم قررت اغتيالي
حبتني نار ياس في عيوني	وأعمتني ولم ترأف بحالي
ظلام دامس حولي ترامي	فلم أسعد بشمس أو هلالى ⁽¹⁾

هذه معاناة المرأة الوحيدة المطلقة، فكيف بها وقد حملت أثقالاً على أثقالها، أشد وطأة على النفس من طلاقها، لقد أضحت كياناً متهاكاً يسكنه العذاب، بعد أن أسفر الطلاق عن ابتعادها عن أولادها قهراً، إن داعي الأمومة في المرأة يجعل هجران الأولاد أشد نكايه، وأشد عذاباً وألماً. أخرى أشد مضضاً كانفصال الأولاد، وهجرهم، فهي معاناة الأمومة وهجران الأولاد، تلك نتائج الخلافات لزوجية، وقد رسمت لوحاتها المظلمة الشاعرة مريم بكل إبداع واقتدار.

وفي قصيدة لها أخرى تتناول فيها مشاعر المرأة الأم تجاه طفلها، وهي مشاعر حب فياض تصدر فيها الأم عن فطرة، وبدافع غريزي، إنها الأمومة في أنبل صورها، لا تألو جهداً في إسعاد وليدها، تخمره بالمحبة الخالصة التي لا تنتظر مقابلاً، وترى فيه أجمل الكائنات. وفي قصيدتها "قلب أم" تقول:

أنا أدري أنك عادي	لا حسن يزيد عن الوصف
لكنك في عيني بدر	وملاك يسحر لي طرفي

(1) المرجع السابق - ص 101

ربما يعجب من هذا بعضٌ يتهامس من خلفي⁽¹⁾

وربما لاحت على الشفاه منا حينئذٍ شبح ابتسامة، فذلك المعنى الشعري النبيل سرعان ما يسوق إلى خاطر مثلاً عربياً شهيراً من التراث الشعبي يقول: القرد في عين أمه غزال..! ولكن الأم في قصيدة الشاعرة تعلق ذلك الحب، بكونها أم، وذلك يكفي..!

يتعجب من وصفي طفلاً
لكني أم يا هذا
بالحسن فقيرا للحسن
وفؤادي يدرك ما أعني⁽²⁾

وهل يمكن للحب الأمومي أن يُبرر، أو أن يعلل؟!، إنه غريزة في النفس لا تحتاج إلى برهنة أو سفسطة كيما تُؤل، أو تُفسر.

والحب ضرير وأصم
فإذا أبصرت محاسنه
ينساق لقلبي لا عقلي
لا ذنب بأن أعشق طفلي
ولذلك كُفّ عن العذل⁽³⁾
هو كل حياتي، أحلامي

لقد وظفت الشاعرة عاطفة الأمومة توظيفاً تجريدياً، لتعلو فوق وظيفة الحواس، لأنها عاطفة غريزية تستحوذ على كيان الأم تجاه وليدها الذي يمثل لها الحلم والأمل، بل الترجمان الحقيقي الفعلي لوجودها في الحياة.

(1) عواطف إنسانية - ص 89

(2) المرجع السابق - ص 8

(3) المرجع السابق - ص 89

والأطفال منحة الخالق للأبوين، وأعظم هدية للوالدين، لا تستقيم الحياة للأسرة إلا بهما، ولا تتحقق السعادة إلا بوجودهما. انظر إلى الشاعرة وهي تناجي ولدها عدنان قائلة في قصيدتها "ولدي عدنان":

عدنان أنت هدية الأقدار	كالنسمة الزهراء للأزهار
نظرات عينك يا حبيبي سحرها	في القلب يملكني فكيف أداري
بدلت حزني يا حبيب هناءة	أسعدتني بل صرت ضوء نهاري
تمشي بييتي بهجة مزدانة	بالحب بالترحيب بالأشعار ⁽¹⁾

وحين يقوض الطلاق أركان البيت، ويغدو الأبوان منفصلين، كل يمضي في طريق وحده، تتشكل أبعاد الأزمة ومكمن المأساة في ذلك الافتراق القاسي بين الأم وأبنائها. إنه الفقد الحقيقي، الذي لا عوض عنه، ولا بديل. إنه مأساة المرأة الحقيقية في مجتمعاتنا العربية، الذي يشكل جرحاً غائراً في وجدانها لا يكاد يندمل على مر السنون. تأمل هذه الأبيات الحزينات التي تصف فراق الأم لولدها، إنها صرخات قلب ملتاع، وعبرات وجدان كسير:

لن يأخذوك ولن أسلم مهجتي	مهما سيغروني بكل نضار
أنت النضار وأنت كنز خالد	أنت الجمال وخاطف الأبصار
طفلي حبيبي يا ملاكا طاهرا	عدنان عد حتى يقر قراري
الكل حولي عندهم أولادهم	إلا أنا لم أقضها أوطاري ⁽²⁾

إنها سنة الشارع الحكيم، أن يلتحق الولد بكفالة أبيه، ولكنها غريزة الأمومة حين يشتد زئيرها في الوجدان، تقول في قصيدتها "عودة ابني":

(1) عواطف إنسانية - ص 89

(2) المرجع السابق - ص 88

قلبي وروحي مُت من أحزاني
يدمي فؤادي والنوى أضناني
قد طار مني تاركا أوطاني
ويقول أبغي رؤية العدنان⁽¹⁾ (3)

أخذوك مني يا بُنيّ فأحرقوا
والدمع يحرق لي خدودي والأسى
فكأن قلبي يوم رحلت لدارهم
يهفو إليك بعبرة وتنهد

لقد احتشدت الألفاظ العربية الدالة على المعاناة والألم والانكسار الوجداني في ثنايا قصيدها وأبياتها، وجنحت الشاعرة في إبداعها الشعري إلى توظيف الصور البلاغية الدالة على الحزن والمكابدة لإبراز عاطفة الأمومة المتلذذة المكثومة بفراق أولادها على إثر طلاق الأبوين.

غير أن التجربة الشعرية عموماً لا تختزل في ذاتية الشاعر وهمومه الخاصة بل إنها لوحات فنان مبدع، يعكس فيها همومه وهموم غيره، ومعاناته ومعاناة غيره، وإبداع الشاعرة من ذلك النوع الذي يوصف بالأدب الإنساني، الذي يعرض للقضايا الإنسانية، لاسيما قضية الخلافات الزوجية، وما ينجم عنها من طلاق، وانفصام. وما قد يسفر عنها من تبعات وخيمة على صعيد الأبوين، وعلى صعيد الأبناء.

من هنا جاءت قصائد الشاعرة كنفثات قلب امرأة تعاني الوحدة والفقد، وتهفو إلى حياة قوامها المودة والسكن مع زوج محب، ومع أبناء يشيعون البهجة في حياتها. ومن إبداعات الدكتورة مريم البغدادي قصيدة، رسمت لنا فيها إحدى القضايا الاجتماعية الشائكة التي تعاني منها الأسرة العربية، وهي قضية الخدم.

إن القضية في جوهرها قديمة، بل إن الجاحظ رحمه الله أفرد فصلاً كاملاً في كتاباته عن الجوّاري والخدم والرقيق، ولكنها في عصرنا الحديث تكاد تأخذ ملامح أكثر تعقيداً؛ فقد خرجت المرأة العربية إلى العمل، تخوض غمار الحياة مع الرجل، وتركت فراغاً في بيتها، يعاني منه الصغار، الأمر الذي دفع بالأسر العربية لاسيما القادرة الثرية إلى استقدام

(1) المرجع السابق - ص 90

خادمت من داخل وخارج الوطن العربي، ليكونَ بديلاً معاوناً ومؤقتاً للأمهات حال خروجهن من البيت للعمل. وهذا الأمر من الخطورة بمكان، لما يشكل من أثر على سلوك الأطفال، وطرق تربيتهم مع التسليم بحقيقة هامة، هي أن الخادمت المستقدمات من بلاد الخارج مجهولات ولسن كلهن يتمتعن بالثقة والأمانة.

تأمل معنا إحدى قصائد الدكتورة مريم البغدادي، التي تثير هذه القضية الشائكة، وتعرض فيها نموذجاً لخادمة من ذلك الصنف الذي لا يؤتمن، وهي القصيدة التي اختارت لها عنوان "خادم حقوق":

وخادمة لها طبع قبيح	وقلب أسود ساءت ضميراً
أكين لها الحنان بكل صدق	وتكتم حقدتها المر الحقيراً
وتبدي لؤمها المحموم دوماً	وتفتعل المشاكل والشوروراً ⁽¹⁾

وتحكي معاناة الأطفال من الخدم الحاقدين في قصيدة أخرى عنوانها "تريد الرقص":

وهم جنس لثيم فيه غدر	أرونا من تلاعبهم شؤوننا
وتوسع طفلي المسكين شداً	وقرصا نازعاً منه السكونا
ويبكي ثم يأتيني يريني	علامات تُعري لي الكيننا ⁽²⁾

إنها قضية الخادمت من خارج الحدود، وهن يطروننا كل يوم بقضية إنسانية تثير الزوابع، وتلقي بذرة الفتنة في البيوت العربية، إنها قضية تحتاج في رأيي إلى إعادة نظر، وتستحق ردة فعل قوية.

(1) عواطف إنسانية - ص 125

(2) المرجع السابق - ص 140

الصدق الشعوري في شعر سلطنة السديري

(1428/07/11هـ)

" ولاجرم أن محنة الاغتراب النفسي في الحياة هي
أول ما يطالعا في شعر السديري، وهي محنة تتولد
من جراء المفارقة العجيبة بين ما تطمح إليه نفسها
الشاعرة، وبين ما يحيط بها من وقائع صادمة في
الخارج...!"

من رائدات الشعر السعودي الشاعرة الأدبية الرائدة المبدعة سلطنة عبد العزيز
السديري، فقد انبجس إبداعها الشعري مبكراً وهي بعد في سن الثالثة عشرة من عمرها في
قصيدة شعرية رائعة بعنوان "سويغات الأصيل"، ولها محاولات شعرية أخرى مبدعة، كما
مارست الكتابة الصحفية عام 1960م وكانت تنشر كتاباتها بأسماء مستعارة، ففي جريدة
المدينة كانت تذيّل كتاباتها باسم (الخنساء)، وفي جريدة عكاظ عام 1966م كانت تبعث
بكتاباتها باسم (عهدود).

والتأمل في إبداعها المنشور يدرك أنه أمام شاعرة مثقفة، استوعبت التنظير النقدي،
ونهلّت من الإبداع المعاصر، ورسخت مواهبها استناداً على التراث.
كما أن التأمل في شعرها يلمس بوضوح استيعابها الرائع للماضي والحاضر
واستشرافها المستقبل، وإبداعها في الشعر العمودي إلى جانب شعر التفعيلة وهي أيضاً
أبدعت في الشعر الشعبي. وبين يدي ديوانان لها أحدهما بالفصحى "على مشارف القلب"
والآخر بالشعبي "الحصان والحواجز".

وكنّت قرأت لها لمحات عن حياتها في المجلة العربية فقد استقطبها الأستاذ الصديق
حمد القاضي، كما استقطب الشيخان حمد الجاسر وابن عقيل، وهي من أوائل السعوديات

اللاتي صيرت قصرها "متدى أديباً ثقافياً". وأغلب الظن عندي أن في جعبتها سهاماً كثيرة لم تطلقها، وأن بأدراجها قصائد حبيسة لم تنشر بعد عساها يوماً تنشر قصائدها القديمة والحديثة فإن تجربتها طويلة وعميقة وحافلة بالإثارة الشعرية.

والشاعرة ابنة أمير منطقة القريات عبد العزيز أحمد السديري، وهو من رجال الملك عبد العزيز رحمهما الله. وأسرتها من الأسر المشهورة في المملكة العربية السعودية، وكثير من أفرادها تسلم إمارات عدة في أنحاء المملكة، كما نبغ في الشعر منهم كثيرون، فولدها الأمير عبد العزيز كان شاعراً مُجيداً، وعمها عبد الرحمن السديري كان شعره راقياً في فكره وذوقه. والشاعرة السديري أول امرأة سعودية تطبع ديواناً شعرياً في المملكة العربية السعودية، فقد نشرت ديوانها "عبير الصحراء" عام (1376هـ / 1956م) وديوانها الثاني "عيناى فداك" (1380هـ / 1960م) وديوانها الثالث "سحابة بلا مطر"، والرابع ديوان "قهر" والخامس "على مشارف القلب" عام 1995م والسادس "الحصان والحواجز" ولها مجموعات قصصية "صورة من المجتمع".

ونشأتها في شمال المملكة لاشك لها تأثير عميق عليها وعلى إبداعها الشعري، فتلك الصحاري الممتدة في أنحاء الشمال موحية، وأجواؤها ملهمة بالتجارب الشعرية والشعرية معاً، وعن هذه الفترة البعيدة من عمرها المزهرة تتحدث قائلة: "منذ بدأت أول مراحل الدراسة تعلقت بالحرف بشكل كبير، قرأت كثيراً، فقد كان لدى والدي يرحمه الله مكتبة كبيرة، وكانت شقيقتي تحضر لي الكتب من أي مكان تذهب إليه. قرأت للمنفلوطي، وإيليا أبي ماضي، وجورجي زيدان، وقرأت الشوقيات، وكنت حينذاك لا أفهم شعر المتنبي، ولكن بعد أن كبرت أحببت شعره كثيراً. قرأت كتاب الأغاني وأنا في مطلع الصبا، تلك القراءات كلها كانت قبل أن أبدأ الكتابة، وقد شكلت مخزوناً ثقافياً. بدأت كتابة أول قصيدة لي "سويغات الأصيل" وأنا في الثالثة عشرة من العمر".

لقد ظهرت بوادر الشخصية الشاعرة عند السديري مبكراً، ولاح نبوغها من أول قصيدة لها، فقد طالعت الشعر العربي صغيرة، وعاصرت الحداثة في الساحة الأدبية، وكانت على كثر من عمها الشاعر محمد السديري، معجبةً بمحاوراته مع كبار الشعراء وقتئذٍ.

والحق إن شعرها لوحات تشكيلية رائعة لصور واقعية من حياة الشاعرة، وكلماتها الشعرية نفثات شعور حائر، يتجاذبه الألم والوحشة والغربة، وأبياتها الشعرية عالمها الخاص الذي تتوحد فيه مع نفسها ومعاناتها. تقول في قصيدتها "الحكاية الخرساء":

لا تبتس يا قلب.. وارض مُصابك
فرياء هذا الكون كان عذابك
سارت بك الأيام نحو هجيرها
وسرابها البراق كان شرابك
كانت لنا الأيام نبعاً نرتوي
من فيضه والحب يطرق بابك⁽¹⁾

فقد نحت الشاعرة منحى التركيب التقرييري المدعم بأدوات النهي، والنداء والإشارة، والضمائر المتصلة، ومع كونها جملاً خبرية وإنشائية فإنها تحمل مع ذلك صوراً حسية، وتجريدية، تثير في نفسياتنا عواصف وجدانية، وتستنفّر خيالنا لتجوب عالمها، وتعكس مأساة الشاعرة على صفحات ضمائرنا، فنشعر أن المأساة إنما هي مأساتنا، وأنا نعاني مما تعاني منه الشاعرة.

تقول في قصيدتها "آه يا حبي" معبرة عن مأساتها، مناجية ليلها بأشعارها:

أسقيت المرء بكفيك
لكني.. أشتاق.. إليك
وقصرتُ الأشواق عليك
لييك حبيبي.... لبيك⁽²⁾

(1) ديوان على مشارف القلب - ص 31

(2) على مشارف القلب - ص 17

أسمعني.. فأنا مجنونة
أشتاق غرامك.. وجنونه
وحديثاً عذباً.. وفنونه
فأنا... مجدثك مفتونة⁽¹⁾

بيد أن الآمال العريضة لا تفارق فؤاد الشاعرة، وهي تقرر أن قضيتها الأولى هي
الحب، وأنها مسيرة إليه لا خيرة، فهو ساكن منها الجوانح، باق رغم المعاناة

أسمعك بأعمق أعماقي
والدمع.. يبيلل أحداقي
لا قدرة لي.. حبك باقي
وليك أسير بأشواقي⁽²⁾

ورغم إبداعها الشعري الغزير إلا أن أجواء الضبابية والكآبة تخيم على قصائدها
الشعرية في مجملها، ومن ثم جنحت موسيقاها الشعرية إلى الشجن، وحلقت صورها
الشاعرية في فضاءات الأسى والحزن. استمع إليها وهي تنشد في قصيدتها "يوم عيدي" إذ
تقول:

كيف تلقي بي على درب الأسى والشوك وحدي
في شموخ وتحدي؟

(1) المرجع السابق - ص18

(2) المرجع السابق - ص19

كيف يرضيك طوال الليل سهدي؟
 كيف أذلت دموعي؟
 كيف يستهويك صدي؟
 أنا يا قلبي في صحراء تبدو كالسراب
 كل ما حولي تراب في تراب
 أفلا يكفيك مني اليوم.. وجد واغتراب؟
 وسطور من عذاب؟⁽¹⁾

إن أهم ما يتسم به شعر سلطنة السديري هو ذلك الصدق الشعوري، وتلك التجربة الشعرية المرهفة، وهي لا تجد عناءً في وصف خلجات نفسها الداخلية وشعرها إنما هو ردة فعلها حيال ما تمر به من أحداث، وما تتعامل معه من شخوص. وشعرها سجل صادق لمراحل حياتها المختلفة، ما بين أمنيات الصبا البريء، والحيرة إزاء الواقع الصادم لخيالها المثالي، والمعاناة من تفلت الوصل، وتفكك عراه، مروراً بلوحاتها الشعرية في وصف الأمومة وعوالمها الشعرية الأخرى. تقول عن الأحلام المبكرة في قصيدتها "تمنيت نجماً":

تمنيت نجماً.. يضيء زوايا فؤادي
 ووجهاً.. يدور عليه اعتيادي
 تمنيت لو كان لي من يحس أنيني
 وعزف فؤادي ونبض حنيني
 فأجعل زهري وساداً عليه يبيت

 تمنيت روحاً أليفاً، وقلباً نقياً
 فأعطيهِ قلبي...

(1) على مشارف القلب - ص 23

خمياً من الورد.. والفل.. والزنبق⁽¹⁾

إنها دائمة البحث عن معنى جميل، أو مدينة فاضلة، أو حبيب مخلص، وهي في ذلك تنحو منحى المذهب الرومانسي عند شعراء العربية الذين ينبذون الواقع، وينشدون عالماً أكثر براءة وصفاء، عالماً يستحيل فيه المحبوب إلى ملاك طاهر، وقلب حنون!.. ولكن مرارة الانتظار الطويل، وألم الشعور بالوحشة والفقد، يتبلوران في تجربتها الشعرية حين تقول في قصيدة "يا فيلسوفي":

فيلسوفي...

إن قلبي يعبر الآفاق في شوق إليك

يتمنى يتغنى خافقاً.. بين يديك

خوفاً عليك

انتظاري طال

طال الصبر

يا لهفي عليك⁽²⁾

إن مما يؤكد طغيان الكآبة والشجن على جل قصائدها ما أوردته في إهدائها بديوان (مشارف القلب) حيث تقول: "ستظل أبداً أيها البعيد البعيد، القريب الداني، على مشارف القلب مطلاً، نجماً يضيء وحدتي في الليالي الطويلة، ويشرق بالنور على أيامي، ستظل ذلك النصف المفقود الذي وجدته ولم أجده، تسرب من يدي ولم يتسرب من قلبي، فبقي في أعماق القلب حزن الرضا والسكينة، مبعث الإلهام، بصبغة ألوانه ألون أحرفي، ابتسم وأبكي، أفرح وأحزن، وأعتصم بذلك الحزن الرضي، الذي يدعني للاستمرار، وللعطاء الخير الجميل".

(1) المرجع السابق - ص13

(2) على مشارف القلب - ص26

فشعرها إذن سجل صادق لحياتها، يعبر عن أفراحها وأتراحها، وينحاز في مضامينه الشعرية للجانب النسوي الوجداني، غير أنه فيما أرى يمثل أيضاً وجدان الرجل، ذي الشعور المرهف، الذي تهفو نفسه إلى عالم مثالي هو الآخر. إن قضاياها الشعرية في جوهرها إنسانية المقاصد، يلتقي في النظرة إليها وجهها الحياة: الرجل والمرأة معاً.

ولا جرم أن محنة الاغتراب النفسي في الحياة هي أول ما يطالعنا في شعر السديري. وهي محنة تتولد من جراء المفارقة العجيبة بين ما تطمح إليه نفسها الشاعرة، وبين ما يحيط بها من وقائع صادمة في الخارج. على أن الغربة النفسية لدى الشاعر عموماً يتحكم فيها عاملان رئيسان: أحدهما ذلك الاستمراء الخفي المبهم للشعور بالألم والأسى، والاستسلام لا شعورياً للحزن، بل والتلذذ به أحياناً، وتلك سمة واضحة لدى شعراء المذهب الرومانسي، والآخر هو ذلك التفاوت البعيد بين ما يفترضه الشاعر في خيالاته المثالية وحواله الفاضلة وبين واقعه المناقض فكرياً، وسلوكياً.

وغربة شاعرتنا الأميرة سلطنة السديري تتولد من تأثرها بالمدرسة الرومانسية في الشعر، وتنبع من تجاربها الذاتية مع الحياة والناس، ومعاناتها في أجواء واقعية معاصرة. ينساب في شعرها نسيم الشوق، وآهات الوجد، وأنات الحنين، واستغاثات العواطف الساخنة الحارة، وتسري في القصيد شحنات عواطفها، وأحاسيسها الباحثة عن الحب الصادق الطاهر.

وتجربتها رغم مرارة الفراق، وألم الصبابة، وحرارة الاشتياق لا تحمل إلى الحب، ولا تظهر إلا الرضا، وتنأى بنفسها عن الضغائن والأحقاد ولا تنثر بذور الفتنة والتمرد، وتشجب الانتقام، وتتسم بالصفاء والنقاء، والطهارة. وقد عبرت عن تلك المعاني في قصيدتها "خسرتك يا صاحبي":

خسرتك يا صاحبي
وليس لدى القلب حيلة

فبعذك.. قد أصبحت بسمتي مستحيلة
وفرحة قلبي رُدَّتْ إلى ذليلة

لقد عشت عمري وحيداً.. غريب
فهبنا يا فؤادي نحو المغيب⁽¹⁾

(1) على مشارف القلب - ص 11

القصيدة الحديثة

"ولاشك أن دعاة الحداثة الشعرية الأوائل، الذين رفعوا راية التجديد وبشروا به، هم أنفسهم الذين استنهضوا همهم للدفاع بضراوة عن الشعر العربي ضد ما اعتراه من مظاهر تجديد أقرب ما تكون إلى الفوضى"

التجديد في الشعر وفي بناء القصيدة العربية عرف منذ الجاهلية، واستمر إلى عصرنا الحالي، وكان في كل مرة يدخل ذلك التجديد في سجل مع التيار المحافظ، الذي أحاط القوالب العربية المورثة للشعر بهالة من التقديس، غير أنه من الإنصاف أن نقول: إن التيار المحافظ فشل في كبح جماح الحداثة الشعرية، لأن تاريخ الشعر العربي نفسه يشهد محاولات عديدة للانفلات من قيود القصيدة التقليدية.

لقد بدأت إرهاصات تلك الحداثة في الشعر العربي في الظهور جلية واضحة إبان العصر العباسي الذي شهد تطوراً جذرياً في البيئة العربية، وأضحى الانفتاح الاجتماعي والثقافي أهم ما يتسم به ذلك العصر، وكان أبو نواس من رواد التجديد في الشعر العربي، وبرغم ما واجهه من اتهامات من نقاد عصره، إلا أن نزعة التجديد في الشعر سرعان ما لاقت هوى عند كثير من الشعراء غيره، كأبي تمام الشاعر العباسي الذي أدخل في شعره موضوعات لم تكن مألوفة من قبل.

غير أن الشاعر العربي بشار بن برد يعتبره كثير من النقاد رائد الحداثة الأول في القصيدة العربية، وقائد مدرسة التجديد.

هذا وقد شرعت القصيدة العربية تستقبل شرايينها وأوردتها دماء التجديد والحداثة حتى ظهرت الموشحات الأندلسية، وكانت مظهراً حدثياً في الشعر لم يسبق، إذ اعتمدت في نظمها أوزاناً خاصة.

وشاءت المقادير ألا تقف رياح التجديد في الشعر العربي عند هذا الحد، إنما سرت قوية وعاتية، تحمل نسماها الجديدة إلى عصرنا الحديث، وتطرق الأبواب في جرأة واكتساح. وما لبثت أن تلاقت مع ثلة من الشعراء المبدعين الذين كان يؤرقهم حلم التجديد في الشعر، والبحث عن قوالب شعرية جديدة تتناسب مع طبيعة عصرهم. من هنا برزت ملامح التجديد على يد مدرسة الإحياء والبعث بقيادة محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وأبي القاسم الشابي، ومع ظهور الرابطة القلمية في أمريكا الشمالية عام 1920م، والعصبة الأندلسية في أمريكا الجنوبية عام 1930م، كانت سفينة التجديد قد حلت قلاعها، واستكانت إلى مرفئها الآمن بعد طول السفر، وعناء الطريق..!

ثم ما لبثت أن ظهرت مدرسة المهجر، يقودها روادها الأوائل: جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي، وكان من آثارها شيوع الرومانسية والرمزية، وتمجيد الألم، والتوحد مع الطبيعة، وإلى ذلك يشير غازي بركس قائلاً: "وقد تجلت في نتاج شعراء المهجر بواكير الرومانسية والرمزية، فعرفت الذات، والعاطفة الجياشة، ومسحة الكآبة والتشاؤم، وتمجيد الألم والهرب من الناس، والاتحاد بالطبيعة".

وقد برع شعراء المهجر في كتابة القصص الشعرية، وجددوا في الألفاظ والموضوعات، ولم يلتزموا بوحدة البيت المفرد.

ولا ننسى مدرسة الديوان بريادة العقاد والمازني وعبد الرحمن شكري، التي أعلنت ثورتها هي الأخرى على القصيدة التقليدية، إذ نادى بضرورة التركيز على التعبير عن مكنونات النفس البشرية، والانفلات من قيود القصيدة الكلاسيكية مع الإبقاء على وحدة الموضوع، أو ما يسمى بالوحدة العضوية.

أما في عام 1932م، فقد ظهرت بوادر حداثة شعرية مع تأسيس حركة أبوللو بزعامة أحمد زكي أبي شادي، وكان من أعضائها خليل مطران، وقد كانت أهم ثمرات التجديد عند رواد تلك الحركة ظهور ما أسماه النقاد بالشعر المرسل، والشعر المنشور، فقد تحرروا من القافية الواحدة، ونوعوا في شعرهم في الأوزان والبحور.

غير أن شعر التفعيلة، أو ما أسماه نقاد العصر بالشعر الحرّ، فلم تظهر بوادره إلا عند نازك الملائكة، وبدر شاكر السياب.

وعن ذلك النوع الجديد من الشعر أشارت نازك الملائكة بقولها: إن دعوتي للشعر الحر ليست دعوة لنبد الشطرين نبذاً تاماً، ولا هي تهدف إلى أن تقضي على أوزان الخليل، وتحل محلها، وإنما كل ما ترمي إليه هو أن تبدع أسلوباً جديداً توقفه إلى جوار الأسلوب القديم، وتستعين به على بعض موضوعات العصر المعقدة.

وفي أعقاب الثورة الشعرية التي قادتها (مجلة شعر) ضد قوافي الخليل بن أحمد الفراهيدي، والدعوة إلى مقاطعتها كلية، ظهر ما اصطلح عليه نقاد العصر بقصيدة النثر، وهي شكل حدائي شعري غير مألوف، الأمر الذي دفع بكثير من الشعراء المحافظين، وحتى من حمل راية التجديد في الشعر أن يكيلوا لأصحاب قصيدة النثر أبشع التهم، وأقذع الانتقادات، لما رأوا فيها من محاولة واضحة للقضاء على الإرث الشعري العربي كلية، والخروج على الذوق العام.

وعموماً فقد شهدت القصيدة العربية خلال مراحل تطورها في العصر الحديث موجات من الفوضى، ودعوات إلى التحلل الكامل من القوالب الشعرية الكلاسيكية، واستنهاض الشعراء لشق عصا الطاعة على قوافي الخليل. بل إن الأمر تجاوز حتى تصورات الحدائث عند روادها الأوائل، ويمكننا إجمال تلك التجاوزات في النقاط التالية:

1- إن الشعر عموماً نابع من الوجدان، ومصور قدير لخلجات النفس البشرية، ومعبر أصدق تعبير عما يعتمل في النفس من شعور، والشعور متغير بتأثير الزمان والمكان، والتيارات الخارجية، والاهتزازات الجوانبية. بل تجاوز ذلك بعض المنظرين وأعلن أن القصيدة وليدة اللاشعور، واللاوعي، وقد تعلق المحدثين في الشعر بأن الأهم في الشعر هو وصف الشعور، والتعبير عن مكنونات الذات بغض النظر عن الشكل الذي ينبغي على الشاعر اقتفائه في نظم القصيدة، وعليه فقد أصبح الشعر المنثور مثلاً مطية سهلة لكل أديباء الشعر كباراً وصغاراً، حتى صار كل إنسان شاعراً بالفطرة..! وامتألت الصحف بالغث والسمين مما يدعيه البعض شعراً.

2- استعمل الشعر الحديث شكلاً جديداً يتجلى في استعمال الرموز، والأساطير والصور البيانية الموغلة في الإبهام والغموض، وأحياناً المتنافية مع العقل والمنطق، وقد تناقضت الصورة الشعرية عند شعراء قصيدة التفعيلة مع الصور البيانية في البلاغة القديمة، بل مع صور الإحيائيين والرومانسيين، الأمر الذي أبعده التجربة الشعرية في القصيدة الحديثة عن ذوق عامة الناس، ومنحهم حق وصم تلك التجارب بالغموض والغرائبية.

3- القصيدة الحديثة في جوهرها تنسف القواعد الكلاسيكية المتعارف عليها من حيث وحدة الوزن والقافية، إذ تجنح قصيدة التفعيلة إلى التنويع في القوافي والبحور داخل القصيدة الواحدة، وإهمال وحدة البيت المستقل، واستبداله بالأسطر والجمل الشعرية. ومن ثم فقد باتت الألفاظ داخل القصيدة ملبسة بالغموض، تأخذ دلالات جديدة، ولكنها تحتاج من المتلقي إعمال الذهن وكدح الفكر للتوصل إلى مقصود الشاعر، أما التراكم فقد حدث فيها بعض التجاوزات من حيث: الفصل والوصل، والحذف والذكر، والتقديم والتأخير، ثم تجاوز الأمر إلى فوضوية أحياناً، والتعلل في ذلك بأن التركيب إنما هو خاضع للتلوين الشعوري، وأن القصيدة تبت شعاعاً فكرياً في كلمات متجاوزة كل منها يحمل مدلولاً تركيبياً أو تصويرياً منفرداً بذاته. من هنا يمكن القول بأن الاستخدام اللغوي في القصيدة الحديثة بعنصره اللفظي والتركيب قد اتشح بوشاح من الغموض يحتاج من القارئ العربي إعمال الفكر والعقل، مما أبعده ذلك النوع من الشعر رغم ملامح التجديد التي سرت في أوصاله عن الجماهير.

4- الموسيقى: عنصر جوهري في الشعر، وهي نوعان: خارجية، تتولد أساساً من الوزن والقافية، حتى لقد قيل: إن الشعر موسيقى ذات أفكار، وداخلية تتولد من تناغم اللغة فيما بينها حروفاً وألفاظاً وعبارات، وهو نغم موسيقي خفي عذب، نستشعره جلياً عند القراءة والاستماع، ويتمثل في المحسنات البديعية كالجناس والطباق، أو عن طريق انسجام الكلمات وحسن ترابطها. غير أن التأمل في شعر التفعيلة مثلاً يجد أن

الموسيقى الخارجية ليست لها وجود، إذ لا وجود للوزن والقافية أصلاً، وقد أضحت الجملة الموسيقية أو المقطع أو السطر بديلاً عن الأبيات.

ولاشك أن دعاة الحداثة الشعرية الأوائل، الذين رفعوا راية التجديد، وبشروا به، وناصروه، هم أنفسهم الذين استنهضوا همهم للدفاع بضراوة عن الشعر العربي ضد ما اعتراه من مظاهر تجديد أقرب إلى الفوضى، وأشد خروجاً عن الذوق العام، وأبعد ما يكون عن تنظيراتهم وأطروحاتهم المبتكرة التي راودت عقولهم وخواطرهم بشأن التحديث في الشعر..!

فها هو العقاد زعيم مدرسة الديوان الذي دعا إلى الشعر المرسل، ينظر في أسى لما حل في الشعر العربي من ركافة وفوضى، ويعلن رفضه القاطع لتلك الموجات الحديثة في التي داهمت القصيدة العربية.

ثم تأتي نازك الملائكة التي تُعد من أوائل من دعا إلى الشعر الحر ومارسه في قصيده ونظمه، تعلن على الملأ استيائها مما ترى، ورفضها لما وصل إليه الشعر في بلاد العرب، فقد رفضت إطلاق القوافي دون نسق خاص، كما رفضت تماماً ما يسمى بقصيدة النثر، واعتبرتها بدعة شعرية ظهرت في لبنان، قائلة: إنه نثر طبيعي كالنثر، على الرغم من أن كاتبه ينشره مفرقاً على أسطر كما لو أنه كان شعراً حراً.

وقادت حملة ضارية ضد مجلة شعر التي تبنت هذا النوع الجديد من الكتابة الشعرية التي تفتقر إلى كل مقومات الشعرية، وذلك الشكل الحديث الذي يدعو إلى التدمير وتحطيم اللغة ونقض الثوابت، وتجاوز الأوزان الشعرية وتفعيلاتها، وتحطيم الأشكال الفنية القديمة، ليتمخض ذلك كله عن وليد مشوه، وجنين ساقط ميت..!، وما أصدق قول زهير بن أبي سلمى:

فتنتج لكم غلمان أشام كلهم كأحر عاد ثم ترضع فتطم

ثم هي تقول: "وإنما سمينا شعرنا الجديد بالشعر الحر لأننا نقصد كل كلمة في هذا الاصطلاح، فهو شعر لأنه موزون يخضع لعروض الخليل ويجري على ثمانية من أوزانه، وهو حرّ لأنه ينوع عدد تفعيلات الحشو في الشطر، خالصاً من قيود العدد الثابت في شطر الخليل".

والشاعر محمود درويش يعلن هو الآخر رفضه لهذا الشعر في مجلة ((الكرمل)) عام 1982م تحت عنوان ((أنقذونا من هذا الشعر))، حيث يقول: "إن ما نقرؤه منذ سنين بتدفقه الكمي المتهور ليس شعراً، ليس شعراً إلى حد يجعل واحداً مثلي، متورطاً في الشعر، منذ ربع قرن مضطراً لإعلان ضيقه بالشعر، وأكثر من ذلك يمقته، ويزدرية".

ثم يستطرد مواصلاً استيائه من الحركة الشعرية المعاصرة التي وطأتها ركافة الفوضى، وعبثية ذلك الزخم المتواصل من الكتابة التي يسميها الأدعياء شعراً، وواصفاً ذلك العبث بقوله هو: "كل كلام غامض، مشوش، ركيك، نثري، عدمي، قادر على تغطية تطفله على الشعر، في هذه الفوضى العامة".

ثم يستطرد قائلاً: "ولكن مسألة الشعر قد انحطت إلى مستوى الأدوات الأولية، والبديهيات اللغوية، كأن يعرف الشاعر، العامل في حقل اللغة، أبسط قواعد لغته، أفلا نرجوه، ولا نتوسل إليه، بأن يبقى الفاعل مرفوعاً إذا أمكن، وأن يحرص بقليل من الجهد، على وضع الهمزة على الكرسي أو الألف أو الياء بدلا من وضعها الشارع".

وملخص القول: إن القصيدة العربية عبر تاريخها المتواصل شهدت موجات من الحداثة والتطوير، بدءاً من العصر الجاهلي وحتى عصرنا الحالي، وقد لاقت الحداثة الشعرية التربة الخصبة في خلد شعراء العرب على مر العصور، وكانت بمثابة الحلم الذي راود خيالهم حقبة من الزمن، ولاشك أن بها بعض الوجاهة والجمال، من حيث كونها تخلق أجواءً شعرية تمكن الشعراء من التعبير عن قضايا عصرهم وهمومه، ولكنها لاقت استهجاناً من التيار المحافظ، الذي نظر إليها نظرة تتسم بالريبة والتوجس، لما تحمل في طياتها من التمرد على الإرث العربي القديم، والخروج على مجور الخليل، والاستغراق في الإبهام والغموض.

وأياً ما يكن فإن التجديد نزعة تهفو إليها النفس، ولكنه يجب أن يكون تجديداً
خلاقاً يمد جسور الصلة بين القديم والحديث، لا يجابي المعاصرة على حساب الأصالة، إذ
إن المنسلخ عن جذوره وأصوله لا يعدو أن يكون كياناً مشوهاً لا أصل له، ولا هوية.

الأيدولوجية الشعرية عند باشراحيل

"وتعظم الحيرة في وجدان الشاعر، وتغشى مسحة
الكآبة على أبياته ، ويزداد الشاعر توحداً مع
الطبيعة، وتنسل ألفاظ (الجدب، والظمأ، والغربة)
من قاموسه الرومانسي في حيرة مفعمة
بالضجر.....!"

ولد في مكة المكرمة عام 1370 هـ وهو رجل أعمال وأصدر جائزة باسمه في مصر
وله عدد من الدواوين الشعرية.

المتبصر في شعر الدكتور عبد الله باشراحيل تتراءى له أيديولوجيات متوازية ذات
تأثير عميق في إنتاجه الشعري، فقد تعانقت في شعره أصالة التراث العربي، وروح المعاصرة
بقضاياها ورؤاها ومشكلاتها المستمدة من الواقع المعاصر سواء ما تتعلق بالتحويلات
الاجتماعية أو السياسية التي تمر بها الشعوب العربية، فهو لم يدر في فلك الشعراء القدامى في
موضوعاتهم الشعرية، وأغراضهم التقليدية، بل كانت له لغته الشعرية التي حافظت على
النهج الكلاسيكي للقصيدة من ناحية، ووظفت حروفها ودلالاتها في التعبير عن قضايا
العصر وهمومه من ناحية أخرى.

إن نظرتة إلى الحدائث الشعرية نظرة تتسم بالتحفظ الشديد، فهي ليست هلوسة، ولا
هذيان يسري على الألسن لا ضابط له ولا وازع، وفي هذا الصدد يقول: الحدائث إذا جاءت
بمفهوم التجديد البعيد عن تحطيم مفردات اللغة والمعاني، وإذا عبرت عن هواجس الأمة أو
الهواجس والأحلام الذاتية في إطار التجديد، فإنني أعتبرها ظاهرة مهمة في استنطاق الحروف
واللغة وإشعال معانيها بالنبض الذهني في العقول، التي تكاد تطبق عليها مسحة من الجمود،
والحدائث في الشعر تعني الانفلات من القديم إلى الجديد، كما أنها فكرة آنية تعيش في واقعها
ولا تتعداه.

ولاشك أن الدكتور عبد الله باشراحيل ينحو في شعره منحى إنسانياً عالمياً، إذ إن مراثيه الشعرية في قامات وأعلام الأمة العربية والإسلامية، أمثال الشيخ حمد الجاسر، وابن عثيمين، وابن باز، والشاعر حسين سرحان، والكاتب عمر أبي ريشة إنما هو في الحقيقة رثاء لقيمة إنسانية سامية هي قيمة الوفاء، بل إنه لا يكتفي برثاء الشخصوخ في شعره بل إنه لا ينفك يرثي القيم العليا، والمبادئ السامية، والآمال، والفضائل، لاسيما قيمة (الوفاء)، ومراثيه الشعرية عموماً تستحق التأمل والدراسة، لما شاع فيها من الصدق الفني، والعاطفة المجردة، والحس الوطني.

وفي مطلع قصيدة (كيف لا أتأمل) ينعي فيها فضيلة (الوفاء) ويرى أنها قيمة عزت في زماننا كغيرها من القيم الغالية التي زهد الناس فيها، لقد أشار باشراحيل في مقدمته لتلك القصيدة إلى هذا المعنى بقوله: أبحث معي عن معنى الوفاء، فهو أنبل صديق لي، فإذا وجدته فدلي على مكانه، علّنى أداوي آلام الغدر... يقول في قصيدته:

ضاع الوفاء فكيف لا أتألم أمر مطاع للزمان إذا رمى
والجرح ينزف والجوى لا يرحم إن القضاء موكل ومحتم

والواقع أن جملة من المؤثرات الدينية، والاجتماعية، والثقافية، والسياسية تضافرت مجتمعة في تكوين التجربة الشعرية عموماً لدى الشاعر، فقصائده الشعرية في جوهرها صدئ للحس الديني المتنامي في شخصية باشراحيل، وقراءاته المستنيرة لواقع الأمة وهمومها وتحدياتها، وعوامل الضعف والوهن التي تنخر في جسدها، وعوامل الاستلاب والإنهاك والغزو الفكري التي تحيق بها

والحق أقول: لقد عاصر الشاعر أحداثاً جساماً، محلية وعالمية، وشهد آثار ذلك على الإنتاج الشعري في بلاد العرب، وما استحدث في الشعر من بدع لم تكن مألوفة للقصيدة العربية القديمة، وشاهد عن كثب اكتساح موجات الحداثة الشعرية على نحو أربك التيار المحافظ، الذي كان يعلي شأو القديم ويمجد التراث، ولكنه رغم ذلك وقف وقفة المبدع

الحكيم، الذي أثبت في شعره أن القصيدة العربية العمودية قادرة على مجابهة التحدي، وأن القوالب الموسيقية الشعرية العربية التي وضعها أجدادنا العرب القدامى قادرة على احتواء كل جديد، والتفاعل معه، بما يتماشى مع روح العصر ومشكلاته. وما من شك في أن المتبحر في شعر باشراحيل يجد صدقاً يسري في عاطفة، وطلاوة تنسل من أسلوب، وعذوبة تتهادى في جرس موسيقي، وتمازجاً واضحاً بين الأصالة والمعاصرة، حتى لقد نهج النهج الرومانسي، واستفاد من مبادئه دونما إخلال بالبنية الأصلية للقصيدة العربية. فيها هو ذا يتوحد مع الطبيعة مخاطباً إحدى مفرداتها في قصيدته المعنونة باسم (سحابة):

أسحابة مري على زمن الرتابة واستمطري ديماً على روض وغابة⁽¹⁾

وتعظم الحيرة في وجدان الشاعر، وتغشى مسحة الكآبة على أبياته، ويزداد الشاعر توحداً مع الطبيعة، وتنسل ألفاظ (الجدب، الظمأ، الغربة) من قاموسه الرومانسي في حيرة مفعمة بالضجر.

أدعوك صادقة وكاذبة المنى أدعوك من شغف وانتظر الإجابة
في الجذب تلتهب الرؤى ظمأي إلى وجهٍ يُذيب المئينَ في زمن.. الغرابة⁽²⁾

إنه مثقل فيما يبدو بالجراح، يبيث شكايته في ثنايا القصيدة، يتأسف في ألم دام من قسوة الحياة التي غشيت كل شيء، وأجزلت عطاءها من الخطوب والكروب، حتى تبدلت الموازين، واختلت منظومة القيم، ووجهت سهامها إلى براءته

(1) ديوان الخوف - ص 49

(2) ديوان الخوف - ص 49

والقسوة انتهكت رداء براءتي والقلب للخلان يشكو ما أصابه (1)

لكنه ما يلبث ينكفى على ذاته:

وأظل اقتبس الوميض لبارق يبدو فيمطر من رؤاه المستطابة
وتمرر في عمري سحابة (2)

إن الشاعر يضع موسيقاه في خدمة نبض قلبه، في لغة شفافة، وإيقاع موزون، وخاطرة شعورية شديدة الخصوصية، ليصف لنا مشاعره الذاتية في لوحة معبرة بريشة رومانسية.

سألت من الداعي يُعذبه الأفول وتلعثمت شفتاي أصمت أم أقول؟
أخشاك هادرة وراعدة المدى والحقل صوّح واستبد به المحول (3)

وبرغم شيوع مسحة الكآبة في أوصال القصيدة، كواحدة من أهم سمات المذهب الرومانسي في الشعر العربي، إلا أن شاعرنا لا يجاري الرومانسيين في قناعاتهم التمردية التشاؤمية؛ إن الحس الديني القابع في وجدانه يفضي به إلى الإقرار بأن الحياة دار زوال لا دار بقاء، وأن صيرورة الموجودات وإن طالت أعمارها، واستعظمت أناتها إلى زوال وفناء، وكل ذلك يدعم فكرة فلسفية مفادها أن الصمت أبلغ وأحرى، حين تشيع السخافة، ويستخدم الجدل، وتصطرع السفسطة.

وصمت فانبته الأسى وتحجرت خفقتي الثكلى يورقها الذهول

(1) المرجع السابق - ص 49

(2) المرجع السابق - ص 49

(3) المرجع السابق - ص 50

الصمت أجدر من حديث مزيف
سنعيش دهرأ والليالي رحلة
والسر في قلبي يعربد طاغياً
وكظمت إنني لا أقول⁽¹⁾

إن النزعة الرومانتيكية في شعر عبد الله باشراحيل هي نزعة متأصلة فيه، وإن كتب في أغراض أخرى قد تلوح للقارئ غير المتمرس بأسلوب الشاعر في ثوب غير رومانتيكي. وهي رومانتيكية تتجلى في معظم شعره لاسيما الوجداني، وتبرز خصائصها وسماتها واضحة ناصعة، فهو يعانق الطبيعة بمفرداتها، كالطير والنجم، والنهر والليل، ويتحد معها شأنه شأن الرومانسيين، وتكسو أشعاره مسحة الألم النبيل، وتستنطق الذاتية حروف القصيد وعباراتها. يقول في قصيدته "هجع النور":

ما تعرى لديك الخصوم
سأرحل في أثر تلك الغيوم
لماذا أظل بجرحي الأليم
إذ وصار الفراق بنا أطولا
إلى النور في وحدتي أعزلا
وفياً لمن وده ما حلا⁽²⁾

ومن سمات الرومانسية في شعر باشراحيل جيشان العاطفة وغزارتها، والذاتية المتوهجة التي تكابد الألم والشجن، والاندفاع الشديد المغرق في وصف الشعور الوجداني، رغم ضبابية بعض قصائده التي تنبئ عن معالجة مبهمة مقصودة، وتأثر بالانتقال الفني من مرحلة الرومانسية الذاتية إلى مرحلة الرومانسية الواقعية، التي لا تنفصل عن الواقع الإنساني المعاصر، ويظهر ذلك جلياً في قصيدته "حجر".

(1) المرجع السابق - ص 50

(2) المرجع السابق - ص 50

غير أني واجف منهزم
يأمن النوم على علاته
ما احتيالي والرؤى جائية
والثواني في خطى العمر لظى
رجعة أم رجفة قاهرة
من يريني في الصحاري نظرة
فإذا ران على وجهي أسى

يتمنى يتلهمى يعتصر
عذره أن المشيئات قدر
بين تكذيب ووهم وسهر
ما تناهت عند أسوار الحذر
وشعاع في ظلام مستتر
حفها الشوق إلى وجه الظفر
سمني ما شئت حتى لو جحر⁽¹⁾

والشاعر الرومانتيكي حين تستبد به مشاعر القنوط واليأس يرى الوجود حوله قائماً، والكون المحيط صفحة من ذاته اليبائسة، يسجل فيها خطراته الحزينة، والطبيعة لوحة باهتة شاحبة تعكس ما بداخل وجدانه الحزين، فالرياح التي تحمل الأمطار والبذور زوابع مخيفة، والندى لا يرى فيه معلماً جمالياً، حتى إشراقة الصبح الضحوك، وضيء الشمس الحنون لا يفلحان في قهر ذلك الظلام الرابض في نفسية الشاعر. يقول في قصيدته "ظلال الأمس":

زيف يطل من الزوابع يقترب
زيف ومن حسب الندى مطرا له
زيف ومن وهج الغبار إذا دنا
كذب الوميض فلا الظلام بقهره

لاؤ بلبّ الصبح يعتصر العنب
يشقى ومن يستمطر اليوم السحب
غامت وجوه بالملاحاة تنتقب
يرضى لقرص الشمس أن لا تحتجب⁽²⁾

والشاعر في صراع بين رومانسيته وواقع الحياة، بيد أنه مع ذلك لم يكن غارقاً في الرومانسية التي تجعله يعيش في حالة انفصام مع واقعه. لقد كان رومانتيكياً واقعياً، مثقلاً

(1) المرجع السابق - ص 84

(2) ديوان الخوف - ص 87

بهموم الأمة الإسلامية يقرأ جيداً معطيات واقع أمته، ويعبر عن ذلك الواقع في مقدرة شعرية مبدعة.

فهو يخاطب خادم الحرمين الشريفين الملك فهد رحمه الله، مادحاً إياه بما يستحق، في قصيدته "ما هان في دنياك دين":

يا أيها الملك المكين	والصادق الوعد الأمين
يا نبض روح الطيبين	وملاذ شكوى الحائرين
يا ملجأ الفقراء والضعف	اء من جرح السنين
والكوكب الساري المضيء	على ظلام السائرين ⁽¹⁾

ويرسل رسالة إلى حكام العرب في قصيدة عنوانها (لا سامحهم الله) يقول فيها:

من عنف إعصار الغضب	قد جاء حكام العرب
من قلب آلام الشعوب	أتوا وترجيح النوب
جاؤوا إلى الشعب الذبيح	سلاحهم عقل وحب
الرابضون الصابرون	على الشدائد والكُرب
مهج تذب من الأسى	وقرى يفتتها العطب

ثم يقول:

ماذا نقول لأمة	أمجدها ملء الحقب؟
ماذا إذا سأل الضمير	عن الإباء ولم نجيب؟
ماذا سيعتتنا الزمان	إذا الرشادة لم تثيب؟

(1) المرجع السابق - ص 29

ماذا وقد لصقوا بنا الإرهاب وامتهنوا الكذب؟

إلى أدباء ومثقفي أمريكا أرسل الشاعر الكبير رسالة شعرية، اعتبرها الرئيس الفرنسي جاك شيراك، والأمير تشارلز، وغيرهما من مثقفي الغرب نموذجاً راقياً ومثالياً لحوار الثقافات، وقد ضمن الشاعر رسالته، أو قصيدته قضايا أمته العربية، وضرورة التقارب، ونبذ الصراع غير المبرر، يقول في رسالته:

إلى أدباء أمريكا
قرأناها رسالتكم
وقلنا ربما يخضّر جذب الأرض
وتورق بيننا الأيام والأحلام
تمزج في ضياء الفجر
نور الشعر
ونجني من تراب الفكر
بعض التبر
نهاديكم ورود الشرق
وندعوكم لقول الحق
أيا أدباء أمريكا
تناسيتم عذاباً راح يصلينا
تناسيتم أمانينا
وما جئتم ونار القهر
تضرم في صحارينا
أمن ألم تذكركم مآسينا
إذن

ما مر من تاريخنا المجبول بالآلام
يكفيكم ويكفينا
وما كنا أعاديكم
وما كنتم أعاديننا
ولكن السياسات الدنيئة
ما تزال تُقوّض الحلم
الذي صغناه
من آلام حاضرننا
ومن أطياف ماضينا
أيا أدباء أمريكا
قرأنا
أن لا تفريق بين الناس كلهم
وآدم ملتقى الإنسان بالإنسان
وكل الخلق للديان
تنادي الأرض رسطاليس
أفلاطون أو سقراط
أليس الحكمة المثلى
امتشاق الحق مثل السيف
نبذ الظلم
نشر العدل في البلدان!؟

وفي قصائده الغزلية يقدم لنا تجاربه الحسية الرقيقة، في صورة غزل عفيف مجرد من
اللهو والعبث، وفي قصيدة رقيقة ناعمة بعنوان "لم الخريف" يث حبيته نجواه الحزينة،
ويهامسها بما يعتلج في وجدانه من شعور بريء عفيف:

لن أستطيع وتستطيعي
 إخراج حبك من ضلوعي
 أمطرتُ قلبك بالندى
 وأضأتُ ليلك بالشموع
 إن كنتِ أبحستِ المنى
 وزهدتِ في حيي فيبيعي
 بيعي أغاريد الصبا
 ودعي الأزاهر للربيع
 أنا لست أرضى بالأسى
 أو بالمدلة والخضوع
 ولتحذري إن الغرور
 أضاع قلبك، لا تضيعي
 وفي قصيدة للشاعر عنوانها "معذبتى" يقول فيها وقلبه ينفطر أسى ولوعة:

معذبتى ألا يكفيك ظلماً
 ودنيانا أليس فيها قرار؟
 ملكتِ القلبَ حتى حرتُ فيه
 ومالي يا منى قلبي خيار
 فأنتِ حبيبتي وإليكِ شجوي
 معذبتى لقد طال انتظار
 وأعياني على الأيام همّ
 وأعياني على الوجد اصطبار
 فراقى لم يكن لي فيه ذنب
 فللاقدار أحداث تُدار

حياتي كلها شوق ووجد

فلا ليل يربح ولا نهار

وفي قصيدته التي اختار لها اسم "لبنى" يؤكد على تمكن الحب من فؤاده، وإن جارت
محبوبته، واختارت النأي والهجران

قولي الذي تبتغي لا تتمني

فلقد حملتك حلوتي في أضلعي

إن كنت قد شئت الفراق فإني

باق على عهدي الكريم وموقفي

يا حلوتي إن كان أبعذك النوى

فلأنت في قلبي، وفي روعي معي

لبنى فؤادي في هواك متيم

هلا رحمت صباقي وتلوعي

كما أنشدنا الدكتور الشاعر عبد الله باشراحيل قصائد عذبة في فن المراثي، أبحر فيها
إبحار الرجل النبيل الذي يضرب مثلاً راقياً على الوفاء والإخلاص لذكرى رجال وأعلام
تفخر بهم الأمة العربية والإسلامية، ومراثيه في جوهرها جولات أدبية بين القوافي، يغوص
فيها إلى الأعماق، عبر خيالاته، وعباراته، ليستخرج ما قد يخفى على القارئ العربي من قيم
ومثل عليا تتصل بهذه القمم الكبيرة، والأعلام المعاصرة، التي يفخر بها كل عربي، وكل
مسلم.

ومن تلك المراثي الغزيرة رثاؤه المغفور له الشيخ (عمر بن محمد بن سبيل) إمام
المسجد الحرام، في قصيدة بعنوان (لله درك يا عمر)، يقول في مطلعها:

لله ما أقسى الخبر
 اليوم ودعنا عمر
 يا أيها الشيخ الإمام
 وأيها القلب النضر
 يبكيك من بالبيت طاف
 وحج مكة واعتمر

وفي قصيدة (الفراق المر) يقول فيها الشاعر راثياً العلامة الكبير (ابن عثيمين):

يا أيها الشيخ الذي يعتادنا
 في كل عيد بالتقى يتبسم
 عيد الجنان هناك أعظم فرحة
 للمؤمن الصادي لمن هو أعظم

وفي قصيدته (طبتَ وطبت) في رثاء الأديب يحيى المعلمي، يقول:

جئتُ أرثيك والدعاء عزائي
 إن رب الأنام للعبد غافر
 ما نعيم الحياة غير خيال
 ونعيم الجنان أعلى الذخائر
 فاغترف من مناهل الرب فضلاً
 وهو بالفضل للخلائق جابر

والأديب الشاعر الدكتور (عبد الله محمد صالح باشرحيل) من شعراء المملكة العربية السعودية المعروفين والناخبين، من مواليد مكة المكرمة عام 1370هـ/ 1951م، تلقى تعليمه قبل الجامعي بمكة، ثم نال بكالوريوس العلوم السياسية، فماجستير في الدراسات الدولية 1984م، فدكتوراه في الفلسفة الإنسانية عام 1987م، كما حصل على دبلوم أكاديمية اتحاد الأدباء اليونانيين المصريين بأثينا، وهو رجل أعمال، ومستشار قانوني، أدار العديد من المؤسسات والشركات الإنمائية في المملكة العربية السعودية.

نال العديد من الأوسمة والميداليات التقديرية من بعض النوادي الأدبية بالمملكة، وتم تكريمه في اليونان في حفل كبير.

أنشأ جائزة سنوية لتشجيع وإثراء حركة الإبداع العربي، باسم "جائزة باشرحيل للإبداع الثقافي"، ترجمت بعض أشعاره إلى اللغة الفرنسية واللغة اليونانية.

من أهم أعماله الإبداعية: ديوان (معذبتي) 1978، وديوان (الهوى قدرتي) 1980، وديوان (النبع الضامئ) 1986، وديوان (الخوف) 1988.

الشعر في القصيم

"وهكذا يتبين للقارئ العربي مكانة القصيم في الحراك الثقافي والأدبي بالمملكة العربية السعودية، ويتضح له كم كانت القصيم أرضاً خصبة، ورحماً ولود...."

تنبجس مظاهر الحركة الثقافية في القصيم في غزارة فكرية، وتآلق إبداعي منقطع النظير. فقد بادر أبناءه إلى الالتحاق بموكب الصحافة السعودية إبان نشأتها وتطورها، فتآلق حضورهم، وتغلغل أديبهم في مسارب الإبداع الأدبي البارز في المملكة العربية السعودية. وما من شك في أن منطقة القصيم، هذا الجزء الغالي من الوطن السعودي قد أنجبت كوكبة من الشعراء المتفردين، الذين أثروا الحركة الأدبية عموماً والشعرية خصوصاً في ربوع المملكة، وحظيت تجاربهم الإبداعية بكثير من الدراسات النقدية، وقد لمع منهم: محمد الفهد العيسي، إبراهيم العواجي، أحمد الصالح، محمد الشبل، وإبراهيم الداغ، وعبد العزيز النقيدان، وعبد الله العثيمين، والشاعر البطاح الذي وجدنا له أكثر من قصيدة في صحيفة أم القرى.

ومن مبدعي القصيم الذين ذاع صيتهم، وأثروا المكتبة العربية بفكرهم المستنير الدكتور فهد الهوميل، الذي برع في التأليف النقدي، وكذا الدكتور صالح الوشمي الذي برع في التأليف التاريخي.

بالإضافة إلى العلماء الشرعيين الذين كان لهم أثرهم الرائد وتأثيرهم الفاعل في المنطقة، أمثال: الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، العلامة الكبير رحمه الله، الذي كانت له آثار واسعة في الحركة العلمية منذ تأسيس فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كما قاد النهضة الفكرية المعاصرة، لما خلف لنا من مؤلفات زاخرة في فنون العلم والمعرفة، وكذلك العلامة الراسخ في العلم الشيخ الجليل محمد بن عثيمين، الذي لم يزل أستاذاً بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود بالقصيم حتى توفي رحمه الله. وقد ازدهرت الحركة الأدبية في

القصيم بتأسيس نادي القصيم الأدبي، وكان له دوره في تنمية الحركة الأدبية بشتى مساراتها الشعرية والقصصية، والمقالية والنقدية.

إن التاريخ المعاصر يشهد أن المملكة العربية السعودية دائماً حبلى بالأعلام والأدباء والمفكرين، وأن القصيم تحديداً رحم مبارك ولود، كم جاد على الحياة وأفاض، ورغم الظروف الصعبة التي مرت بها جزيرة العرب قبل توحيد المملكة وافتقار العهد المنصرم إلى أسباب الأمن والتعليم والحياة الكريمة، إلا أن الأرض المباركة، أرض الأجداد والآباء لم تعدم أبداً أن تحمل في رحمها الغرس الطيب المبارك، الذي أهدى الحياة بعد توحيد المملكة رجالات، كانوا شموساً مضيئة في سماوات الكون الرحيب.

كما أن الذاكرة العربية لا يمكن أن تنسى الأديب والمفكر الإسلامي الدكتور حسن بن فهد بن حسن الهويل، المولود بمدينة بريدة، بمنطقة القصيم عام 1361هـ/ 1942م، الحاصل على شهادة الماجستير في الأدب والنقد من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر في مصر المحروسة، والحاصل على الدكتوراة في الأدب العربي الحديث من كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والذي مارس العمل الصحفي والإذاعي والتلفزيوني، وشارك في عدد من المؤتمرات الأدبية والندوات داخل المملكة وخارجها، وناقش عدداً من الرسائل العلمية، وقدم للقارئ العربي العديد من الدراسات النقدية، والمؤلفات الفكرية. لقد تألق صديقي الدكتور/ حسن فهد الهويل بصوته الفكري الندي الذي أخذ يجول ببديع الفكر في المنتديات الداخلية والخارجية، وخاض غمار معارك فكرية وأدبية كثيرة. وقد تميز أسلوبه الأدبي وتفرد؛ فجمع القدرة على انتقاء اللفظة، وجمال التركيب، وروعة التصوير، وشمولية المعنى، فكان أسلوباً بيانياً متألقاً.

وأبناء القصيم يعتزون بثباتهم وصمودهم أمام الموجات الفكرية الوثابة المتحررة، وعلى صعيد الحركة الأدبية فقد اتسمت بالتيار المحافظ، شعراً ونثراً وفكراً. وإن لم تعدم الساحة الأدبية في القصيم من محاولاتٍ جنحت في مضامينها أحياناً إلى التجديد والغرائبية؛ إذ إن الأدب عموماً مرآة الشعوب، يرصد تاريخهم، ويدون أحلامهم، ويعبر عن همومهم، من هنا كانت لغة الأدب بعنصره النثر والشعر في القصيم وغيره من مناطق المملكة معبرة

أصدق تعبير عن واقع المواطن السعودي، وأحلامه، وتطلعاته، إلا أن الإنتاج الأدبي في مجمله لم يحد عن التيار المحافظ، حتى الأطروحات الفكرية والأعمال النقدية في القصيم لم تنجح إلى استخدام اللغة المعقدة المبهمة، ولم تقع فريسة السفسائية، بل كانت الفكرة واضحة، واللغة الأدبية مفهومة دونما ضبابية أو إبهام.

وأية ذلك أن المبحر في ديوان الشعر القصيمي يعثر على أصداق، ودررٍ من شتى الاتجاهات الإبداعية والوجدانية، كثير منها ما غلب عليه الطابع المحافظ، الذي يسير في فلك القوالب العربية الشعرية الموروثة، مع الالتفات إلى روح العصر وقضاياها المتنوعة، وقليل منها ما اتشح بالغموض غير المتناهي.

ومن شعراء القصيم الذين نبغوا في شعرهم، الشيخ محمد بن عبد الله بن عثيمين أحد شعراء التيار الإحيائي بالمملكة، الذين حاكوا الأقدمين في شعرهم، ولعل قصيدته (العز والمجد في الهندية القضب) دليلاً بارزاً على تلك المحاكاة، حيث يقول في مطلعها:

العز والمجد في الهندية القضب	لا في الرسائل والتنميق للخطب
تقضي المواضي فيمضي حكمها أمماً	إن خالج الشك رأي الحاذق الأرب
وليس يبني العلا إلا ندي ووغى	هما المعارج للأسنى من الرتب
ومشمعل أخو عزم يشيعه	قلب صروم إذا ما هم لم يهب
لله طلاب أوتار أعد لها	سيراً حثيثاً بعزم غير مؤتشب
ذاك الإمام الذي كادت عزائم	تسمو به فوق هام النسر والقطب
عبد العزيز الذي ذلت لسطوته	شوس الجبابر من عجم ومن عرب

ومن شعراء الاتجاه الرومانسي - الذي ظهر في الحركة الأدبية السعودية نظراً لحالة القلق التي تنتاب الشباب العربي، والظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تدفع إلى الانطواء والحزن، والاستغراق في الشعور بالحزن، وتأمل الذات، علاوة على اطلاع شعراء ذلك

الاتجاه الشعري الحدائي على نماذج الشعر العربي الرومانسي الحديث لاسيما لمدرستي المهجر وأبولو - شاعر القصيم المتميز إبراهيم الدامغ، يقول في إحدى قصائده:

أرى النجوم تواسيني فأخطبها ودي
كأني أناجي طرفها الراني
وأبصر الليل تخفيني غلائله
كأنه في حداد الموت ينعاني
وأسمع الورق تبكيها فأطلبها
كفي النواح بصوت واهــــن واني

ومن روائعه الشعرية قصيدة (أماه ليتك تسمعين) التي نظمها بعد احتلال الصهاينة لفلسطين، حيث يقول فيها:

أماه ليتك تسمعين
أماه ليتك تبصرين
أماه والسبع الشداد
جثت عليك بغير لين
أماه والآلام تعصر
قلبك البر اليمين
أماه والأيام تقطف
زهرك الغض الثمين
أماه والمستعمرون
وخادم المستعمرين
عاثوا بأرضك واستلبوا

بالتلصص مجرمين
ورموك بالنقم الجسام
ودنسوا فيك العرين

وكذلك من شعراء القصيم الذين غدوا اللغة الشعرية بأدوات جديدة، ومفردات موحية ثرية كما تكون أكثر قدرة على التعبير عن قضايا الواقع وملابساته الشاعر الكبير عبد العزيز النقيدان، الذي مال شعره إلى الفصاحة، والتزم النهج التقليدي للقصيدة العربية الكلاسيكية من حيث وحدة الوزن والقافية.

ومن قصائده الرائعة، قصيدة عنوانها (الثقافة تدعوكم)، يقول في مطلعها:

أي غيث أنا لكل فؤاد	أي ماء تجود فيه الغوادي
عقريباً يسير متمد الخطو	كريمياً في ومضه الوقاد
أنا في روضة الحياة بريق	يتنزي في فجره كل زاد
وبنات الأفكار مني معين	حمل الغيث للفؤاد الصادي
إن حولي من الأطايب نعمى	أي كنز أنا وأي عتاد
قد وسعت الحياة وهي نضال	وتغنيت فوق ظهر الجياد

وفي مسقط رأسه مدينة بريدة بالقصيم تغنى، وأنشد قصيدته المشهورة (بريدة)،

حيث قال:

رأيتُ بك الفتوة والشبابا
كأن الشمس تمنحك التهابا
فمن شعل النجوم لبست ثوباً
ومن حلل الجمال أرى إهابا

ثم يقول:

عروسَ الحسنِ ما أغمضتِ عيناً
وما أوصدتِ للأقدامِ باباً
مددتِ يداً لنهضتنا فكانت
يدَ الإخلاصِ تجتاز الصعاباً

أما الشاعر الفذ محمد فهد العيسى فقد تميز بشاعريته الإبداعية، ويُعد من أبرز رموز الرومانسية في الشعر السعودي، إنه شاعر اعتنق الرومانسية منذ سنوات إنتاجه الشعري المبكرة، ويشكل إبداعه الشعري مساراً جديداً في بناء القصيدة العربية؛ إذ سار على دروب المحدثين في الشعر المعاصر، وأنست قريحته إلى قصيدة التفعيلة، وجنحت عبقريته الشاعرية إلى التنويع الموسيقي في قصائده.

لقد كان شعره بإجماع النقاد حافلاً بالتجربة الإنسانية العميقة، ومتسربلاً بالحزن والشجن، ومقنعاً بقناعات من الكآبة، والهروب من الواقع، والانطواء على الذاتية، لقد كان أنموذجاً لذلك الشاعر الوجداني الحائر الذي يبحث عن المجهول، ويقتفي أثر ما وراء العالم الآخر، وتضج نفسه بالتمرد على القيود والحواجز.

قال فيه د. غازي القصيبي: لو تجسّد الشعر رجلاً لكان رجلاً يشبه العيسى، يشبهه في أناقته، يشبهه في كرمه، يشبهه في طبيته، يشبهه في وداعته، يشبهه في دواوين شعره، إنّه يتنفس شعراً، ويعيش شعراً، ويأتيه الشعر من بين يديه ومن خلفه ولا يذهب إليه، مخلص للشعر، لا فجوة بين شخصيته الاجتماعية وحياته الشعرية، فرومانسيته الشعرية تنبع من حياته وليس من خياله، ورقة شعره وهدوء معجمه تنبع من رقة مشاعره، إنّه يكتب شعره دون تكلف أو تصنع، ومن قصائده المشهورة قصيدة عنوانها (حرية الفكر)، يقول فيها:

صبراً أخوا الحرف لا تعجل ولا تلم
 فلن أضيع أنا، أقسمت بالقلم
 الشمس تشرق من كفي أشعتها
 إن تُسجن الشمس عن أرضي وعن أكمي
 سيعلم القوم صمتي في غدر ذهب
 والصوت من قلبي والحق ملء فمي
 أني الأبوي، سمائي فوق عالمهم
 وفوق كل دعي ناعق قدمي

ومن قصائده التي تعبر عن وجدانه الخائر، وتشي بخلجات قلبه الممزق، وتكشف
 عن شاعريته الرومانتيكية هذه القصيدة التي يشع منها الحزن، ويلتمع في طياتها الشجن:

حبيبي، أراني عبر الطريق
 أسير إلى ما وراء الغيوب
 أسير إلى عالم للفتاء
 وحيداً... تحيط بنفسي الندوب
 حطاماً فقد هدمني هواك
 صروحاً تحديت فيها الخطوب
 هواك شقاءً بدنياً شقاء
 أضل طريقي بين الدروب.

هذا وقد لمع من أرض القصيم شعراء كثيرون، منهم الشاعر القدير أحمد صالح
 الصالح، وقد نحى في أعماله الشعرية منحى وجدانياً وطنياً مازج فيه بين جملة من المؤثرات

الوجدانية المتمثلة في المكان، والوطن، والمرأة، ومن ثم جاء شعره مزيجاً حياً من عبير التراب، وأنس الوطن، ومناجاة المرأة.

ومن شعراء القصيم: صالح بن إبراهيم العوض المولود في الرس (القصيم) عام 1373هـ 1953م وكان له حضور في نادي القصيم الأدبي وفي المحافل الأدبية وله مشاركات في الصحافة والمنتديات وله دواوين شعرية منها نفع القصيم يقول فيها: ص 50.

وهكذا يتبين للقارئ مكانة القصيم في الحراك الثقافي والأدبي بالمملكة العربية السعودية، ويتضح له كم كانت القصيم أرضاً خصبة، ورحماً ولوداً، إذ أهدت إلى الحياة العربية في المملكة وخارجها قناديل ضياء حملت أنوار الحدائث البناءة، وأشجاراً باسقاتٍ أزهرت في أرض العرب وروداً وياسمين. لقد أثرى إقليم القصيم المكتبة السعودية بكثير من المؤلفات التاريخية والأدبية والشرعية، وكان للنادي الأدبي في القصيم دوره الرائد في طبع ونشر تلك المؤلفات.

ولقد تناولنا كثيراً من شعراء القصيم المبدعين في كتاباتنا ودراساتنا النقدية، وأفردنا حولهم الأحاديث والأطروحات، محمولة على مطايا السطور، لاسيما في كتابينا: الرمز والرمزية، والمجتمع في الشعر السعودي، إدراكاً منا لذلك الشأو الرفيع الذي بلغته القصيم فكراً مستنيراً، وأدباً سامياً.

التكوين الثقافي في شعر محمد العطوي

(مجلة الأربعاء 2/08/1428هـ)

"ومن الملاحظ في شعر العطوي تلك الجمل
الشاعرية الجزلة التي تستقي من التراث ألفاظها
ومفرداتها، وتتكى على موروث القدماء من
التعابير ذات الدلالات الموحية، والعمق التاريخي
العربي...."

لا غرو أن يجتذب الفن الأدبي الجماهير، إذ هو المرآة العاكسة همومهم، وأحلامهم
وتطلعاتهم، ولا غرابة أيضاً في أن يكون الفن الأدبي ساحة رحبية تتسع أقطارها للجميع،
يدلف إليها إلى جانب الأدباء المبدعين أرباب البيان والبلاغة ثلة من الأكاديميين وذوي المهن
العلمية كالأطباء والمهندسين أو غيرهم من العلماء، شريطة المهوبة المتأصلة، والفكر الوثاب،
والروح المتقدة بالشعور العالي. ولعل حكم ابن قتيبة في تعليقه على أبيات قالها العالم الشهير
الخليل بن أحمد حين قال: "وهذا الشعر بين التكليف، ردئ الضعفة، وكذلك أشعار العلماء،
ليس فيها شيء جاء عن إسماع و سهولة.. هو حكم جائر يجافي الصحة والمنطق ومشاهد
الحياة.

ألم تر أن النفوس البشرية تلتقي حول واحة الفن الراقي، تنصت إلى تغريد بلابلها
الصداحة، وتستنشق نسمات أريجها الفواح، وتستمتع بفضاءاتها الرحبة، وتتلقى إمداداتها
المتواترة من الوحي والإلهام، يستوي في ذلك سواد الناس جميعهم. والإبداع الأدبي عموماً
ليس عملاً أكاديمياً صرفاً، لا يمارسه سوى المختصون بدراسة اللغة وآدابها، إنما هو إلهام
خاص تتلقفه في الأساس الروح الشاعرية، والمهوبة الفطرية، واللبّ الحاذق، والنفس
الشفيفة.

من هذا المنطلق فلا غرابة البتة حين نلقى في الساحة الأدبية طيباً قد برع في الأدب، وذاع صيته، أو مهندساً خبر فنون الشعر، وذللت له مواهبه قوافيه وبجوره وموسيقاه.

لقد برع في ميدان الشعر العربي المهندس الشاعر المصري علي محمود طه شاعر الجندول، وكذلك الشاعر الطيب أحمد زكي أبو شادي مؤسس مدرسة أبوللو الشعرية التي ضمت شعراء الرومانسية في العصر الحديث، كما شهدت الساحة الأدبية المعاصرة إبداعات إبراهيم ناجي شاعر الأطباء وطبيب الشعراء الذي استطاع أن ينقش اسمه في ذاكرة الوجدان العربي، وعن تلك العلاقة الجدلية بين الطب والأدب أنشد يقول:

والناس تسأل والهواجس جمّة	طب وشعر كيف يتفقان
الشعر مرحة النفوس وسره	هبة السماء ومنحة الديان
والطب مرحة الجسوم ونبعه	من ذلك الفيض العلي الشان

وها هو ذا علي درب هؤلاء انطلق وسار في جزيرة العرب المهندس الشاعر محمد فرج العطوي.

والشاعر محمد فرج العطوي الذي سنقف عند إبداعه وقفة التأمل المعجب هو من مواليد بادية تبوك عام 1386هـ، تلقى تعليمه الجامعي في الرياض في أروقة الجامعة الأم العريقة، جامعة الملك سعود. وثقف ذاته في ردهات الروضات الثقافية في المنتديات الأدبية، وشارك بقلمه الأدبي في الصحافة الجامعية في سنوات الشباب المزهر. وحين قفل عائداً إلى مسقط رأسه تبوك تواصل مع المنتديات الثقافية بها، والتحق بنادي تبوك الأدبي فكان عضواً فاعلاً فيه، إبداعاً أدبياً، ونشاطاً ثقافياً.

وقد شهدت الساحة الأدبية في بلاد العرب داخل المملكة وخارجها جولاته وصولاته الشعرية المبدعة، وكان حضوره واضحاً وبارزاً في الصحافة الوطنية، وفي علاقاته بشعراء بني وطنه، كما حلقت ربّة شعره في المنتديات العربية والأمسيات الشعرية خارج المملكة، في الإمارات العربية، ومراتع الشام الثقافية، وفي مصر المحروسة في أيامه الأخيرة.

وهو فيما يبدو لنا يقتضي بقصد أو دون قصد أثر شاعر العربية الكبير حسن القرشي المولود في مكة عام 1344هـ، الذي فرض شاعريته بحضوره المتديبات الثقافية العربية في سائر الوطن العربي، وساعدته أسفاره وصدقاته وعلاقاته الاجتماعية على التواصل مع الحركة الأدبية والشعرية العربية. وكان القرشي في طليعة الشعراء المجددين في المملكة، وكان عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة وعمان، وهو من الشعراء المكثرين، فقد أنتج عشرات الدواوين، والمجموعات الشعرية التي أثرت الوجدان العربي.

على أن المتأمل في شعر محمد فرج العطوي يلمس حرصه على القصيدة الكلاسيكية أوزانها وقوافيها، بل كثيراً ما يطالعنا شعره فنلمس ذلك الاجترار الواضح من القاموس الشعري القديم في ألفاظه الجزلة، ومفرداته العربية الفصيحة، وصوره الشعرية التي تتكئ على خلفية تراثية واضحة، لكنه مع ذلك لم ينفصل بشعره عن الهم العربي، والقضايا المعاصرة.

لقد كان شعره كياناً حياً نابضاً، يحمل قلباً كلاسيكي التوجه، لكن الدماء التي تضخ في شغافه كانت مخضبة بألوان الواقع، وقضايا المعاصرة. ومن أبياته الرائعة المشبوبة بالأسى والحزن تلك التي أنشدها في العراق على خلفية معاناته وشعبه من الجوع والخراب، من جراء حروبه الخليجية ومحاصرته من الغرب، حتى باتت بغداد عاصمة الشرق الإسلامي في زمن المد العبقري للحضارة العربية الإسلامية جثماناً بلا روح، يئن من الألم والجراح:

وبي مثل ما بك فرحة ولوعة
يا ابن العراق وغصة ودموع
أما الدموع فليس ثمة متأى
عنها وقد هد العراق الجوع

وفي قصيدته (من هموم الأمة) يتواصل بقلب باكٍ، وفؤاد مكلوم مع ذلك الهم العربي، ويبلور رؤية شمولية للجرح النازف في أوصال العالم العربي والإسلامي، إذ يقول:

تاهت الأفكار واحترار القلم
 هذه الدنيا بها ظلم ربا
 ظلم تبدد له خلف ظلم
 واستبيح الحق فيها وهضم
 لا فليس الصمت حلاً ناجعاً
 لقضايا أمتي، خير الأمم

والشاعر مرآة صادقة لمجتمعهم، تتشكل ملامح التجربة الشعرية عنده من تفاعل وجدانه الشفيف مع جملة التأثيرات الخارجية التي يفرزها الواقع سواء أكان وردياً أم مريراً؛ فالساسة الخداعة والأعيبيها القدرة، وسلوكيات بني الإنسان الجائرة، وقيم الحياة المختلفة، وذلك الصراع المحتدم بين وجهي الحياة: الشر والخير، كلها تأثيرات خصيبة وموحية، تلج إلى أعماق التجربة الشعرية، فتزيدها سخونة، وتكسبها ثراءً، وتفتح لها النوافذ والأبواب على فضاءات شعرية ثرية ورحيية.

وشاعرنا محمد فرج العطوي نموذج لذلك الشاعر، ترجمان عصره، وتجربته الشعرية من تلك التجارب التي تعصف بها تأثيرات الواقع وقضاياها. تأمل معنا قصيدته الحزينة التي أنشدها في فلسطين الكرامة والفداء؛ إذ يقف على أطلالها المتناثرة، وبقاياها المتشرذمة، مطلقاً صرخة كسيرة في وجه ذلك الظلم الصهيوني العاشم، مستخدماً (نا) الضمير المتصل الدال على الجمع، إشارة إلى أن القضية الفلسطينية هي قضية كل عربي، وجرح كل مسلم.

فيا خمسين جرحاً وانكساراً
 لقد جربت فينا كل ذل
 متى تترجلين لكبي نهابا
 فطأطانا وأسلمنا الرقابا

خدعنا بالسلام الهش عشرا
 فزجر أهلنا غضباً فريداً
 عجانا نفتفي فيها سراها
 ومات السلم أو قل عنه ذابا

ولاشك أن الإسلام يعيش الآن غريباً، تتكالب عليه هجمات الغرب الحاقد، ومؤامرت الصهيونية الخبيثة، ودعاوى الفكر الشعباني المتواصلة في كل مكان للنيل منه،

والفتك بأبنائه. وما الغزو الفكري، وبذور الفتنة الصهيونية، وحملات الغرب الحاقدة ضد الإسلام وأهله إلا صورة من صور ذلك الاغتراب الذي يعيشه الإسلام، وما اجتياح الكيان الصهيوني لأرض فلسطين، وغرس بذور الفتنة في لبنان والعراق، وقتل الصرب لمسلمي البوسنة والهرسك إلا براهين دامغة، تقطع بأن نظرية المؤامرة قائمة في ذهنية الغرب. إن القلوب الكسيرة وسط المنون وفي خضم ذلك الشر الأثيم لتضرع إلى الله حائرة وباكية، يقول العطوي في مناجاة شفيفة مع رب الأنام:

يا إلهي نكون أو لا نكون	وجم الكون واحتوانا المنون
يا إلهي تفرق الجمع عنا	فإذا الأرض لجة وسفين
وإذا نحن فوقها نتلوى	فوق موج معاند لا يلين
ولج الظلم كل حي وبيت	وعلت منه صرخة لا تلين
يا إلهي ذوائب الليل شابت	وعلى الأفق كدرة ومزون
ظن بالفوز والسلام علينا	عالم خادع حواشيه جون

إنه الاختزال الشعري والاستشراف الشعري الذي يختصر المعاناة في لحظة زمنية شفيفة، يهرع فيها المسلم إلى خالقه، ويلقي بهمومه على عتبات أبواب رحماته. بيد أن الأمر يحتاج إلى صحوة إسلامية وفكرية تصيب كل جوانب الحياة في بلاد الإسلام. إن القضية من الأهمية بمكان، لكونها تمس عقيدتنا من ناحية، وتتعلق بتلك الجدلية الكبرى: أن نكون أو لا نكون..!

ليت علماءنا يبنون لنا معالم تربية جديدة تؤهل شبابنا لفكر واضح ومستنير، وتعبد الطريق لثورة فكرية ومنهجية، وتشحذ الهمم وتستنهض العزائم، لبناء فرد مبدع، منجز، قوي، متلاحم مع مجتمعه تزدهر فيه قوة الحق التي تحفظ القيم، وتعيد الحق إلى أهله. ولما كان الوطن عظيماً في خلد كل عربي ومسلم، فلا بد أن تكون لغة الشعر حين تستدعي ذلك الوطن العظيم عظيمة هي الأخرى، والشاعر العطوي في ديوانه الأول (بوح

الروح) يقف مفتخراً بوطنه، ويصور مصادر التكوين الذهني لشباب الأمة فيما يتعلق بهويتهم الإسلامية، وانتمائهم للوطن السعودي.

رفرفي يا راية الحق المبين
واحلمي دستورنا وامضي به
عشقنا أنت وغايات المنى
واخفقي بالعز خضراء الجبين
في رضا الخلاق رب العالمين
أن تدومي رغم كيد الكائدين

وفي ديوان (على حافة الصمت) يقول في قصيدة رائعة، معرباً عن ذلك الحب الكبير، وذلك الغرام الخالد:

نحبك ما حييت وما حيننا
وساماً محتويه وتحتونا
ونبضاً خافقاً بين الحنايا
وبين شفاهنا حقاً مبيناً
نقبل وجهك الممهور طهراً
ونخلصك المنى عسراً ولينا

وفي قصيدة له عنوانها (غنيتُ لك) في ديوانه (وطني.. غنيت لك) يقول الشاعر العطوي في رومانسية وطنية، إن جاز لنا أن نسمي ذلك التغزل في الوطن رومانسية وطنية:

وطنَ الرسالة
والطهارة
والسنا... ما أجملكُ
.... وسكتتي

وسكبتَ حسنك
 في عروقي
 في مدادي
 قبل أن أتففسكُ
 أن يستكين هواك بي...
 أن أسكنك
 وطني...
 بما شرفت منك
 كرامةً
 ومهابةً
 غنيتُ لك

والواقع أن المناسبات الوطنية كثيراً ما تثير كوامن الأدباء والمبدعين، فتتجلى إشراقاتهم الإبداعية، وتلتمع إشعاعاتهم الشعرية. وتبوك هذه البلد الحبيب، وهذا الجزء الغالي من الجزيرة العربية، شهدت زيارات متكررة للملك آل سعود، وأمرائهم، ومن أشهرهم الأمير سلطان بن عبد العزيز ولي العهد ووزير الدفاع والطيران. والشاعر يستقبله كل سنة بقصيدة ترحيبية تتجلى فيها الروح الوطنية، وديوانه (وطني.. غنيت لك) حافل بهذا النوع من القصائد، ومن بينها هذه القصيدة الجميلة التي أسماها (سلطان الأحبة والعدا)، وكانت بمناسبة عودته سالماً إلى المملكة بعد رحلة علاج في مشفاه بجنيف، حيث يقول:

شُفي السخاء وعوفي الإيثارُ
 وعلا وجوه العالمين نضارُ
 وتضوعت بين النجوم بشارة
 علوية همست بها الأقمار

رقت كأنسام المساء عدوبة وجرت وفي أعطافها آذار

وقصائد العطوي التي تشتبك مع الواقع ، وتنثف فيه ثورته الشعرية كثيرة في إبداعه. إن إشراقاته الشعرية لا تكاد تخبو جذوتها إزاء تلك الأحداث الجسام التي تحدى بالأمّة العربية والإسلامية، وثأثرته الشعرية لا تقبل أن تقف صامته أما ما يتعرض له الإسلام وأهله من مكائد ومؤامرات، لقد أنشد يقول ثائراً في قصيدته (مدريد):

يا بنت أندلس مضجاع
ليتك الجرح الوحيد
القدس هاهي والخليل تضاجعان بني يهود
ترحمان على صلاح الدين

وفي الأبيات استدعاء للرمز التاريخي المتمثل في (صلاح الدين)، بكل ما يستحضره ذلك الاسم في خلد كل عربي ومسلم من قيم السماحة والرحمة، ناهيك عن النخوة والمرورة، وبذل الغالي والرخيص من أجل نصره الله ودينه. أما عن تبوك، بلده الحبيب، وموئله الغالي، فقد تغنى بها في شعره، وأنشد لها بما يؤكد على تلك المكانة الأثيرة من قلبه، وفي ديوانه (وطني غنيت لك) أهداها قصيدته العذبة (تبوك.. والعيد)، وقد جاء في مطلعها:

تفتق الزهر - حسنا - في مغانيها
والعيد أرج - أفراحاً - أماسيها
فمن أفاح بروض مائج عبق
لمجلس ماج - من حسن به - تيهها
أتى الربيع وعاد العيد فاتلقت
مدينة أرقت عشقا أهاليها

تبوك والأمن والإيمان حاضرها
 موثق في عرى الأجداد ماضيها
 كزهرة من ندى الأسفار مفعمة
 جرى النسيم على نسيان من فيها

ثم هو يغرد كالبلبل الصداح في حبها ولعاً ومتمياً، إذ يقول:

يا واحةً من أناها ليس يرحها
 إلا وقد علقت آماله فيها
 ينسى بها نازح الأوطان غربته
 والنفس تلقى بها أفسى أمانها
 سحائب الجود ذابت في مرابعها
 فطاب للضيف أن يغشى مغانيها

ومن الملاحظ في شعر العطوي تلك الجمل الشاعرية الجزلة التي تستقي من التراث ألفاظها ومفرداتها، وتتكى على موروث القدماء من التعابير ذات الدلالات الموحية، والعمق التاريخي العربي، والتكثيف الفني لديه يحمل الفكرة على جناح العطفة بأسلوب لغوي عربي رصين حتى في تحليقه في فضاءات شعر التفعيلة لا يمكننا أن نسلبه هذه السمة المميزة لقاموسه الشعري.

وقد صرح في إحدى حواراته الصحفية قائلاً: أؤمن بالموسيقى في الشعر كشرط أساسي، وقبل البدء في القصيدة تحضر موسيقاها عندي، إضافة إلى أن قصيدة النشر لم تجد قبولاً لدى المتذوق العربي، وأرى ان التفعيلة كفيلة باستيعاب تجليات الشاعر؛ لما فيها من تحرر من قيد القافية والروي، واستيعابها للحس الموسيقي الذي يبقى ضافياً على النص جاذبيته.

ولا ننسى أيضاً قصائده التي أوقف تجربته الشعرية فيها على الإشادة بالإنجازات المعاصرة في المملكة عموماً وفي تبوك تحديداً. ومن ذلك قصيدته التي نظمها بمناسبة افتتاح النادي الأدبي بتبوك عام 1415هـ، والتي اختار لها عنوان (صرح المعاني)، إذ يقول في ثناياها:

سلام أيها النادي المفدى
أرق من النسيم على المغاني
لقد رسمتكَ أخيلة اشتياقي
كغانية تنوف عن المغاني
منمنمة الوشاح ببيت شعر
يردده الزمان على المكان
ألا إن البناء بغير أس
وإن طال البقاء به لفان
وجئتُ إليك مزفوقاً بشوقي
إلى لقياك يا عقد الجمان

ويخاطب أمير المنطقة الأمير فهد بن سلطان الذي بذل جهوداً لافتتاح النادي الأدبي قائلاً:

ناديت فاهناً قد أجت وحبذا ذاك النداء أتى بهذا النادي

وفي مناسبة تخرج دورة مكافحة الحرائق والإنقاذ الثانية عام 1417هـ بتبوك، أنشد قصيدته (تحية لرجل الدفاع المدني) الذي يقول في مطلعها:

قم حي هذا الضيغم الوثابا
 المرتدي عزم الكماة ثيابا
 المعتلي هام الحريق بساعة
 جذلي تهز الفارس الغلابا
 تراقص النيران تحت جناحه
 لولا العزيمة لا تطاق رحابا
 يجتاحها حتى تطأطأ هامة
 ويردها حتى تذل رقابا

ويقول عن مسقط رأسه (جبل اللوز) الذي يكن له العشق الصادق، ويحمل له في خاطره الذكريات الجميلة، تلك الذكريات التي تتعاقب أطيافها مع ذلك المنظر الخلاب لهذه البقعة الحبيبة إلى فؤاده:

يا جبال اللوز يا أخت السراة بلغ الشوق بقلبي منتهاه
 لو تبعت القلب فيما يبتغي ما برحت الجبل الصافي هواه

وتتجلى الحكمة في أشعاره واضحة، تشيع في ثنايا أبياته، وفي طيات جملة وعباراته الشعرية، وهي حكمة الرجل الذي خبر الحياة مجلوها ومرها، حكمة رصينة وجزلة، كتلك الرصانة والجزالة التي تصطبغ بها مفرداته الشعرية، تأمل مداعبته الرقيقة لطفله الصغير الذي لم يزل صفحة بيضاء لا تحمل سطرأ من عناء، ولا حرفاً من مكابدة، وهي مداعبة تنطوي على حكمة بالغة:

لست تدري يا صغيري ما بقلبي من هموم ترهات في سمائي تترامى كالنجوم

ليتني مثلك لا أعرف صحوى من غيومي تحسب الدنيا كما تلقى نعيما في نعيم

وربة الشعر عند العطوي دائماً ما تنزع إلى مبتغاها الأول، وهدفها الرئيس إلى الوطن الغالي، لتتغنى بأمجاده، وتشدو بأفراحه، وتقدم له فروض الولاء والتبعية. وها هو ذا العيد أقبلي، فإذا ربة الشعر في ركابه فرحة طروب، وإذا الشاعر يُهدي تحيته للوطن الحبيب، ويدعو الله له بدوام الرخاء والسعادة وصونه من الأحقاد والضغائن والفرقة، مشيراً إلى أن العيد هو هبة السماء للأرض الولود، والشعب المتحاب المتكاف، وهو فرصة لنبذ الفرقة والشتات

أعاد الله عيذك يا بلادي وضمخ بالمسرة كل ناد
وطرز فرحة الأطفال ثوبا والبسها المدائن والبوادي
لتنصهر المشاعر في انسجام وتصعد بالقلوب إلى الأيادي
فلكل ضغينة بالعيد تمحى وتبدل بالمحبة والوداد

مما سبق يمكن للقارئ العربي أن يقف على أهم الخصائص الفنية لشعر محمد فرج العطوي، وأن يستوعب أهم الأغراض والمقاصد الشعرية التي حلقت في فضاءاتها ربة شعره. بيد أن القارئ قد يناله نصيب من الدهشة إذا صارحناه القول بأن معظم شواهدنا الشعرية التي سقناها سلفاً هي في الواقع من طيات ديوانه الأول (بوح الروح)..!

وهو يمثل مرحلة الفتوة الشعرية الأولى عند شاعرنا، ونبضات قلبه في زمن الشباب الجميل. ألا يشاركني القارئ الكريم القول بأن العطوي كان منذ بداياته شاعر العربية النابغ، وفارساً موهوباً في ميدان الإبداع الشعري، لقد كان منذ بواكير عهده بالشعر مبدعاً، من أول قصيدة نظمها قريحته، كما اتسمت تجاربه الشعرية الأولى بالعمق الفكري، والنضج الفني. إن نتاجه الأدبي عموماً يؤكد على أن الشباب العربي، كان ولم يزل بخير، إذ يكشف عن نموذج من الشعراء الشباب، الذين مجدوا التراث، وعبروا عن قضايا الواقع، وأوقفوا أقدامهم في سبيل نصره الحق، ومحاربة أهل الباطل.

وظيفة الشعر المباشر من خلال شعر سعد الغامدي

"وتتجلى ملامح الحنة الفلسطينية في قصائد الشاعر
ويسكب قلمه الشعري مداداً مخضباً بلون الجراح،
ورائحة الدم، وتنسال عباراته الحارة على تعابيره
وعباراتة....!"

لاشك أن النقد العربي المعاصر شهد تطوراً ملحوظاً في أواخر القرن المنصرم، نتيجة
لجملة من العوامل تضافرت مجتمعة فأثمرت هذا التطور، ومنها انفتاح العقلية العربية على
الغرب، واستفادتها من نظرياته وأطروحاته ومناهجه، لاسيما المنهج البنيوي، الذي يُعنى
بدراسة النص الأدبي بوصفه بنية لغوية مكونة من عدة عناصر تنتظم وفق شبكة من
العلاقات الداخلية، بغض النظر عن المؤثرات الخارجية المتحكمة في النص على أهميتها.
"والنقد في أدق معانيه هو فن دراسة النصوص، والتمييز بين الأساليب المختلفة، وهو
روح كل دراسة أدبية"⁽¹⁾.

غير أن النقد في جوهره لا يكاد ينأى عن الذاتية والتأثرية؛ فالناقد لا يصدر في نقده
عن موضوعية كاملة، أو هوى مجرد، إنما هو حيال النص الأدبي إذا شرع يضعه تحت مجهره
المتأمل لا يكاد يسلم من تأثيراته الشعورية على انفعالاته الخاصة، وإلى تلك الإشكالية قد
فطن ناقد عالمي شهير هو (لانسون)، وأقر بذلك حين قال: "إذا كانت أولى قواعد المنهج
العلمي هي إخضاع نفوسنا لموضوع دراستنا، لكي ننظم وسائل المعرفة وفقاً لطبيعة الشيء
الذي نريد معرفته، فإننا نكون أكثر تمشياً مع الروح العلمية بإقرارنا بوجود التأثرية في
دراستنا، وتنظيم الدور الذي تلعبه فيها، وذلك لأنه لما كان إنكار الحقيقة الواقعة لا يحوها،
فإن هذا العنصر الشخصي الذي نحاول تنحيته سيتسلل في خبث إلى أعمالنا، ويعمل غير

(1) النقد المنهجي عند العرب - د. محمد مندور - ص 14

خاضع لقاعدة، وما دامت التأثيرية هي المنهج الوحيد الذي يمكننا من الإحساس بقوة المؤلفات وجمالها، فلنستخدمه في ذلك صراحة، ولكن لنقصره على ذلك في عزم، ولنعرف كيف نميزه، ونقدره، ونراجعه، ونحده، وهذه هي الشروط الأربعة لاستخدامه، ومرجع الكل هو عدم الخلط بين المعرفة والإحساس، واصطناع الحذر حتى يصبح الإحساس وسيلة مشروعة للمعرفة⁽¹⁾.

من هذا المنطلق رأينا أن آفة النقد في بلاد العرب ليست في ذاتيته أو تأثيرته، إنما آفته في تبني قناعات نقدية، ورؤى تحليلية لا يكاد ينفك من إسارها أو يجيد عن مسارها، وتستفحل الآفة وتعظم إذ يتصور الناقد أن قناعاته وحده هي الأجدر أن تتبع، والأولى أن يُرجع إليها وتُستشر..!

والملاحظ في الساحة النقدية أن النقاد على فريقين: أحدهما يحدد مساره النقدي في ضوء مجموعة من التصورات النقدية، والنظريات المنهجية لا يقبل عنها بديلاً، ولا يُعنى بسواها، وينزلها من نفسه منزلة القداسة والصحة الكاملة، وينظر إلى غيرها نظرة المسفه المزدري، والآخر يضع لنفسه منهجية عقلية في أعماله النقدية، يروض عليها وجدانه ويحدُّ وفقها من اندفاعه، فهو يتلقى النص على مهل، قارئاً ومتأملاً، ومستغرقاً في التأمل، محاولاً سبر أغوار النص وكشف أسراره، ومعرفة مقصود صاحبه، وصولاً في النهاية إلى إدراك أوجه الجودة، ومواطن الضعف فيه. ثم يصدر بعد ذلك على بينة ودراية كاملة أحكامه المنصفة، وآراءه المعتدلة.

والفريق الأول في رأينا قد حاد عن جادة الصواب؛ إذ إن العمل النقدي في جوهره عمل انطباعي ذاتي صرف، يعتمد في جانب كبير منه على ذائقة الناقد الفطرية، وتأثره الانفعالي، ومخزونه الثقافي والمعرفي، ناهيك عن امتلاكه لأدوات النقد ومقومات المنهج النقدي، ومن ثم فالقاعدة الأخرى أن تتبع، والأصل الأجدر أن يُحتذى من جمهور النقاد هو الاختلاف.

(1) منهج البحث في تاريخ الآداب - لانسون - ص 19

وعليه فإن الفكر العربي المعاصر في أمس الحاجة إلى منهج نقدي حدائني، يستقطب كل الاتجاهات، وينتصر لسائر التيارات، ويتبنى أطروحات أكثر اعتدالاً وأشد إنصافاً. بيد أن الذي دعانا إلى ذلك التصدير وتلك المقدمة هو واقع الإبداع المعاصر لاسيما الشعر في صحفنا اليومية، ونظرة نقادنا إليه، وطرق معالجتهم لنصوصه ومضامينه، فالشعر الانطباعي المباشر الذي يتدفق بتلقائية عفوية، لا يكاد يحظى بتقدير النقاد ورضاهم، بل قد تعزف بعض الصحف السيارة في بلادنا عن نشره كلية أو أن تقبل نشره ولكن في زوايا من الصحيفة مستترة ومخبوءة لا يكاد يعانق عيني القارئ.

ومن خلال الرصد النقدي للاتجاه التقريري المباشر في الشعر العربي نلمس جنوحاً لدى جمهرة من النقاد إلى تهميشه، ووصمه بالسطحية، وتجريده من جماليات الشعر وعذوبته، وكتاتهما - أي جمال الشعر وعذوبته - في زعم هؤلاء النقاد يقتضيان التأنيق في قول الشعر بعد ارتجاله، ونعني بالتأنيق تلك المراجعة والتكلف الذين يفرزان ألواناً من البيان والبديع في مفردات القصيدة وتراكيبها، وذلك ليس له وجود في الشعر التقريري المباشر على حد زعمهم.

وحجتهم في ذلك أن الكتابة التقريرية المباشرة يطغى فيها الإخبار والتعيين على حساب التضمين والمجاز والإيحاء، وتسود الجملة الخبرية على الجملة الإنشائية. فإذا كان الأمر كذلك فإن فريقاً من النقاد قد شمر سواعده للدفاع عن هذا الضرب من الشعر، وجهدوا في تلمس أوجه الجمال فيه، وبدلوا محاولاتهم في سبيل تزيينه وتنميته أمام القارئ العربي، وزعموا أنه يمثل الحضور الواقعي لتقلبات الحياة وتقلباتها، وأنه الأقدر على رصد أحداث الواقع وملايساته، وتصوير معاناة الفرد والمجتمع معاً، واستشراف المستقبل من خلال تلك المعاناة ونظروا إليه على أنه لون من ألوان الطبع في الشعر العربي، الذي لا يُعنى بتنميق الكلمات، والتكلف في صنع الصورة الشعرية؛ إذ الحقيقة أحياناً ما تكون أبلغ من الخيال.

على أية حال فإن المتأمل للحركة الشعرية المعاصرة في المملكة العربية السعودية يلحظ أن عدداً كبيراً من شعراء الطبع قد برعوا في قرض الشعر ونظمه، وأضحوا أعلاماً في

مسيرة الإبداع الشعري في الجزيرة العربية، ذلك لأنهم كرسوا أقلامهم ومواهبهم للتعبير عن قضايا الإنسان العربي المعاصر، وتدفقت شاعريتهم في تصوير أحداث الواقع العربي تصويراً صادقاً مبدعاً، ومنهم على سبيل المثال الشاعر عبد الرحمن العشماوي، والشاعر سعد بن عطية الغامدي وأما الشاعر الدكتور/ سعد بن عطية الغامدي فقد صحبته في مطولاته الشعرية المتواترة التي عانقت إشعاعاتها الصحف السعودية السيارة في كل مناسبة وطنية، أو عند كل حدث يهز الوطن ويعصف بالعالم العربي. وقد جمعها الشاعر في دواوينه الشعرية الأربعة:

- 1- شطآن ظامئة
- 2- بشائر من أكناف الأقصى
- 3- إلى العرين شاخاً
- 4- بعد أن تسكن الريح

وشعره يتشعق بوشاح الوضوح والصراحة، ويحتل الهم الوطني مساحة كبيرة من أشعاره، ويتناول من منظور ذاته الشعرية عديداً من القضايا والأحداث التي مرت بها الأمة العربية في حاضرها، غير أن رؤيته إلى تلك القضايا وهذه الأحداث تختلف اختلافاً جذرياً عن الرؤية العادية العابرة، إنه يرى لمسافة أبعد وأعمق، الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأن موضوعاته الشعرية لاسيما تلك التي عرض فيها لأحداث الأمة العربية، كفلسطين، وحرب الخليج، وغيرهما، لم تكن رصداً تسجيلياً واقعياً، إنما كانت رؤيته الخاصة التي تتوغل في أعماق الحدث، وتستشرف ما سوف ينجم عنه من تداعيات.

تأمل أبياته الشعرية التي أنشدها في أعقاب حرب الخليج في جهادى الثانية عام 1411هـ، واصفاً تلك الحماسة العراقية الكبرى التي لا تخلو من حقد وعنجهية، إذ سولت للنظام نفسه الأمانة بالسوء، المتخمة بالكبر والغرور، أن يعلن حرباً ضارية ضد الشقيقة الكويت...!

والذي يشتكي الإخاء منه الإخاء
وانتماء يصح فيه الولاء
وانتقاه القريب والغرباء
رب سعي أولى به الإبطاء⁽¹⁾

كيف تصفو حياة من فاض حقداً
ظل فكراً ومنهجاً واعتقاداً
واستبي حرمة وأشقى جواراً
وسعى في الهلاك سعي حثيث

وتتجلى ملامح المحنة الفلسطينية في قصائد الشاعر، ويسكب قلمه الشعري مداداً مخضباً بلون الجراح ورائحة الدم، وتنسال عباراته الحارة على تعابيره، وعباراته، كاشفة عن حجم المأساة، وعن عمق الألم العربي، الذي ما فتئ يرتع في جسد الأمة العربية جاحماً وجائراً، منذ اجتياح الآلة الصهيونية الغاشمة الأراضي الفلسطينية، يدعمها اللوبي الصهيوني في أمريكا.

والهاجس الفلسطيني يخيم على قصائد الشاعر، وديوانه (بشائر من أكناف الأقصى) يحوي عدداً كبيراً من تلك القصائد، ويقدم لنماذج فدائية مشرفة في مشوار الكفاح الفلسطيني، أمثال محمود أبو الهنود، وإيمان حجوة، ومحمد الدرّة، والشيخ أحمد ياسين.

تمرد هذا الليث فيمن تمردا وقد كان
تمرد واختار الحجارة عدة فأهوى
تمرد هذا الزحف فتحا وثورا
فيا صبية سنا ويا سادة جحى
رفعتم لواء لو أقيم عموده
غسلتم به عار النفوس وذلهما

غضا قبل فاشتد واعتدى
بها تستهدف الوجه والييدا
وجمرا بأكباد الطغاة توقدا
ويا قادة عزما ويا فتية يدا
على حجر لأهتز مجددا وأوردا
وأيقظتم عزما أذل واخذدا⁽²⁾

(1) ديوان بعد أن تسكن الريح - سعد الغامدي - ص 160

(2) ديوان بشائر من أكناف الأقصى - سعد الغامدي - ص 143

إن أصغر طفل في الشارع العربي يدرك تمام الإدراك أن العنجهية الصهيونية علي أرض فلسطين إنما يقف وراءها داعماً ومسانداً ومشجعاً الولايات المتحدة الأمريكية، وأن اللوبي الصهيوني داخل الكونجرس الأمريكي وخارجه يمارس لعبة الضغط النفسي على كل قلم حر، ورأي مستنير داخل أمريكا.

من علم الجلاد أن يتجبرا إلى الأشد تجبرا وتكبرا
ذاك الذي أواه وهو مشرد وأقام دولته وأزر وافترى
وسعى له في المحافل ناصرا متوددا حيناً وحيناً منذرا

والعقل المنصف في كل مكان يعي هذه الحقيقة المرة، ويقف ذاهلاً أمام ذلك التناقض الهزلي في المواقف والمعايير، ففي الوقت الذي تصم فيه أمريكا شعب فلسطين بالإرهاب وهو صاحب الأرض، تعطي الحق لدولة بني صهيون أن تمارس وحشيتها وعدوانها على أصحاب الأرض والحق. إنها حقاً مهزلة كبرى.

إن العدو الصنف الأمريكي التي تبني لإسرائيل مجداً أكبرا
وتمدها بعتادها وبمالها ورجالها وتفويض حتى تكبرا⁽¹⁾

إن الشعوب في حاجة إلى هذه المباشرة الشعرية كما أن المثقفين بحاجة إلى الإبداع التأملي.

ويمثل ديوانه ((إلى العرين شاعراً)) الوطنية وعوامل جذورها وتلاهما، وعمق التواصل بين القديم والحديث، ومن أبياته الرقيقة التي تغنى فيها بالوطن، مهد الرسالة المحمدية، ومهبط الوحي، هذه الأبيات الرائعات التي يقول فيها:

(1) ديوان بشائر من أكناف الأقصى - 22

وطني....
 أنت المورق
 بالخير وبالبر والحسنات
 أنت المشرق بالوحي وبالهدى وبالبركات
 أنت المطلق
 في الناس الحريات
 حتى لا يعبد إلا الله
 وطني....
 أنت الشامخ فوق الأوطان
 أنت العالي قبل البنیان
 أنت الموقظ في الإنسان الإنسان
 أنت عنوان المجد العنوان
 وبداية كل زمان ونهاية كل مكان⁽¹⁾

إنها مقطوعة شعرية تشبه الغزل، ولكنه غزل في الوطن الخالد، يعتمد فيه على إضاءات المعاني، وإشعاعات الدلالات، وإن غلب عليها بعض المباشرة، وطغت عليها الأساليب الخبرية، ولا ضير إذا طغت المباشرة على الشكل، وتوهجت المعاني والمضامين في ثنايا القصيدة.

أما عن الزمن في شعر الدكتور سعد عطية الغامدي فيشكل ملاذاً آمناً، يستدعي منه القيم السامية، والفضائل الحسان، ويُسقط ذلك على الواقع المعاش، لاستلهاام العبرة، واقتناص الحكمة، ومن ثم يُعبد الطريق لصنع مستقبل أكثر وميضاً وإشراقاً.

(1) ديوان إلى العرين شأخاً - سعد الغامدي - ص 187

مورد الشر وعن درك الشقاء
ثابت الأركان مرفوع البناء
والأنفس والدين وناموس الذكاء⁽¹⁾

قام في الناس يرد الناس عن
ويقيم الحق نهجا بيننا
حفظ الأموال والأعراض

فهذه مكونات فكرية، وقيم منهجية تنزلت بها الأديان السماوية، وتلقاها الضمير الإسلامي منذ زمن بعيد، ولم تدع الديانات السماوية لغيرها من المذاهب الوضعية مجالاً للتحذلق أو المزايدة، ولكنها في ذات الوقت لم تحكر على العقل البشري، ولم تسفه جنوحه إلى التأمل في الملكوت، بل أوصت به، ودعت إليه، وأعلنت في غير موضع احترامها للعقل، ومنجزاته الصالحة المفيدة، وهذه الدلالة تبدو واضحة في البيت الأخير السابق.

إن مما يلفت نظر الباحث في شعر الدكتور الغامدي ثقافته العالية، واطلاعه على تاريخ الشعوب، وقدرته البارعة في اقتناص الحكمة من الماضي، وسوقها إلى القارئ بأسلوب سهل ممتنع، قريب اللفظ، بعيد المعنى، مشع الدلالة، ومن ذلك قصيدته المطولة (بيان) التي أودعها طيات ديوانه الشعري (شطان ظامئة)، وهي قصيدة حق له أن يفخر بها؛ إذ هي تمثل مختصراً وجيزاً للتاريخ المعاصر مجروبه وتطلعاته وانكساراته وسقطاته.

لقد أودعها إرهاباته وهواجسه وتأملاته التي لا تخلو من الريبة والشك، ولكنه وضعها أمام القارئ العربي، عسى العقل النائم في سبات عميق يفيق ويصحو:

هذا عصر العلم

وعصر الحروب

وعصر المكر

وعصر... سياسات الأهواء

كم سحقت في هذا العصر شعوب

كم سفكت في هذا العصر دماء

(1) إلى العرين شاغراً - ص 91

هزم اليابان الحلفاء
مدن حرقت
نسفت⁽¹⁾

وفي موضع آخر من ذات القصيدة أنشد يقول:

هذا يا ولدي عصر الميزان الأعمى
كفّ تغرق في النعمى
تستجدي كفاً مجدبة
تشبعها لظما..
إن يداً تطعمك اليوم
غداً ستجوع أولادك
إن يداً تكسوك اليوم
غداً ستعري أحفادك
إن يداً تلهيك اليوم
غداً تفرش بالشوك مهادك

وفي موضع آخر، أنشد قائلاً:
يا ولدي
هذا التاريخ..
كتاب..
لا يملك
أن يكتبه..

(1) ديوان شيطان ظامئة - سعد الغامدي - 213

إلا من يقرؤه سطرأ سطرأ
إلا من يتقنه حرفاً حرفاً
إلا من يبصر كيف تدافع مثل الناس
الأسباب
ويرى كيف تُصاغ الأحداث
فيصنع في الدنيا أحداثه..

وربما ذكرتني قصيدته تلك بالشعر التاريخي عند شوقي في ملحنياته التاريخية التي كتبها بلغة الشعر، كمجنون ليلي، وكليوباترا، ومصراع قمبيز، وغيرها، بيد أن الغامدي قد نظمها على طريقة الشعر الحر، أو قصيدة التفعيلة، فيما نظم شوقي تاريخياته الشعرية على نهج القصيدة العمودية.

وفي رأيي أن القالب الكلاسيكي العمودي أكثر مقدرة على رصد وقائع التاريخ من الشعر الحر الذي يعتمد على السطر أو التفعيلة الواحدة، وإلا سنملاً حينئذٍ مجلدات شعرية في وصف حادثة واحدة.

والواقع أن شعر الغامدي يسير على نهج واحد من التقريرية والمباشرة والوضوح، والاستنجاد بالألفاظ المتداولة، والتراكيب المعيارية المباشرة التي تنأى عن الاستعانة بصور البيان وضروب البديع. ولست أدري ما الذي يمنع شاعرنا عن التنويع؟!

أما المضامين الشعرية التي حلقت في أجوائها ربة الشعر عند الغامدي، فهي في أكثرها وطنية، يكسوها الطابع الإسلامي، والهلم الإصلاحية. وقلما نجد الأشعار التي تدور في فلك الذات الشعرية عنده، ومن ثم فقد تجاوز ذاته، وجاء شعره استجابة لفكره، وتلبية لانفعالات وجدانه بالواقع الخارجي وقضاياه الجدلية، وجاءت لغته ومفرداته واضحة وقريبة، لا تعقيد فيها ولا إبهام، وجاءت صورته الشعرية في أغلبها مباشرة، ليس فيها تكثيف دلالي. ومن أشعاره العذبة ذلك الشعر العاطفي الرقيق، من قصيدة (رويداً رويداً):

أراك الصباح الندي الجديداً
 أراك المساء الأليف الودوداً
 يلاحقني أينما يمتُ
 خطاي ويسري وئيداً وئيداً
 أراك نسيماً يفوح عبيراً
 وألحافاً روضاً يفيض وروداً
 أراك الدُّنى أجتلى حسنهما
 وأذهب فيها بعيداً بعيداً
 إلى حيث تمضي نجوم المساء
 ويرجع نور الصباح وليداً

وعن ذاته الشاعرية الرقيقة يصحبنا ديوانه (شطان ظامئة)، ليقدّم لنا ملمحاً آخر من ذاتية الشاعر، وهمومه الخاصة، ومن بين القصائد العذاب التي تناثرت بين دفتي الديوان هذه الأبيات الشعرية الشجية الحزينة، التي يقول فيها:

اليوم يا دعاء
 لو تدرين..
 أتيت حيث ترقدين
 أتيتُ أحمل الأسى العميق
 والحنين
 وباقه من الدموع تنبت السراب في الجفون
 معذرة حبيبي
 فما اشتريتُ عند عودتي
 من مكتبي إليك لعبة

ولا اشتريتُ في نهاية الدوام
يوسفياً
إذ تقشريه وتفرحين
لأنه ينسل في سهولة
كأنما يداعب اليدين
لم أشتري يا لوعتي وحرقتي
لأنني...
نسيتُ أين ترقدين

ومن مراثيه الرقيقة التي برع فيها صوتاً شجياً حزيناً، هذه الأبيات الشعرية التي رثى بها شيخ الإسلام محمد بن عثيمين، الذي وافته المنية في 20 شوال 1421هـ، والشاعر إذ يرثي الفقيه رحمه الله إنما يرثي العالم العربي والإسلامي الذي فقد فقيهاً جليلاً، وشيخاً راسخاً في العلم، قلّ أن يوجد بمثله الزمان.

فقد كان ذا علم ورأي وحكمة	وقد كان ذا فقه يضيء ويسطع
يفسر آيات الكتاب فتتجلى	فهوم ويجفو عن سبيل تنطع
وكان عطوفاً في المواقف لينا	يجب خلق الله في الدين إن دعو ⁽¹⁾

وفي رثائه للدكتور محمد عبده يماني أنشد يقول:

أبا كل معروف أخا كل عارف	وصاحب قلب بالمودة عاطف
وذا خلق سام، وذا وصل حادب	على أهله يدعو لطيب المواقف

(1) بعد أن تسكن الريح - ص53

ضياء بهيا دونه وصف واصف
وزاد بقسط من شمائل آلف
سعى بيننا فيها بروح ملاطف
"مقام نبي الله فوق الصوارف
"وللحزن ليل في مواجد لاهف
رفيعاً سما فوق الدموع الذوارف
أما كنت مأوى يحتوي خوف خائف؟!
بأن يظهر الشكوى لعصف العواص؟!
وجود، وإحسان، وغوث لهاتف
وقام يزكي عن قعود الخوالف

ندياً كوجه الصبح يمنح وده
تألق نجماً في المحبة ساطعاً
أحبو رسول الله" كانت رسالة
وصونوا بنيكم بالمحبة"، واجعلوا
أبا ياسر" ذكراك كالشمس بيننا
وفي العين مما شدت للعين معلماً
أما كنت صوتاً للضعاف مجلجلاً
كبيراً على الشكوى، وكيف لشاهق
ولكنه ود، وبر، ورحمة
سعى لكتاب الله سعي مجاهد

خلاصة القول: إن دواوين الغامدي الشعرية في مجملها سجل لواقع الأمة الإسلامية والعربية المعاصرة وسفر كبير يدون أحداث العالم الإسلامي الكبرى من الحروب، والمآسي، والبطولات الفدائية، والمشاهد الوطنية، والقضايا المصرية التي عصفت بالضمير العربي في فلسطين، وبيروت، ومصر، وهكذا ترافقنا قصائده، وتصحبنا دواوينه، تنقلنا من واحة إلى واحة، ومن ملحمة إلى أخرى، تارة تبشر بالأمل، وتارة تلقي بنا في أتون المأساة حتى نعيشها عن كثب، وفي النهاية لا نملك إلا أن نقول: هو شاعر ذو رؤية، يرسم فكراً، ويشكل رؤية خاصة به عن الحدث من منظوره هو، ولكنها مع ذلك تمس شغاف قلوبنا.

معالم التجديد في شعر علي آدم

"والواقع أن الشاعر لم يجز لذاته التحلل الكامل من القيود الشعرية من حيث الوزن والقافية، والمحسنات البلاغية، ولم يشأ لموهبته الشعرية أن تنقاد كلية إلى ذلك الاتجاه الرمزي...."

لا شك أن المبدع الذي يمتلك موهبة متوقدة، وخيالاً خصيباً، ولغة سلسة، وفكراً راقياً، ودراية بقضايا العصر ومتطلباته، وإحاطة بالتراث ومعتقداته، هو المبدع الأقدر في توصيل قضاياها وأطروحاته إلى المتلقي. ولا ريب في أن الرسالة النصية الأدبية شعراً كانت أو نثراً إذا توافرت لها جودة النظم، والصدق الفني، والفكر الهادف ستبقى فيضاً متواصلًا، وأثراً خالدًا يخترق عوالم المتلقي جيلاً بعد جيل. وأياً ما يكن فإن التجربة الأدبية الخالدة تأتلق، وتُشع كلما كانت نصاً يعكس الواقع انعكاساً صادقاً وأميناً، على نحو يميس وجدان الجماهير، ويولد في خواطرهم ذات الشعور، ونفس المعاناة.

بيد أن التواصل بين المبدع والمتلقي إنما يقوم على عدة أسس، وتتحكم فيه جملة من المكونات، التي تشكل في جوهرها مكونات عملية الاتصال: المرسل، والمستقبل، والرسالة. فالمرسل يريد أن يقدم فكرة أو وجهة نظر معينة، وهذا ما يشكل رسالة أو خطاباً، أما المستقبل فهو يتلقى هذه الرسالة كما يفهمها هو من النص، وهذا تأويل للخطاب أو قراءة له⁽¹⁾.

من هنا تنبثق الإشكالية الكبرى، والجدلية الشائكة: كيف يتسنى للأديب أن ينتج أدباً يصل إلى أذواق الناس عامة، دون أن يقدم عملاً مبتذلاً فنياً، أو تنازلات على حساب جودة العمل وتوجهه إرضاءً لأذواق المتلقين، وضمناً لكسب إعجابهم؟!

(1) رؤية المبدع جزء من وعي المجتمع - صباح فاروق كيالي - مجلة العربي الكويتية عدد 529 - ديسمبر 2002

فالمبدع من حقه أن يسعى إلى التفرد، والتميز، والصدق الفني، ولكنه في ذات الوقت يريد أن يدخل إلى عالم المتلقي من دون تملق أو تنازلات.

والمتلقي تواقة روحه إلى أن تجد في الفن الأدبي مبتغاها، وتطمح في أن تعثر فيه على ضالتها، من حيث التعبير عن أحلامها، ومعاناتها في الحياة، غير أن ذلك يقتضي من المتلقي ذاته أن يكون هو الآخر على مستوى النص، ومؤهلاً وجدانياً وفكرياً لاستقباله وفهمه وإدراكه، ولكن سنة الله في الكون قضت سلفاً باختلاف أذواق الناس، وتفاوت قدراتهم الإدراكية، وتباين مشاربهم وأهوائهم، الأمر الذي يوقنا في إشكالية أخرى، ألا وهي تباين الرؤى حول النص الأدبي، وتعدد قراءاته، وتفاوت تأويلاته وتفسيراته. وتعظم هذه الإشكالية وتصبح أكثر

تعقيداً إذا كان النص الأدبي غارقاً في الرمزية، جانحاً إلى الإبهام والغموض، مشتملاً على استبطان الأديب لذاته واستغراقه فيها!..

وقضية الرمزية في الشعر العربي المعاصر ذات صلة وثيقة بقضية الحدائث الشعرية التي ألفت بدورها في البيئة العربية إبان النصف الأول من القرن العشرين، ثم سرعان ما أيعنت ثمراتها خلال النصف الثاني من ذات القرن.

فلا تكاد تذكر القصيدة العربية الحديثة في أوساط النقاد وجمهور المثقفين، حتى ينصرف الذهن مباشرة إلى ذكر الرمزية الشعرية. غير أن قضية الرمزية في واقع الأمر ليست بجديثة، فقد حملت إلينا كتب التراث محاولات متفرقة ومتناثرة، لبعض شعراء العرب القدامى الذين مالوا في بعض أشعارهم إلى الرمزية، وجنحوا في إبداعهم إلى الإبهام والغموض، وكان على رأس هؤلاء بشار بن برد، وأبو نواس، ومسلم بن الوليد، لكن الشاعر أبا تمام قد فاق وبدء، وأسرف فيه حتى اشتهر به، بل وتشتهر عبارته: "لم لا تفهم ما يقال رداً على أحدهم حين عاتبه قائلاً: "لم لا تقول يا أبا تمام من الشعر ما يفهم؟"

وفي كتابه "نقد الشعر" ساق قدامة بن جعفر تعريفاً اصطلاحياً للرمز بقوله: "أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معانٍ كثيرة بإيماء إليها، أو لمحة تدل عليها، كما قال بعضهم وقد وصف البلاغة فقال: هي لمحة دالة"⁽¹⁾.

بيد أن الاتجاه الرمزي بالمعنى المستغرق في الإبهام والغموض لم يتمثل جلياً في الحياة الشعرية إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وبواكير ظهور القرن العشرين، حيث انتظم في ذلك الاتجاه عدد من شعراء العربية، متأثرين بالمدرسة الرمزية الفرنسية. وتُعد قصيدة "نشيد السكون" للطبيب الشاعر أديب مظهر (1889-1928) بداية الاتجاه الرمزي في الشعر في لبنان.

وقد تيسر لهذا الاتجاه الذبوع والانتشار على يد الشاعر سعيد عقل، "ذلك أن هذا الشاعر وضع أسس هذا المذهب في مقدمة مجموعته الشعرية: "المجدلية" التي صدرت عام 1937. وهذه المقدمة عبارة عن محاضرة كان الشاعر قد ألقاها في قاعة ألوست هول" في الجامعة الأمريكية في بيروت بعنوان: "كيف أفهم الشعر؟"⁽²⁾.

لقد كان طبيعياً أن يكتنف الغموض التجربة الشعرية الحديثة، لاسيما عند شعراء عرب آمنوا بأن الشعر تجاوز للظواهر، ومواجهة للحقيقة الباطنة في شيء ما، وأن اللغة ينبغي أن تحيد عن معناها العادي، وأن الشعر نقيض الوضوح الذي يجعل من القصيدة سطحاً بلا عمق على حد زعم أدونيس.

"ويدافع النقاد المحدثون عن هذه الظاهرة، بل ويذهب بعضهم إلى حد القول أن الشعر هو الغموض، وتصبح ظاهرة الغموض في الشعر الحديث حسب هؤلاء دليلاً على أن هذا الشعر قد حاول التخلص من كل صفة ليست شعرية، والاقتراب من طبيعة الشعر الأصلية"⁽³⁾.

(1) نقد الشعر - قدامة بن جعفر - ص 90

(2) الحدائث في النقد الأدبي المعاصر - عبد المجيد زراقت - ص 3

(3) الحدائث في الشعر العربي المعاصر بيانها ومظاهرها - محمد حمود - ص 118

لكن تيار المحافظين الذين نظروا إلى ذلك الاتجاه الحدائى في الشعر نظرة تتسم بالريبة والتوجس شنوا حروبهم ضده، وطعنوا فيه، ووصموه باللاشعرية، لخروجه عن الذوق العربي الخالص، ونزوعه إلى الإغراب والإيهام، لكن هذه الدعوات الصريحة إلى مناهضة مذهب الغموض كانت تواجه تياراً شديداً، وما زال يشتد، كلما مضى ركب الحياة، ومما زاد الخطب تفاقماً أن الأدباء قد اعتقدوا أن المعاني قد نضبت، وأن لا ملكية فيها ولا فضل، فليس أمامهم إذن إلا الصياغة، وإلا اللعب بالألفاظ، لستر المعنى المكشوف، الذي تداوله الأدباء جيلاً بعد جيل، فاعتمدوا على ألوان من المخاتلة في التعبير: كاللغز، واللحن، والتورية، والاستخدام⁽¹⁾.

وقصة الحدائة الشعرية المعاصرة في المملكة بدأت تلوح بشائرها منذ ما يقارب ثلاثين عاماً. وكان لمدينة تبوك الحظ الوافر منها، فمنها انطلق عبد الله الصيخان، ومحمد الحربي، وخديجة العمري، والدكتور نايف الجهني، والدكتورة فاطمة القرني، والأستاذ غرامة العمري، والشاعر المهندس محمد فرج العطوي، وصالح العمري، وعلى آدم. وهم شعراء تفاوتوا تجديداً وتقليداً، وأصالة ومعاصرة، وإن اتسمت تجاربهم عموماً بطابع حدائى ملحوظ.

والشاعر علي محمد آدم هوساوي أحد شعراء تبوك، تجربته في الشعر تجربة واعدة، تأتلق بالوهج الشعوري، والعمق الفني، والتكثيف الإيحائي، وإن غشيتها الغموض أحياناً، وحطت على مراتعها أطياف الرمزية والإغراب، ولعله في كثير من أشعاره لم يشأ أن يكون سوى نفسه، أي أن يكون الشاعر نفسه، أي: أن يجسد في عمله شخصيته وثقافته، مكاناً وزماناً، حراً غير مرتهن للماضي ولا للآخر، وأن يسعى إلى أن يطور التجربة الشعرية، بوصفها تجربة إنسانية، ذات وظيفة بنائية مستمرة⁽²⁾.

وحين يقف المتأمل على عتبات ديوانه "مسارات في ذاكرة السراب" لاشك تستوقفه هذه الومضة الشعرية التي حملت نفس عنوان الديوان، ويحار المتأمل من الوهلة الأولى؛ إذ

(1) الرمزية في الأدب العربي - د. درويش الجندي - ص 63

(2) حدائة النص الشعري في المملكة العربية السعودية - د. عبد الله أحمد الفيبي - ص 12

كيف يتسنى للمرء أن يتخيل مسارات تتجلى أو تلوّح في ذاكرة سراب؟!، فالسراب وهم
وخيال لا يستندان إلى واقع، ومن ثم فلا شك أن تكون تلك المسارات هي الأخرى ضرب
من الوهم، ونوع من الخيال الصرف.

انظر إليه وهو يقول:
أخطُ يدي ليدي
فتحط النوافذ أقدامها
وتعود الشوارع نائرة
شعرها
ويديها
وقامتها
فتمر يدي من هناك
لتسأل: ماذا جرى؟!
وتصطخب الشاعراتُ
وأضواء تلك المدينة
ماذا هناك؟⁽¹⁾

بيد أن الذاكرة تعالق بشري يشي بالحنين إلى أحداث مضت وولت، ويجرض على
استدعاء وقائع طويت في سجل الماضي بجلوها ومرها، ولكننا لا نملك مع ذلك وصمها
بالسراب؛ إذ أن كثيراً من ذكريات الماضي ما يترك آثاراً باقية في مسارات حياتنا، بل ويكون
مؤثراً فيما نتخذ من قرارات ومواقف في قادم أيامنا.

وأياً ما يكن فإن القصيدة موعلة في الغموض، ومستغرقة في الرمزية إلى الحد الذي
يجعل الأمر أمام المتلقي مستغلقاً ومعقداً، على نحو لا يكاد يستبين معه مقصود الشاعر أو

(1) ديوان مسارات في ذاكرة السراب - علي آدم - ص 7

مراميه. فكل مقطوعة منها هي قطعة من سراب، تغري القارئ بالدخول إلى عالم القصيدة، حتى إذا فعلها لم يجد شيئاً؛ فالمعنى مبهم، والدلالة غامضة، والقصيدة غارقة في بحر اللامنتهى، بل إن تأثيرها يكاد يكون كلمح سراب، وتبقى الحقيقة الوحيدة هي ذلك السؤال المطلّ من ثنايا القصيدة: (ماذا هناك؟!)

يراودني الصمتُ

تنطلق القافلات بأسمارهن

وتخرج من بين الجموع

قصائد... بل نسوة في المدينة

ماذا هناك؟

وتمضي يدي

لترافقها اللانحاتُ

وبعض شذى

من تراب المدينة

ماذا هناك؟

وتبكي يدي ليدي

كلما نازعتها الحقيقةُ

أوتارها

والمدينة مأخوذة بيدي

ويدي تستغيث يدي

والحقيقة أنني تساءلت:

ماذا هناك؟⁽¹⁾

(1) مسارات في ذاكرة السراب - ص 8

وتمثل "مسارات في ذاكرة السراب" ظاهرة الحداثة الشعرية التي تُعنى بالبحث عن الجديد والتعلق به، والاستجابة للاتجاه الرمزي، وإخراج اللفظة عن مدلولها المعجمي، وتحميلها دلالات جديدة موحية، ولكن الإسراف قد يحمله إلى الخروج عن القياس اللغوي أحياناً كما في عبارته الشعرية: "فتحط النوافذ أقدامها" عموماً فالشاعر علي آدم قد تفتحت عقليته على ذلك التيار، وجادت قريحته على ذلك المثال، وأجر فيه إبحار الماهر حتى أدرك مفاتيح مساربه ومناهجه، غير أن الحق أقول: إن شاعرنا لم يشأ أن يضع نفسه في هذا القالب الشعري الجديد بل لاح في كثير من قصائده واضحاً وصريحاً يلقي بالفكرة في جعبة المتلقي ناصعة متوهجة ومؤتلفة، ومن ذلك قصيدته "الانتشار" الذي أنشد يقول فيها:

أراك احتملت صدى الأودية
وأصبحت تمشي على هام صوتك
تقيم المنارات
للحائرين الحزاني
وأنت الذي
أقفل الحزن
أبواب دارك
فلم تُحسن الكسر
حتى تحولت في ثورة البوح
رمز الحزاني.
ولم تحمل الفأس تنجو بأحلامك
العائيات الغريبة⁽¹⁾.

(1) المرجع السابق - ص15

إنها مناجاة الروح المعذبة التي تحيا الغربية في عالم غريب، ودنيا لعوب، وتكتوي بنار الانفصام النفسي بين ما يبدو منها ظاهرياً للناس، وما يعتمل في داخلها من ألم الجراح، وجراح الألم...!

والواقع أن الشاعر لم يُجز لذاته التحلل الكامل من القيود الشعرية من حيث الوزن والقافية والمحسنات البلاغية، ولم يشأ لموهبته الشعرية أن تنقاد كلية إلى ذلك الاتجاه الرمزي، في حرية فردية، تبيح له كل ما يريد من التصرف في اللغة، وتراكيبها، والوزن وروعه وموسيقاه، فهو احتفظ بفصاحة اللغة، وكذلك سلامة التراكيب.

ففي قصيدته الهامسة "ضجيج" نلاحظ ذلك الالتزام الذي يمسك بالمفردة الشعرية فيخضبها بمداد الجزالة والفصاحة، ويشيع في القصيدة جواً من الموسيقى الداخلية، ويولد في المتلقي إحساس الحيرة والقلق المشوب بالدهشة من جراء انطلاق الروح الغامضة في الحياة، تلهو بلحظتها، فيما المقادير قد وارت لها في جعبتها أموراً جسام، وأحداثاً ذات شأن.

تولت باللحظة الراهنة

وأقفلت إطلالة الأزمنة

وعاشرت أهواءك المزمنة

فكيف استعرت من الأمكنة

أساطير تبدو لك ممكنة

**

**

توالت عليك أيادي الفصول

وما زلت تجرين بين الحقول

تعيشين وهم احتضان الوصول

ولن تحملي غير خوف الطريد⁽¹⁾

(1) مسارات في ذاكرة السراب - ص 21

إن مما يتسم به الشعر الوجداني في كثير من قصائده وتجاربه شيوع مسحة من الحزن والكآبة، والاستغراق في الذات، والهروب من الواقع، والتوحد مع الطبيعة، وتأتي الألفاظ في قالب القصيد الوجداني هامسة، رقيقة، عذبة، بعيدة عن الضجيج والصخب، تتخذ من المناجاة مع الذات أو الحبيب أو الطبيعة ملاذاً آمناً وموثلاً أثيراً.

غير أن الشعر الحر أحياناً ما يصطبغ بتلك الصبغة، ويتشح بذلك الوشاح، ويكتسي بتلك الملامح، ويدور في فلك هذه المناجاة، وهذا الهمس الناعم الخافت وذلك الشعور المضني بالحزن والكآبة. تأمل الشاعر في قصيدته "عجول إلى سفره"، تجد آية ما ذكرناه سلفاً. فالقصيدة نبض من المعاني الموحية التي تحرض القارئ أن يقف بإزائها وقفات فكرية وشعورية مفعمة بالشك والحيرة:

متى كنت أبحث عن
كلمة اختفت بين
همى الملاجئ؟
وأسقط أرغفة الحبّ
ترقص حول
ضجيج المخابئ
لترسم فلسفة الهمس
تبني الأصابع
وئنشئ ملحمةً تدخل النورَ
تبني الزوابع
وتسأل أزمعتي كلها
كيف تحيا المربع؟
وتأكل أيامنا
ثم تلبس صوب الصواعق

قليلون جاءوا إلى حيث
صوتي سقيم
وقد أثقلته بنات النواعق
لذلك سجلت أوردتي
صاخبات تولول في صمت
نجوى المطابع
فلما ابتدت
كنت ذاك الذي
نال مجدا رفيعا . نعيق الضفادع⁽¹⁾

هذا ولم يخل شعره من الإيحاءات الفلسفية، والرمزية التي يحتاج معها المتلقي إلى إعمال العقل والذهن، ليصل إلى مقصود الشاعر، ويشاركه تجربته الشعورية، وقد وظف الشاعر ذلك في تقسيمات رقمية أو مقطوعات شعرية موجزة في قصيدة واحدة، كل منها تحمل هذه الإيحاءات، وتشترك مع تلك الرمزية، وتشع ومضات حائرة على صدر قصيدته "معاير":

قليل من الموت
نروي به عطش الذاكرة..
وشيء من الخوف
نبني به بعض لمساتنا الماكرة..⁽²⁾

غير أن الومضات الشاعرة في القصيدة سرعان ما توغل في الرمزية والغموض في المقطوعة الثانية، حين قال:

(1) مسارات في ذاكرة السراب - ص 38، 39

(2) مسارات في ذاكرة السراب - ص 63

توكأتُ ظل الحقيقة
فانفرج الباب
وارتطمت ضفة النهر
بالصوت
واحتضنت غابة الذكريات
وقوفي
على بابها⁽¹⁾

أما قصيدته "بقايا الكتاب" فقد أبدعت قريحته الشعرية وتألقت، إذ ضمن القصيدة رسالته الوجدانية إلى محبوبته، مستمداً من التراث الشعبي عبارته (السلام عليكِ)، التي كررها مراراً، وحملها لواعج قلبه، وحنين فؤاده، وقد تصرف الشاعر في اللغة، ودانت له مفرداتها في انسيابية وعذوبة.

السلام عليكِ
وأنتِ
التي بين قوسين
أو تحت خطين امرأةً فاتنةً
نما سحره في يديك
وأنت ملاحه في الكتاب
الفواصل فتانةً تشعل النارَ بينكما
والإشارات مملوءة بالكثير
من الصد والارتباب

(1) المرجع السابق - ص64

جاء في مطلع الفجر
أوحى له الجن أسماره
شاعرٌ هب في نشوة النص
يهوى حديث الرباب
تقرأ الجن أوتارهُ
عشعش الشعر في ناره
عاش فن الصبا والشباب
شاعرٌ ملهمٌ مدرجٌ
في سجل المرابين والحالمين
له منك حظان داء الهوى والعذاب⁽¹⁾

أما قصيدته المطولة التي تحمل نفس عنوان ديوانه "دوي على قبر مارية" فهي قصيدة لا تقوم على عمود الشعر المتعارف عليه من ناحية البناء الفني، وموسيقى العروض، إنما تنتظم القصيدة في قافية واحدة، ثم لا تلبث أن تدلف إلى قافية أخرى، والملاحظ أن كل بيت من أبيات القصيدة يمثل قصيدة في ذاته، وقلما نجد ترابطاً ينتظم فيه عدة أبيات، ناهيك عن أن القصيدة في عمومها تكتسي بصبابية وغموض كثيفين، الأمر الذي يثير قضية تأويل النص الأدبي² ومن ثم جدلية تعدد القراءات والتأويلات لانغلاق المعنى، وإغراقه في التعقيد والغموض، ولست أدري أي رمز يكمن في لفظة "مارية"؟ إلام يعني الشاعر؟ وما مقصوده؟!

وانشطار البكاء صمت جديد
بيديها لخطوها وتميّد
حين ماتت برسمنا وشهود
والسرى قائم وصوم وعيد

نفس الموت عاصف وشديد
لغة يستحثها الموت فترنو
وسراييل من حبال الحلم أودت
قلق هائم يضحج من الموت

(1) ديوان دوي على قبر مارية - علي آدم - ص 12

وأباريق كالعرائس يتبادرن م
رسم في مراتع الحلم يحيا
من حولنا وصمت رشيد
ويد ترتوي وأخرى تشيد
تتفانى لموتها ونشيد⁽¹⁾

وقد يكون النص الشعري موصوماً بتفريع اللفظة من معناها المعجمي، وتضمينها معانٍ أخرى جديدة أكثر إيجائية وغموضاً، كما الحال عند شعراء الاتجاه الرمزي، ومع ذلك فقد نلمس حلاوة وعضوبة لتلك المفردات، وهذه الدلالات، نشعر في نفسياتنا بوهج خاص، وومض مبهج، حتى وإن ذهبت اللفظة في الإغراب كل مذهب، وذابت في الغموض ما شاء لها أن تذوب، على أية حال فقد جاءت قصيدته "حدثيني" مسافرة في يمّ الغموض، بيد أنها سرعان ما استقرت على شاطئ الوضوح، وأرخت شراعاتها في مرفأ الوجدانية المباشرة.

حدثيني...

كيف أشجنتي المزاميرُ

وقلبي في رماد العشق

كالشيطان أمسى

حدثيني...

طالما أصغيتُ للذكرى

تعابثني تعابثي

تهاتفني تؤرجحني

لعلي حين تجرحني رياح الوقت

أستسقي بريق الآه

في صمتي وأنسي

(1) المرجع السابق - ص13

حدثيني

كلما سافرت في عينيك

واحتدمت غيوم الدمع

تمطرني وتأسى

حدثيني

كلما أشعلت بالكلمات

نوح الناي والآهات كالمزمار

تفتح لي نوافذها كمرسى

حدثيني

كلما أهبتُ بالإنصات

للناعين ذاكرتي لتقسى

حدثيني

هل يموت الورد؟

أم يتلو الذبول وينطوي؟

في غابة الآلام.. محروماً ونعسي

حدثيني...

كيف عاد الناي ذاكرتي

وفي شفتيك قافلة تعيد الوقت

مقرونا بأوجاعي

وغيم الدمع بالأحداق أمسي⁽¹⁾

أما بعد...

فإن الشاعر "علي آدم" رجل عصامي التحق بالجندية، وواصل تعليمه أسوة بكثير من أبناء المملكة الذين تعلموا بعد التحاقهم بالقوات المسلحة التي تنشر مدارسها مصاحبة

(1) دوي على قبر مارية - ص 10، 11

لفروعها في ربوع البلاد. وما فتى الشاعر يواصل تعليمه وينمي ثقافته من خلال قراءاته الذاتية حتى اكتشف موهبته الإبداعية الشعرية فتواصل مع الشعراء المبدعين، كما تولى رئاسة تحرير مجلة (فرسان)، ثم التحق بعضوية النادي الأدبي بتبوك، وهو من الأعضاء العاملين المؤثرين، وما لبث أن تولى رئاسة مجلة (ضفاف) التي يصدرها النادي.

صدر له ديوان (من وحي الهدى) عام 1418هـ، وديوان (مسارات في ذاكرة السراب) عام 1421هـ، ديوان (دوي على قبر مارية) الصادر عام 1428هـ، وله مجموعة قصائد لم تطبع حتى الآن.

والشاعر وإن اتجه نحو الإيحاء والرمزية في شعره إلا أنه شاعر موهوب، وربة الشعر عنده متوقدة ووثابة، التي حلقت في أغراض الشعر المتنوعة.

رقية ناظر والتجربة الشعرية

"لعمري أي نفس شفاقة تلك التي ألمها ذلك
الحادث القدرى فأنشأت ترسم هذه اللوحة
الجزينة...!؟"

يشكل الأدب نتاجاً إنسانياً سواء أكان العقل الذي أنتجه ذكورياً أو أنثوياً، ولا ريب أن المرأة عموماً أفلحت باقتدار أن تظهر لنا دورها الفعال في بناء النهضة الحضارية للمجتمع الإنساني، وقدرتها الفائقة في الإسهام الفعال في الحراك الأدبي والثقافي. وفي ظني أن المرأة السعودية لاسيما الأديبة الشاعرة قد نجحت نجاحاً منقطع النظير في أن تقدم لقريباتها من نساء العروبة أنموذجاً مشرفاً للعطاء والإبداع، وأن تعبر في أدبها وإبداعها عن ذاتها، وعن مجتمعتها، وعن محتتها الإنسانية.

والواقع أن الإبداع النسائي في المملكة لم يظهر إلا مع إشراقة سبعينات القرن الماضي، وطفق يسير بخطى واثقة، حتى أينع نضجه الفني، وفاض توهجه الفكري في العقود الثلاثة الأخيرة، لاسيما التسعينات، واخترق حواجز المنوع، والرفض، والظهور بأسماء مستعارة، وشهد له بالجدارة الفكر الذكوري الذي كان يرى فيه خروجاً عن الأعراف والتقاليد.

وقد عبرت عن هذا ليلي الأحيدب في ندوة نسائية عقدت في التسعينات حين قالت "وقبل سنوات مضت كانت المرأة التي تكتب في الصحف تعتبر خارقة لعباءة المجتمع وخارقة لأعرافه الاجتماعية...".

وأضافت أن كل كاتبة تلفت الأنظار بكتابتها وتميزها يشكك في هويتها بل قد يقال إنها رجل متخف باسم امرأة واستشهدت على ذلك بردة الفعل على اسم غيداء المنفى، وتشكيك بعضهم أنها اسم لرجل بنى مجده الشعري على اسم امرأة.

ومن الملاحظ أن الإنتاج الشعري عند المرأة السعودية في بداياته كان يخلق في أجواء الطابع الرومانسي، المتسم بالحزن والمعاناة، والهروب من الواقع، والعكوف على (الأنثى)، والتشظي بالانكسار النفسي والألم الوجداني، غير أنها سرعان ما أثبتت نبوغها، وغدت قادرة على أن تصل إلى القارئ بفنّها الشعري، معبرة فيه عن أحلامها ورؤاها، وعن أحلام وطنها وقضاياها، فقد استطاعت أن تتعايش مع تطورات المجتمع المعاصر، وتعبر عن الأحداث التاريخية والاجتماعية والإنسانية، فالحكومة السعودية قد أولتها من العناية والدعم الكافي ما يجعلها مشاركة في التنمية، شريطة أن تُؤخذ عقيدة المجتمع، وثقافته، وخصوصيته في عين الاعتبار⁽¹⁾.

ومن شاعرات المملكة النابغات الشاعرة "رقية بنت أحمد بن عارف ناظر" المولودة بجدة، والتي لمع اسمها في الحياة الصحفية والإعلامية منذ عام 1390هـ، وتواتر إبداعها الشعري في أربعة دواوين هي: "خفايا قلب" عام 1406هـ، "شمس لن تغيب" عام 1408هـ، "الريح والرماد"، و"الرحيل".

ولقد استوفيني ديوانها "الريح والرماد" الصادر في عام 1410هـ، وهالني ما تميز به أسلوبها الرائق، وأدهبها الراقي، من الأصالة الفنية، والصدق الشعوري، والاتلاق الفكري، والتوهج الشعري. فما يكاد المرء يدلف إلى عالمها الشعري حتى يقطع بأن ربتها لا شك نفس شفيفة، وروح حاملة، ووجدان يتسربل بالكبرياء، وموهبة فذة، وخاطر مبدع طوّع الشعر فغدا له منقاداً، سهلاً رقيقاً وعذبا.

ورقية ناظر شاعرة مبدعة، وكاتبة، وقاصة، ومذيعة، وقلما تتوافر تلك المواهب المتنوعة الثرية في أديب واحد. "وطبيعي أن يتحقق ذلك؛ لأنها كثيرة القراءة، وغزيرة المادة الأدبية والعلمية، وفي هذا إرباء إحساسها بالحياة، مع نضج تجاربها، التي تزداد على مر الأيام زيادة تكسبها المزيد من التجارب الشعورية"⁽²⁾.

(1) المرأة السعودية الشاعرة ودورها في النهضة الأدبية - ص 84

(2) ديوان الريح والرماد - رقية ناظر - ص 8

فتلك العوامل كفيلة بتنمية المواهب، وتكثيف التجارب، وحصد المعلومات،
وخوض غمار الحياة الفكرية ببصيرة ثابتة، ومعايشة الحراك الاجتماعي بفكر متقد.
والقارئ لديوان رقية ناظر (الريح والرماد) يدرك أن عنوان شخصيتها إنما يكمن في
بيت شعري ختمت به أولى قصائدها "الفرقد الوضاء" وهو قولها:

إنني أفاخر في الحياة بهامة
كالفرقد الوضاء في أعماقي⁽¹⁾

إن القصيدة تعطيها روح الأنا حتى لتكاد تبلغ السماء علواً وشموخاً، والأنا
الشاعرية تتجاوز حدود الروح الأنثوية التي جُبلت على الرقة والضعف، بل هي أنا شاحخة في
كبرياتها، ملتذذة بذلك، ومتميمة به، وإن عاتبها الآخرون، وهي فيما يلوح غير عابئة لنقد أو
عتاب، على استعداد أن تموت دون ذلك.

فلقد تلفعت الإباء سعادتي
وثوت طيوف الحزن في أحداقي
إن قيل إنني بالشموخ متيم
فالذات تدعوني إلى الإغراق
وبه وُلدتُ وتلك أكبر نعمة
أو نقمة تدعو إلى الإشفاق
من ظن أنني غير ذلك جاهل
فالهامة السماء من أخلاقي
فكانها الأشطان توثق خافقي
وعزيمتي إن شئت خير وثاق

(1) المرجع السابق - ص 14

ما ضرني ليل أطال توجعي وقد اتخذت من السناء نطاقي⁽¹⁾

غير أن المرأة عموماً - ولستُ مبالغاً - إذا دلفت إلى عالم التصوير الفني وحظيرة البوح العاطفي، فهي الأقدر على وصف مشاعرها الأنثوية، وتصوير قضاياها الوجدانية والنفسية والاجتماعية، وكتابات المرأة أو لغة الأدب والشعر من كتابات المرأة إن صح التعبير، تختلف في بعض المواقف عن كتابات المرأة، أو يمكن القول بأنها أصدق تعبيراً عن مشاعرها الأنثوية منها للرجل⁽²⁾.

تأمل مناجاتها الحزينة في قصيدتها "الرحيل" وهي تصف شعورها المحرق، وعاطفتها الجياشة إزاء ذلك القدر الحتمي المتمثل في رحيل الحبيب.

قال الرحيل غداة.. قلتُ في كمد
إن الرحيل كهجر الروح للبدن
فأجاب والآهة الظمأى.. تمزقه
من شفه الوجد لم يعتب على الزمن
وكتمت في خافقي حزني.. على مضض
كيف السبيل.. وما للقلب من رسن
كم فرق الدهر من قد كان يجمعهم
وردُ الصفاء.. ففاض الورد بالشجن
إن تسألوا الصبّ عن طيف يؤرقه
فالبين أسوى ما يخشى من المحن
يبدو الزمان سخياً في تبسمه

(1) الريح والرماد - ص13

(2) المرأة السعودية الشاعرة ودورها في النهضة الأدبية - ص83

وإذا أشاح كأن الشيء لم يكن⁽¹⁾

لعمري أي نفس شفاقة تلك التي ألمها ذلك الحادث القدري فأنشأت ترسم هذه اللوحة الحزينة؟! وأي قارئ ذلك الذي يستمع إلى هذا الأنين الموجه فلا يهتز له قلب، ولا يتحرك له ساكن؟! إن الأبيات لا تخلو من حكمة، فالدهر لا يؤمن جانبه، والفراق أشد ما يكابده المحبون، والزمان إذا كشر وأشاح فلا أمان!..

وفي ظني أن القصيدة تنتظم كلؤلؤة في عُقد القصائد الغنائية، فالموسيقى بعنصرها الخارجي والداخلي سارية في القصيدة كجدول ماء رقراق.

"ومن البديهي أن يكون الثراء العاطفي أظهر ملمح تتوافر عليه تجارب المرأة الشعرية، والصدق خاصة أخرى تكتنز به أشعار المرأة، ويندر أن يعترى هذا الصدق زيف، وأظن أن المرأة وإن أجادت الافتعالات في حياتها العامة لا تجرؤ أو ربما لا تقوى على افتعال موقف بياني، وقد تعودت أن تحشد له قواها العاطفية"⁽²⁾.

(1) الريح والرماد - ص18

(2) ببادر - دورية فصلية ثقافية - نادي أبها الأدبي - ص17 - العدد 44- 1425 هـ

ما بعد الرحيل ليحيي توفيق

"وظني أن الشاعر بعيد كل البعد عن العشق
الصادق، حين يداعبه الشك، ويرتحل الصبر عنه،
ويصرّ على عدم التلاقي....!"

لقد اطلعتُ على قصيدة الشاعر يحيي توفيق "ما بعد الرحيل" غير أنها سرعان ما
استوقفتني بندائها البعيد وبصورها الفنية التي اكتظت في مقدمتها:

يا جرحي المخبؤ في أعماقي يا حزني المصلوب في أحداقي

فالجرح النفسي الدفين الذي ينتشر داخلياً في أعماق الذات أشد فتكاً وألماً وضرراً
من تلك الأمراض العضوية التي يتعامل معها الطب، إنه أبعد غوراً، وأشد عمقاً فهو في عالم
المجهول، وفي عالم النفس المعقدة التي يحار الطب في مساربها.

ويمدنا الشاعر بصورة أخرى في البيت ذاته "يا حزني المصلوب في أحداقي" فشاعرنا
من أولئك الذين تحتجب دمعهم ولا تفيض، وإنما تظل حيرى، حبيسة الأحداق، وذلك
أشد وطأة على الإنسان؛ إذ هو يكتم غيظه، ويتأثر نفسياً ويشد الثقل على قلبه، كما يقول
ابن حزم: ((ومن الناس من لا تصح محبته إلا بعد طول المخافة، وكثير المشاهدة، ومتمادي
الأنس وهذا الذي يدوم ويثبت...، وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء، ودفين الأسى بين
أهل الدنيا))⁽¹⁾.

ولا ريب في جمال التصوير الفني؛ إذ يصور حزنه مصلوباً في أحداقه. ولا يخفى أيضاً
جمال كلمة (دمي) وحسن دلالتها في قوله:

(1) طوق الحمامة - ابن حزم - ص 24، 2

((أنا كلما حاولت نبذك من دمي))

غير أن ضعف التصوير في الشطر الثاني

"ركضت إليك يدي تشد وثاقي"

يصيب الشطر الأول بالوهن، ويميل به عن مسار الجمال، وقد أقحم الشاعر هذا

المقطع.

أما بيته الرائع الذي يموج بالنفس، ويستلها، فتنقاد إليه مدعنة:

ويموج نبضك في دمائي صاخبا حتى أحس هواك في أعراقي

لكن من كان عشقه نابضاً بالحياة و بالدماء فلا يكون طيفا عابرا:

ويلوح طيفك عابر في خاطري يختال في روحي وفي آفاقي

والطيف وإن ألف فيه الشريف الرضي" كتابه (طيف الخيال) إلا أنه لم يكن تعبيراً يناسب التجذر الفكري، ولم يكن ذلك فحسب، بل وصف الطيف بالعبور، فكان عبوره يدل على أنه لم يستحوذ على قلب الشاعر إلا لحظات محدودة، سرعان ما يمضي، فيأتي غيره ليحل مكانه. والخاطر من الخاطرة وهي الفكرة التي تكون جزءاً من الأفكار التي تمر على خيال الفرد. والطيف لا يختال إنما هو التمثيل والتشخيص. على نحو ما نرى في قوله:

يا حيي الموعود بالإخفاق يا حزني الموءود في أعماقي

لو كان هناك من شك ما أقدمت على الحب، ولم يصدق الحب ويستقر في الأعماق، ثم مادام حزنك مؤود فأنت إذن في حل من الشقاء، ولا تثريب على المحبوب فإن الخطر على من يحيا حزنه ولا يقتل.

ويتقضى الشطر الأول من هذا البيت قولك في البيت السابع:

ما كان في حسبانه أن الذي بيني وبينك ينتهي بفراق

وقولك:

لعبت رياح الشك في أرواحنا من بعد طول تألف ووفاق

إذن فالعلاقة الأولى قائمة على الصفاء والنقاء لا على الشك والريبة.

وظني أن الشاعر بعيد كل البعد عن العشق الصادق، حين يداعبه الشك ويرتحل الصبر عنه ويصرّ على عدم التلاقي:

فتقوضت أحلامنا وأحاطنا
وتمزق الحب الكبير ولم يعد
وتعثرت خطواتنا تمضي بنا
ليل ينوء بحيرة وشقاق
للصبر في قلبي وقلبك باق
كل على درب بغير تلاقى

أين هو من قول جميل بثينة:

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشي لقرت بابله

وتلوح الأنانية في قصيدة شاعرنا في مواضع عديدة، فضمير المتكلم يتكرر في البيت أكثر من مرة، بالإضافة إلى الذات ملمح واضح المعالم، ومباشرة الأنا في مستهل البيت الثاني، وتقديم الإضافة إلى ذات الشاعر في قوله "بيني وبينك" وفي قلبي وقلبك، وتعلو الأنا في قوله:

أنا إن قبلت الحب منك فشيمتي تآبى عليّ تقبل الإشفاق

- والأنا هذه وإن كثرت وفاضت إلا إنها تثبت عرى القصيدة بأحاسيس الشاعر فتطلع علينا كتجربة شعورية. والقصيدة تزهو بالدلائل المشعة مثل:
- تكراره للنداء والياء بالذات يوحي ببعد التجربة التي تولدت عنها القصيدة.
 - وحشده لكثير من أفعال المضارع تدل على التكرار والاسترجاع باستمرارية متواصلة، كما في كلماته: يمور نبضك، يلوح طيفك، يختال، التنقل،
 - أما القافية فحشد لها الشاعر ما ينبئ عن التأثير والأين حيث زرع المدة قبل الروى ثم القاف المجرورة.

كما ابتعد الشاعر عن مباشرة التشبيه والاستعارة، واتكأ على أسلوب حديث في الصور، كمثل مناداته للجرح: يا بلسم الأوجاع حيث تتبلور الصور الفنية وتلمع أقواس الخيال، ويشرق ضياؤه. وهو ما يسمى حديثاً (بالعدول) حيث عدل عن تشبيه حالته بالجراح الأليم بالبلسم الذي يستعذبه لاشعورياً، فكأنهما حقيقة واقعة لا خيال. أما لو تتبعنا دلائل الجمل الإسمية والتي تدل على الثبات، وما صاحبها من جمل فعلية ذات مدلولات شعورية موحية لطال بنا الأمر، غير أننا نشيد بحسن اختيار الشاعر لهذه الجمل.

قراءة في شعر حسن الزهراني

"وهو يعارض نونية ابن زيدون، في معاناة تحاكي
معاناة شاعر الأندلس صاحب النونية المشهورة،
التي عارضها آلاف الشعراء..."

لست أدري هل الحب الأبوي طبيعة فطرية أم ناجم عن تواصل التلاحم؟ ولست
أدري هل يتنامى أم يحتجب بفعل القوامة الأبوية الحازمة؟!
أكبر الظن عندي أنه طبيعة فطرية، وأنه يتنامى بمرور الزمن. وهذا ليس من تجريبي
الخاصة؛ فأمي ماتت مبكراً، والوالدي احتل مكانة الأم والأب. وما فتئ فيضاً من الحنان حتى
بلغت الخمسين من عمري.

والذي دعاني لهذا الاستهلال الموجز هو أنني لم أقرأ شعراً أو نثراً في مقدمة الرسائل
الجامعية، إلا وأجد فيضاً من الحب وكلمات مجاملة للأم، فهل غلبت عاطفة الأمومة على
كل ما يبذله الآباء للأبناء ولأمهاتهم؟! تلك ظاهرة مشاهدة حتى في بيتي؛ فلا إنصاف للأب
في مواجهة الأم من الأبناء. كما دعاني إلى تلك التقدمة الأنفة وقوفي على قصيدتين
متجاورتين للشاعر "حسن الزهراني" أولاهما تتمركز حول الأب والتغني بجه:

هذا أبي من ذا يفاخرني	بأبيه من يرقى به النسب
كم بات في الحراب مبتهلاً	مادب في أعضائه نصب
ترك الحياة لكل من خُدعوا	بجمالها وسبابهم النسب

والقصيدة كاملة لا تتضمن أي كلمة حب أو إشارة إلى عاطفة أو دلالة للألفاظ ولا
دلالة للتركيب، وهي أشبه ما تكون بالقصائد المدحية.

ولننظر إلى القصيدة الثانية في (الأم) التي تنبض بروح الحب، إذ يبوح بعواطفه تجاه أمه التي احتلت وجدانه، فهي النور المضيء، وهي البلسم الدافئ وهي عطر حياته:

أماه يا شمعة بالحب تأتلق لكي تضيء حياتي وهي تحترق

ألا يحترق الأب ويحترق معه ماله، والمال أمر عظيم ((وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم)) قدم المال في سائر الآيات الكريمة، وليس هناك أب لم يقدم كل ماله لأبنائه، تأمل قوله بيث أمه عاطفته الجياشة الملائنة بالحب الدافئ:

أماه يا بسمة تحيي رفات دمي إذا استبدت به الأحزان والحرق
كم ليلة من ليالي العمر داجية تنام عيني ويضني عينك الأرق

وكم من الليالي الطوال، تعذب فيها الأب لعذابات أسرته، لاسيما إذا مرض فرد منها، ودعا ذلك إلى التنقل بين المراكز الطبية، وكان الأمر من قبل شاقاً جداً أيام كان الطب الشعبي سائداً، ويحتم على الأسرة الانتقال والترحال إليه حيث يوجد.

يا وردة ما تسنى عطرها أبدا يفوح منها على طول المدى عبق

وهكذا تفوح القصيدة بالحب الصادق نحو الأم، وما أظن القصيدة الأبوية التي ضمنها ديوانه "صدى الأشجان" إلا كونها جبراً للخاطر لما أراد أن يصدر الديوان بقصيدة الأم، فكأنما تذكر الأب..!

وتظل الأمومة هاجسه فيكرر القصيدة في ديوانه ((ريشة من جناح الذل)) الذي يصور مشاعر الأبناء تجاه أمراض الأمومة، ومعاناتهم من جراء ذلك، ثم الوقوف على قبرها واجترار ذكراها.

وأثر الأمومة يحتل كيان الشاعر حسن الزهراني، بل يتعانق مع تكوين الشكل الشعري، فهو في ثورة الأحاسيس المثيرة في مشهد قتل الأب للأم وبعض أطفالها على مرأى من ابنتها، فلم يستطع الشاعر أن يمنع المس الشعوري الذي أصابه من تلبس أحاسيس الفتاة المفزعة التي لم تدر ما تفعل، أتجري يمناً أم يسرى؟ أتخرط في بكائها أم تستغيث وتهرع إلى النجدة...!

ومن ثم جاءت القصيدة يتلون شكلها بلون الحدث المأساوي، واصفاً حالة الفتاة وحالة الشاعر معاً، وقد عمد الشاعر إلى التفعيلة المتعددة أو المنفردة في الأسطر المتفاوتة، في قصيدة حزينة تكتسي ثوب الحداد، ويعلو فيها صوت الأنين المأساوي.

أبتاه كيف قتلت أمي، كيف أطفأت الضياء؟
أبتاه كيف زرعت في دربي الشقاء؟
أبتاه كيف اغتلت أغلى الناس من أجل النقود؟
اغتلت كل سعادة في الوجود

وتارة يعلو صوت الأنين المرّ الذي ينبع من صوت المشاعر:

دعني أعيش مع رحاب
دعني أعيش مع رحاب

وتارة تعود إلى استشراف المستقبل الذي سيتلفح بسواد الحادث، وتكون صورته ماثلة في كل مكونات الحياة، تطفئ كل سعادة وتغتال كل أمل:

أبتاه أين تفر من رب السماء؟
ويداك بعد القتل تغمرها الدماء

أبتاه ضاعت كل آمالي وأحلامي العظيمة
 وفتحت عيني كي أرى أقسى جريمة
 في ليلة السبت الأليمة
 شاهدت أمي وهي تُذبح كالبهيمة
 ما بات للدنيا ولا للعمر عندي أي قيمة⁽¹⁾

ويتعلق التكوين الذهني القديم مع التكوين الذهني الحديث، ويتماوجان معاً،
 ويصطرعان ويثيران كوامن الأحاسيس، فالشاعر الحديث لم يستطع البوح بما هو واقع
 حياتي يتعلق بقضية الحب، فكل إنسان ذكراً كان أو أنثى، لاشك قد خاض غمار الهوى
 والحب على نحو ما، غير أن الكل يدعي البراءة، ويتنصل من تلك القضية الشائكة..!
 غير أن كلاً منا يغني على ليلاه ولاسيما شاعرنا، وأخشى أن ليلاه هي زوجته:

عيناك يا ليلاي أشعلتا دمي	قفزاتها بين الضلوع رماح
ليلاي لن أنسى هواك فعذبي	قلي فما تؤذي القتل جراح
سيظل نبض هواك يجري في دمي	ما جن ليل أو أطل صباح
يا من فتحت لمهجتي كون الهوى	وتهامست برحيقك الأقداح ⁽²⁾

فالأبيات روضة تراثية، وألفاظ الشاعر وفكره ونجواه تعود بنا إلى الماضي البعيد،
 وتستدعي من الذاكرة العربية قصة قيس مجنون ليلى، فألفاظ: ليلى، والرماح والهوى،
 والقتيل، والجراح، والصباح والمساء، والأقداح، حشدها الشاعر في أبياته، فتذكرنا بتلك
 القصة العربية القديمة.

(1) ديوان صدى الأشجان - حسن الزهراني - ص 19

(2) المرجع السابق - ص 45

وهو يعارض نونية ابن زيدون، في معاناة تحاكي معاناة شاعر الأندلس صاحب النونية المشهورة التي عارضها آلاف الشعراء، ومع تأخر شاعرنا فإنه لم يمزج قصيدته بألوان عصرية ومع كل ذلك فهي وعاء لمشاعر الشاعر الزهراني الواقعية.

تساقط الدمع وانشق الثرى فإذا
تلك الروابي التي كم فوقها ركضت
عشرون عاما وصدر الحب يحوينا
وكفه من سهام البين تحميننا
فسائل الحزن تنمو في رواينا
أرواحنا في سرور كان يحوينا
ونحن نركض في دنياه لاهينا
وثديه من رحيق الأنس يروينا⁽¹⁾

تتكاثف الأصوات في شعر حسن الزهراني، فالذات يعلو شأنها، والصوت الفردي يتبدى من وراء الصراحة المباشرة، والصوت الوطني يحتل مساحة كبيرة من الدواوين الشعرية، و(الباحة) تجوس في أعماق إبداعه، ثم هو يتلاحم مع عروبته وبني دينه في شعره، فينبجس آلاماً وحسرة وحيرة وأنيباً على واقع الأمة، التي ترتفع ضدها رايات الحروب، للقضاء على العقيدة وعلى الإنسان وعلى الدماء والحرمات والأعراض والأرض والعمران، إنها المعارك المدمرة التي يملأها الإعلام ناراً وظلاماً.

إني أودع وجهك المسود
يا عام المآثم.....
قاحل القسما.. منتصر الهزائم
مضمحل الصبر: يلبسني خنوعي
إني أودع كفك الحمراء

(1) صدى الأشجان - ص 107

إنها سنين طوال تسلم المواطن العربي من سنة دم إلى سنة دم أخرى، وشلالات
من الحزن تنهمر كما السيل على الأمة، وكل مسلم عربي يلوك الألم، ويجرع مرّ العذاب:

وتذوب في رمل الأمانى زفرتي
وتطير بي فوق المواجه سجدي
وأقوم أقطف من غضون الصبر⁽¹⁾

ويتكاثر التناس في شعر الزهراني، ويكشف لنا عن ثقافة متنوعة تنعتق من طيات
التاريخ، وتتعانق مع الديانات السماوية، وتمثل ذلك جلياً في قصيدته "شرق وغرب" ومشكلة
الإنسان أن شرقه يمتزج بغربة فتكون الحروب وتكون الأمواج، أما الأرض فهي ثابتة المشرق
والمغرب، وهو يوظف العقاب والذباب لصراع البشر وتهافتهم على المادة:

قال العقاب.. وقد أصاب
وقع الذباب
على الشراب
فما رفعت يدي
لأنني كنت أعمى
أجرع العثرات
في الطرقات
من حفر المطامع
وهي صاب

(1) أوصاب السحاب - حسن الزهراني - ص 22

فكم أعمى الطمع من أفراد، ومن مجتمعات، ومن دول ومن أحلاف، ثم نقلنا إلى
حكمة لقمان التي تكاد أن تختفي وتنزع من الفعل البشري الذي تتحكم فيه الأطماع حين
يطرح السؤال بعد أن أعيته رؤية الحكمة في الفعل البشري.

لقمان

كيف أصب عقلي

في يدي وأسير زهواً

في خيوط

ومن شعاع الوعي

أشعل زند بوحى حكمة

للمدلجين إلى ضريحك

يسألون جنادل الأوهام

هل أبقى لنا (داود)

تحت فسائل الإخفاق

مزمار⁽¹⁾

فقد استقي من التراث قصة الذباب، ومن القرآن حكمة لقمان ومن الديانات
الأخرى حكاية داود عليه السلام، والمتابع لقراءة النصوص الشعرية يلحظ أن الديوان
يعيش أزهير التناص، بتوظيف في جميل، تارة بإشارات إيحائية رمزية كثيفة تستدعي الحدث
الماضي، وتارة يغمرنا بالواقع الذي يرسمه الإعلام ضياء بينما هو ظلام في ظلام

فإذا السراب

أماننا

(1) أوصاب السحاب - ص48

وإذا السراب
وراءنا
وإذا السراب يلفنا
من فوقنا من تحتنا وإذا بنا في التيه
يحضننا اليباب⁽¹⁾

فتشرذم إسرائيل أربعين سنة في صحراء سيناء، وتشرذمنا المعاصر أكثر من قرنين،
والنهاية يعلمها الله، عوامل لاشك تسفر عن مفارقات، وتولد مأساة لاسيما في النفوس
الشاعرة.

والقارئ لشعره الحر يدرك عمق الفكر الذي يتمحور فيه الإبداع، فهو يبهر بنا في
أعماق النفس البشرية، ويستذكر التاريخ البشري، ويتفاعل مع الحراك الاجتماعي، ويتلفح
بقضايا الوطن، ويشدو بها.

وهو يوظف الفكر التراثي واللغة التراثية ليشكل بها التكوين الثقافي المعاصر
ولكثافة المضمون لديه يبني قصيدته "نخيل البوح" على شكل مقاطع قصيرة وديوان أوصاب
السحاب" يغلب عليه الشعر الحر، ويتشكل فيه فكر الشاعر ومصادر تكوينه، بل يكشف عن
اتجاهه الفني الذي يتماهى مع وضوح الفكر وسلامة التركيب والاستدعاء التاريخي في مزج
لمكونات الإبداع، لكنها تتجلى واضحة المعالم.

وخصّ الشاعر وطنه بديوان (قبلة في جبين القبلة) تباهي فيه بزيادة رجال الوطن
لمنطقة الباحة، وكشف فيه عن أوجه التقدم الذي رعاه ولاة الأمر، ومنهم خادم الحرمين
الشريفيين الملك عبد الله، وكذلك نظم في ولي العهد سمو الأمير سلطان وغيرهم، وكذلك
شارك الشاعر أبناء المنطقة مناسباتهم الإقليمية فالشاعر حاضر في قلب الوطن، مواكب
لحراكه ومسيرته التطويرية، وشعره سجل تاريخي وطني لمنطقة الباحة وقد استهل ذلك
الديون بالإهداء الوطني:

(1) أوصاب السحاب - ص 51

أسطر حبي من سنا نبض إجلالي
إلى السؤدد الراسي إلى الشمم العالي
وطهر الندى في عمق عشقي وآمالي

إلى كل شبر من ثرى الوطن الغالي
إلى كل أهلي في الجزيرة كلها
إلى الوطن المنقوش في فلق الهدى

أما بعد:

فالشاعر حسن الزهراني من مواليد منطقة الباحة عام 1381هـ التحق بالتدريس وتواصل مع منتديات الثقافة والأدب وشارك في عضوية كثير من الجمعيات، وهو ذو علاقات وطنية، وله مشاركاته في اللجان في منطقتة يحضر منتدياتها وفعاليتها، وهو عضو في النادي الأدبي، وقد رأيتُ فيه وإخوانه الأعضاء حراكاً ثقافياً، وتفانياً في خدمة الثقافة، وقد سعدنا بصحبتهم أربعة أيام فشكراً لهم وثناء عاطراً.

وللشاعر ثمانية دواوين شعرية منشورة، تحتاج إلى دراسة أكاديمية متأنية فهو أهلٌ لها، ودواوينه لاشك تثيري الرسالة العلمية، ومن أهمها: "أنت الحب" و"فيض المشاعر" و"صدى الأشجان" و"ريشة من جناح الذل" و"قبة في جبين القبة" و"قطاف الشغاف" و"أوصاب السحاب". وإني أراه شاعر وجدان، ليس لشعره الذاتي فحسب، ذلك الذي يتغزل فيه أو يتبادل المشاعر مع أقربائه أو يقف على مشاعر الأمومة، وإنما لكون شعره نابع من غليان وجدانه، يقف عند المثيرات الوطنية المباشرة، أو تستفزه الهجمات على أمته، أو تثير كوامنه المواقف الإنسانية الوجدانية.

وبناء شعره يقترب من شعراء الطبع الذين يتدفق إبداعهم من خلجات حواسهم ولا ينمقون شعرهم بالتأمل وإعادة التبصر المرة تلو الأخرى في القصيدة؛ إنما هي نظرة عجلَى للتقسيم وتلافى الأخطاء الظاهرة فحسب، ولذلك فهو ثري العطاء حاضر النظم في المناسبات الوطنية وهذا اتجاه لا عيب فيه عندي.

ومن دواعي البوح الصريح واقع العصر الإسلامي والغربي المعاصر الذي يعلن التمرد والتعدي على الشعوب الضعيفة، وعلى الحريات الفردية والجمعية، فالعراق وفلسطين ولبنان وأفغانستان وغيرها من بلدان الإسلام، تنزل عليها النكبات من كل سماء

وكل جهة، وتلك مؤثرات إجتماعية وواقعية تدفع بالشاعر ذي الحس المرهف أن يعلن الثورة هو الآخر، ولكن على ذلك الظلم، وعلى تلك العنجهية الزائفة. يقول الزهراني:

على أي شيء أيها القلب تصبر وكل جديد في زمانك يقهر

ويقول:

بكيث لخيرتي وهو أن أمري عليكم عندما غاب الضمير

الجوهرة الحمد واللوحات الوجدانية

"والقصيدة تكشف عن الانحياز للحياة الزوجية
أكثر حين يعلو خفقان قلبها الملتاع، ويرتسم السؤال
الحائر (ترحل؟!.....)"

كلما تناولت الشعر الوجداني الذي اشتهر في أوساط النقاد الرومانسي أحت على
وشائج الصلة بين الشاعر والطبيعة، والشاعر والمرأة، وصورة المرأة في الشعر العربي. وتبين
لنا كم كانت المرأة، ولم تزل الملهممة، والموحية لعذاب الشعر العربي، وشعراء العربية
الفصحاء.

غير أنني رأيت أن الدراسات النقدية التي تناولت المرأة كشاعرة أو أديبة لم تفي حقها
من تسليط الضوء على إبداعها، ومكان التوهج الفكري عندها، ودورها الفاعل في الحرك
الأدبي والثقافي والفكري في المنطقة العربية. لذا فقد جمعتُ دواوين المرأة العربية مع أختها
السعودية، وعزمتُ على دراستها منذ سنتين حين رتبت مكتبتني ترتيباً حديثاً في مقرها بتبوك،
ولكن شغلني، وحال دون إتمام ذلك الأمر بعض الأعمال الإدارية والبحثية، الأمر الذي
أبعدني عن ذلك زمناً، ولكنني أعود هذه الأيام معيداً التفكير في تلك المهمة الكبيرة، متواصلأً
مع الدراسة، لاسيما وأني لم أكد أقرأ ديواناً من الدواوين النسائية إلا وقد واجهني عاصف
من الوجدان.

والوجدان عند المرأة لاشك يتلون بتلون أشكال المكونات الذهنية التي تشعل
الأحاسيس، فالوجدان الذاتي الذي يتمثل في الحب يحتل مساحة كبرى من ديوان المرأة
السعودية الشاعرة، رغم عوامل المنع والرفض والحجب لهذا اللون الشعري في بلادنا زمناً،
لكن بعض الشاعرات تجاوزن تلك السدود وانطلقن بإبداعهن وأشعارهن، وفي مقدمتهن
عزة فؤاد شاكر، ومريم البغدادي، والجوهرة الحمد.

ونقف عند الشاعرة (الجوهرة الحمد) في ديوانها "صوت مكسور" ملياً للوقوف على ملامح القصيد في إبداعها. وقبل الإبحار في أشجان الشاعرة فإنني أرى أن قراءة الناقد والمتلقي لا تكون بالضرورة تفسيراً لواقعية وجدان الشاعر، أو تأويلاً لمكنونات ذاته الشاعرة وحالته الخاصة، بل ربما يعبر الشاعر عن وجدانيات مجتمعه، ويأتي شعره كلوحة مكونة من ترسبات المجتمع، تستمد تجاربها من أمطار الحياة اليومية. ونحن حين نقف عند التجربة الشعورية والشاعرية لدى شاعرتنا المبدعة (الجوهرة الحمد) فلا نتحدث عن ذاتها، بل نتحدث عن تجربتها الشعورية سواء كانت من الداخل أو الخارج.

وتستهل الشاعرة الوجدانية (الجوهرة عبد الرحمن الحمد) ديوانها "صوت مكسور" بنبض شعوري يداعب الإنسان، الرجل والمرأة معاً؛ فكل منهما مسكون بهاجس الحب بألوانه وأطيافه، وكل منهما مسكون بهاجس العشق والشوق، ولكن نبض هذه اللوحة من امرأة شاعرة يجلي لنا مدى عمق الحب في أحاسيس المرأة، فلا وهج يثير الأحاسيس أشد من آمال الحبين، ثم شعلة الحب الدافئ، تقول في قصيدتها شواطئ الفرح:

عصف بي الشوق

بحثاً عن ...

الحب الدافئ

بين ...

الأشعة المنشورة

وأحرف ...

العشق المسطورة⁽¹⁾

والشعور الوجداني دائم الحضور في كيان المرأة، فعواطفها فوّارة بالحب تسبق تأملها أحيانا كثيرة، ولذلك يتمحور إحساس الوجد دائماً.

(1) ديوان صوت مكسور - الجوهرة الحمد - ص 7

في غور الوجدان
همسك...
نسيم أيامي
حديثك...
صمت لألامي
نورك...
سحر ليل
وضوء قمر
بدد ظلامي
وسرى نغمأ...
وغمرني نشوة
وعبر
مروج أحلامي⁽¹⁾

وتلك قضية بشرية، فمروج الأحلام خاصية إنسانية فهي تكون نغمة تارة إذا كانت محطة استرخاؤه بين رياض خضراء وزهور وشلالات ماء، لكن لو استمر هذا لكان مرضاً ووبالاً لاسيما إذا تداخل مع القراءات الذاتية.

والشاعرة تقف وقفات وجدانية تنبض بالتساؤلات الشعورية وتستلهم الحدس، وتطل على هوة المستقبل الغامض، وهي علامات توجس من الأمومة ومن الزوجة ومن المتأمل بالخطبة أو المنتظر بالأحلام، إنها اختزال الأحاسيس ذات الخواطر المتدفقة من نبض الشعور والفكر والسلوك الواقعي تلك تتمثل في لحظة الرحيل فتشكل لنا موقف المرأة الحاضرة وتلاهما بين كيان المرأة عبر الأزمان الماضية والحاضرة، وتتلاحم المرأة في كل مكان

(1) نفس المرجع - ص 9

فلا تصرفها المحن، وإنما ترسخ عواطفها وتثب واقفة باهتزازتها واضطراباتهما زمن الرحيل
عبر قصيدتها أنات الرحيل:

فأطلقت بقهر

عويل

وأناث

في الرحيل

وعلامة حيرى واستفهام (؟؟)

سكنت على الجبين..⁽¹⁾

والقصيدة تكشف عن الانحياز للحياة الزوجية أكثر، حين يعلو خفقان قلبها الملتاع،
ويرتسم التساؤل الحائر (ترحل؟) تهامس به حبيبها الذي انتمت إليه، ولا يكون إلا الزوج:

ترحل؟؟

وإليك...

وقعتُ انتمائي

ترحل؟؟

وبك...

أفردتُ غنائي

ترحل؟؟

بعد أن أسدلتُ ضفائري

وزينتُ...

ثوبي المسائي؟؟

(1) ديوان صوت مكسور - ص12

ترحل؟!!!
وقد.. أشرعت عطائي
وأهديتك...
بقاوة الشوق والحنين..⁽¹⁾

إنها تحكي قصة الفراق في مرحلة عقد القران، وتحكي قصة الإبتعاث بعد نية الزواج وإعلانه، وتحكي غير ذلك من قضايا المرأة المعاصرة، فنبض الشاعرة لوحات اجتماعية تكشف عن معاناة المرأة في مراحل حياتها العائلية الأولى.
والشاعرة الجوهرة تضعنا أمام معرض تشكيلي من اللوحات النفسية الشعورية، وكل منا يدرك تعدد المؤثرات البشرية على إنسان اليوم، وهي ترسم لوحة رائعة حزينة لانطفاء وهج مشاعر الحب الأولى في الحياة الزوجية، وما يترتب على ذلك أحياناً من انفصام عرى الزواج أو الطلاق.
وقد أبدعت الشاعرة في رسم الاهتزازات الشعورية في قصائدها (بقايا حب) و(صرخة الأسى) و(وألماء)، تقول في قصيدتها "صرخة الأسى":

سأعطي..
قلمي الحرية
أن يسطر
صرخة الألم
وكانها.. هزة أرضية
الشرخ كان..
حاداً وعميقاً
أجبر البركان...

(1) ديوان صوت مكسور - ص 12، 13

أن يعلن ثورته
 وشظايا كلمات
 جريجة
 تناثرت على البقاع
 فحولت عالمي...
 إلى عزلة أبدية
 وتربع الأسى الدائم..
 والحزن القائم...
 على عرش عمري...
 وسنواته المنسية⁽¹⁾

إنها قضايا اجتماعية تقرب من المرأة، ولا يسلم الرجل من شرورها، وتتسع الجراحات في هذا العالم على إنسان اليوم، ويفتر أوج الحياة الزوجية، وينتهي المطاف إلى الطلاق، الذي احتل مكانة كبيرة في الرسم البياني المأساوي حتى وصل نسبته في مجتمعاتنا العربية إلى (1 من 3)

وكثيراً ما يسفر تعالق الحياة مع الإنسان إلى مكابدة ومعاناة، من أشدها معاناة العزلة والهجران، ناهيك عن أن تداعيات الطلاق أشد وطأة على المرأة، فطبيعة الحياة وسنة الله في الكون أن جعل المرأة سكن الرجل، ولا تستقيم العلاقة الأسرية إلا بالحب. والحياة الزوجية نفسها أمل كل رجل وامرأة، ولاشك أن الفتاة إذا طال انتظارها، وشارفت على العنوسة، فإن حياتها حينئذٍ تعد نوعاً من الألم المرير. وها هي الشاعرة المبدعة تعبر عن تلك المأساة في قصيدتها العذبة "هذا قدرتي"، التي تمثلت فيها حال فتاة تعيش هذه التجربة.

(1) المرجع السابق - ص 50، 51

الصمت يوجعني
والشوق يلهيني...
ويؤرقني الانتظار
أسافر...
في جروح الصبح
وفي عذاب العشية
عصفور...
فقد جناحيه
في غابة وحشية
ينتظر...
رحمة الليل
وإشراقه النهار
شُحَّت الكلمات
وبعدت المسافات
فغابت...
عن سمائي.. الأقمار
وخلت...
من حقولي الأشجار
وذوت...
في واحتي الأزهار
وفقدت...
قصائدي الأشعار
وكل
يوم ينهار

في داخلي جدار
سئمت الانتظار
وسئمت الإبحار
في بحور العذاب والشقى..
وليل معتم
ليس له منتهى⁽¹⁾

فتلك قضايا شائكة، تموج بها مجتمعاتنا العربية في كل زمان ومكان، ولعمري لا دراسات بحثية ولا مؤسسات خبرة ولا هيئات اجتماعية ذات قدرات عالية تقبل أن تضطلع بهذه القضايا الشائكة في منهجية علمية، وهوى مجرد لإنقاذ المجتمع من التمزق والتشردم الناجم عن هذا النوع من القضايا، تأمل قولها:

هذا.. هو جرحي
هذا.. هو دربي
هذا.. هو قدري
ولطالما.. انتظرت
رحمة الأقدار

وثمة قصيدة تجاورها بعنوان (طال الصمت) تفيض هي الأخرى بالمعاناة، وتطلق صرخة الألم والعذاب.

إن ديوانها "صوت مكسور" كشف لنا عن قضايا اجتماعية تفجرت في المجتمع لاسيما النسائي، ومن ثم فهي نبض المرأة المعاصرة تستلهم قضاياها وتحس بإحساسها وتصور آمالها وأحلامها وتفاعلاتها وتلاحم شعورها وصدى التفاعل الاجتماعي. وليس معنى ذلك أن

(1) ديوان صوت مكسور - ص 68، 69

معاناة المرأة عندنا تفوق معاناتها في المجتمعات الأخرى محلية كانت أو عالمية، ولكن قدراً من الغموض والتستر غشي قضايا المرأة عموماً، نظراً للتقاليد العربية السائدة في البلدان العربية. ولغة الشاعرة تلجأ إلى الوضوح والنهل من معين الكلمة الشفافة البيضاء وقد أعرضت عن لغة الغموض، وسبرت أغوار فلسفة الشعور الذي يتواصل مع الغموض. وتتبلور فلسفة الشاعرة في بناء تراكيبيها اللغوية من خلال توظيف اللغة لكشف الغامض من الحلجات الشعورية بل إعلان الحقيقة الداخلية لمعاناة المرأة وكشف ماهيتها، والأمل في معالجتها والدعوة إلى البوح بها، فمرحبا باللغة السليمة التي كشفت عن خبايا دفينية.

شعر غرامة سوط من العذاب

"شاعرنا من أوائل الشعراء الذين غرقوا في الشكل الحديث للقصيدة بل إن إبداعه لم يتجاوز إلى غيره، الأمر الذي جعلنا نفتقد التمازج بين شكلي القصيدة العمودي والسطري..."

التفكك التركيبي يوظفه الشعراء ليتركوا فضاءات تستدعي فيضاً من المعاني، أو فيضاً من استدعاء الوقائع والحوادث، تخضع لذكاء القارئ، وقدرته على تعبئة فراغاتها إن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

فقصيدة (خارج الطقس) هي خارج الفيض الوجداني، وخارج الشعور الفكري المباشر، وخارج البرهان الدلالي، والشاعر "غرامة" أوقعنا في فيض من الخيالات والأوهام، فالقصيدة تكاد أن تخرج من دائرة المعقول إلى اللامعقول، ولست أدري هل كل قارئ على استعداد فطري وثقافي بالدرجة التي تمكنه أن يكمل سطرًا مبهمًا في القصيدة؟! حتى فلاسفة الشعر التجريدي يقفون عند قصيدة أو قصيدتين فحسب ثم ينفضون، فلنقرأ أنا وأنت:

((تغيب الوجوه))..... عن ماذا؟! ولماذا؟! وكيف؟! ومن تلك الوجوه؟

((وتمتد للأفق كل الوجوه)) لو علمنا ترابطاً بين الجمل لقلنا إن الشاعر يمارس عملية الهذيان؛ فالجملة الأولى نفي والجملة الثانية إثبات.

((وفي رحم الليل)) ماذا سيكون في رحم الليل؟ أين أو حنين أو اقتحام أو فتك أو إرسال صواريخ مدمرة.؟!

((خبأت حرفاً)) ولو كان الترابط والسياق صحيحاً مع الجملة السابقة أو اللاحقة لقلنا إن هذا شطر طفولي، كالطفل الذي يخبئ شيئاً؛ فالحرف لا يحتاج إلى ليل لكن الأمر يحتاج إلى قراءات متعددة تكون في ريب من العبارة ومن دلالتها.

((مساحته)) ما مساحة الحرف، وهل هي وعاء لدلالة كبرى وفضاء مضموني؟
((أن تفقد ظلك)) حين الموت أو حين النوم، أم هو الصدى الذي تتمناه لك عند
الآخرين على مستوى الفرد أو مستوى الجماعة؟
والنتيجة أن كل سطر يحتاج إلى صفحات لتسرد فيه ما يستدعيه الخاطر، وما يخطر
في بالك، ولكن بلا قرار ولا برهان ولا جزم ولا تأكيد.
وأنت ترى أن اللمحات التي كتبناها أمام كل سطر كثيرة، ولو تنبعت القصيدة ذاتها
لكتبت عنها أكثر من الديوان، وربما تملأ نفسي غيضاً أو قيحاً مشاركاً نزييف الشاعر من
كلومه المتفجرة.

وأغلب النقاد يرى أن موجات الفكر هي التي تهز بحر الأحاسيس بمقدار هيجان
الفكر، فتنبعث التيارات الشعورية قوية أو فاترة.
وشعر "غرامه العمري" متدفق من اندفاع فكر، لكن هل هو فكر ذاتي ومعاناة
شخصية فحسب؟ أم هو تمازج بين الذات وبين المجتمع؟.. أكبر الظن عندي أن الشاعر
غرامه هو أنموذج لترسبات فكرية مزجها ونسجها بقدره الموهبة الشعرية وتنميتها وتواصلها
مع التكوين الثقافي لاسيما الإبداعي والنقدي، مع استلهام روح العصر؛ فصيرته وكونته
وصقلته كما صقلت غيره من الشرائح الوطنية في بلادنا خاصة. يقول من قصيدة مطولة هي
"ثلاثون جرحاً":

أقلب في دفثري كي أنام
وأمشي وحيداً..
بين اغترابي وهم القصيدة
تسلمت ركناً قصياً..
ومشينا من التباريح
سجلها الراحلون على وجعي
خروج جديد..

من القبو للموت يعلن ميلاد رسم جديد⁽¹⁾

الغموض له مراحل متفاوتة، وأفضلها الذي لا يستجيب بالقراءات الأولى، ولكنه يستجيب ولا يكون مستعصياً أبداً. هذا رأيي وإن خالف آراءً أخرى. وقصيدة (المنسي) قصيدة تلامس شعور أهل الإبداع وأهل الإنجاز الذين يتوارون في الهامش الإعلاني، يقطف غيرهم ثمار إبداعهم وإنجازهم؛ ولذلك فهم في معاناة دائماً لاسيما في بلادنا العربية، فلا تقدير لهم في مجتمعهم ولا في إعلامهم ولا في مؤسساتهم ولا يُعرفون إلا بعد وفاتهم:

على حدود الزمن المنسي

صوتي ضائع..

وخطوتي..

بين الدروب التائهة

ولحظة صاحبة تفر من يدي

تصوغ من صهيلها...

عقود خوف

للمدى الرحيب

يا سيدي..

بأبجديتي الملتهبة

وقفت عند بابك المطفأ ذابلاً

وكل نجم في مدارك الفسيح يخنفي⁽²⁾

(1) ثلاثون جرحاً - ص 65

(2) ثلاثون جرحاً - ص 20

وبنائية الشكلانية في إبداع (غرامه) تتكى على شعر التفعيلة، وتقوم على تعداد المقاطع التي تمثل فصلاً كاملاً من البحث في المضامين؛ فهي مقاطع قصيرة لكنها حافلة بالأفكار، على استعداد لأن يتقبلها القارئ المتذوق.

وفي بعض قصائده يشير إلى تعداد المقاطع بالأرقام، وسطره قصير جداً مكون من كلمة أو كلمتين، وهو في أكثر قصائده يجذبنا بوضوح فيما يشبه المقدمة الأولى، لكنه سرعان ما يفاجئ القارئ بالاختفاء والاحتجاب.

ومصادر شعره ترسبات نفسية لكنها لم تعبر به إلى المذهب الوجداني الرومانسي، وإنما أخذت جانب العتمة الدائمة في تأويلاتها وفي تشكيلها اللغوي، ولو قلنا أنها تمثيل فردي للشاعر لأدركنا أن الفرد ذاته عالم كبير يمثل نموذجاً للإنسان عموماً.

كان لي وسم ورسم
كان لي دفتر أحزان قديم
كان لي باع طويل
كان يا ما كان
في منتصف الليل والنهار
يابس يمتد عبر النافذة⁽¹⁾

والشاعر رغم حداثة الفنية لكنه متجذر في التراث؛ فأنت تلاحظ استخدامه "كان" وهي فعل الماضي، واستخدامه التراث الشعبي "كان يا ما كان"، واستهلاله طريقة الحكيم المعروفة في القصص العربية:

(1) المرجع السابق - ص 38

يحكى أن...
المكان غير المكان
والزمان غير الزمان⁽¹⁾

وشاعرنا من أوائل الشعراء الذين غرقوا في الشكل الحديث للقصيدة، بل إن إبداعه لم يتجاوز إلى غيرها، الأمر الذي جعلنا نفتقد التمازج كثيراً بين شكلي القصيدة العمودي والسطري منها، وهو من أولئك الشعراء الذين ولجوا إلى ضفاف الغموض، بل إلى تفریع الدلالة، والتجاوز إلى المتباعدات من الغرائب أو غير المألوفة، التي تستمد غربة من حركة التجاور.

وأعود إلى النص الأول الذي استهلكتُ به، فإذا هو قد طرأت عليه حلل جديدة لم تخطر في روح القارئ قبل قراءة السطر التالي:

وينسل..
من بيننا العشب
بين المغيب
وصوت الشفق
فكن باسطاً كفيك
لما سوف تأتي به الريح
إن الميادين..
لا تحتوي وجع الأرض⁽²⁾

(1) تفاصيل ما حدث - ص 74

(2) تفاصيل ما حدث - ص 39

وهذا التفكك في بناء الأبيات يصحبه تفكك في المضمون وأنت لا تقبض على معلم واضح ينظم القصيدة، بل إن القصيدة طويلة تمتد عبر صفحات متعددة حتى لكأنني أشعر بالقارئ قد ملّ وأنهك، فمثل هذا الفن يتوقف القارئ فيه عند حدود أسطر قليلة، ثم سرعان ما ينصرف عنه انصرافاً، لذا فإن الطول في القصيدة الضبابية، الرمزية قتل لتوهجها، وإنزال لرصيداها عند القارئ.

ولم أستطع أن اكتشف دلالات القصيدة (الغليان) السابقة مع تعدد صفحاتها، ولكنه سرعان ما يضيء لنا الأمل في أحد المقاطع، فيحصرنا في أسطر قليلة عن معاناة الأمة العربية، التي تتجسد في الهم الفلسطيني.

خبأ الكبار.

معاً سنغنى..

إلى كل طير جريح

ونسكب من دمنا..

ملامح أنشودة النصر

لكل

رماة الحجارة

فلا شيء نخسر..

بعد اغتراب الزمان

وفوضى المكان

فهبنا معي..

وقولوا..

معاً سنغنى

وديوان "تفاصيل ما حدث" من المقطع المتوسط، وقد أطل القصيدة السطرية فيه مما جعل الأحاسيس تنحسر تحت وطأة التفكير غير المتواصل في مضامين القصيد ومدلولاتها. وفي رأي إن القصيدة بوجه عام عند الشاعر "غرامة" تحتاج إلى وقت حتى تكتمل ولادتها، ويتألق إشعاعاتها.

والقصيدة الحديثة آلة سوط على الإنسان العربي وعلى مجتمعه، وعلى دولته وأمتة؛ تشتمل على مجالات أكثر رحابة، وأعمق فكراً، وقد كان الشاعر "غرامة العمرى" نموذجاً للشاعر الحدائى المعاصر. يقول في قصيدة (نافذة):

إلى متى ..
ونحن غارقون .. غارقون
في وهن الأيام
واستمالة السنين

تلك أسئلة مثيرة مشحونة بالمضامين الساخرة المؤنبة للنفس الأبية المعتزة بنفسها ،
واقراً معي كيف يسلط لسانه على الإنسان:

ملامح الوجوه صدمت
خلف نوافذ النسيان
والبيان صامت
وسهامنا ارتدت
إلى أعماقنا
فانتحر الليل المباح⁽¹⁾

(1) تفاصيل ما حدث - ص 37

أما بعد...

فالشاعر (غرامه العمري) من أولئك الذين هم ثمرة التمازج الوطني المحبب إلى النفس الذي لم تعهده الجزيرة قبل حكم آل سعود بعد القرن الأول الهجري. فالشاعر الجنوبي الأصل شمالي الموطن والاستقرار أحب تبوك وأحبه أهلها، تفاعل مع متدياتها العلمية والثقافية؛ فهو الموجه المشرف، وهو عضو النادي الأدبي بتبوك لما يقارب من عشر سنين. وكان من الأعضاء الفاعلين والمتفاعلين مع الحراك الثقافي، والذي اطلعت عليه من شعره يضمه ديوانان من الحجم الصغير ولا أخاله إلا قد أبدع الكثير ونحن في النادي على استعداد لطباعة هذا الإبداع الذي لم يظهر بعد.

محمد الثبيتي

" بيد أن ملامح الحداثة التي ألمسها شائعة في إبداع
الثبتي ليست من ذلك النوع الصادم مع الموروث،
أو الراض للمعتقد إنما هي حداثة تنهل من
القديم، وتسعى في ركاب المعاصرة..."

الراحل محمد الثبتي عصامي الثقافة، متنوع الفكر، مستلهم الكون الرحب، غائص
في بحر الإنسان المتألم. حامل للمعاناة البشرية، بل هو يتوهم اللذعات البشرية كبائر. ويخوض
غمار المكابدة الحياتية كإنسان يخوض غمار البحر الهائل المخيف ويصارع أمواجه ودهاليزه.
إن الثبتي لم يلجأ إلى جمال الطبيعة ليتوحد معها، ويلوذ بجماها، ويتلمس السكنينة
والأنس منها شأن الشعراء الرومانسيين، ولم يعانق في رؤاه الشعرية الإنسان المبتهج، كأنه لم
يصادف ذلك الإنسان البكر الذي يحمل في قلبه طيبة وفطرة وقيماً إنسانية سامية، تلك القيم
التي تعلق بها قلبه هو، وهفا وجدانه الحزين إليها، والثبتي تعيش المكابدة الإنسانية في أجلى
صورها، وحفرت في أعماقه تأثيراتها، وانغمست أحاسيسه في أعماق المآسي أو النقد
الاجتماعي الذي تحول إلى موجات شعورية إبداعية تنبجس بدلائلها اللغوية، يقول:

ورنا إليك ترفعاً وفضولاً
احذر فؤادك واحذر القنديلا
من شاد صرحاً أو أنار سبيلا⁽¹⁾

أزور عنك تنكراً وتجاهلاً
يا موقد القنديل نبض فؤاده
فالكون يمُّ زاخر يُنسى به

(1) عاشقة الزمن - ص12

وهذه الرؤيا الشعرية القائمة صحبته في مسيرة حياته الإبداعية، فكانت المنجم الذي يصفي شعره، وتنصهر في أتونه مشاعره المتوقدة، بيد أنها قد تبدو باهتة ومبتذلة لاسيما في المواقف الرسمية، فكأنه بتصرفاته يعلن للملأ قائلًا: أنا لا أبالي بكم.. مكانتكم وشخصياتكم فهو يخاطبهم بما تلونت به أحاسيسه الفطرية، دونما حاجة تدعوه إلى تنميق أشعاره، الأمر الذي صيره مهمشاً مع قدراته الشعرية الرائدة والرائعة.

وشعر الثبتي يصور شرائح اجتماعية مثقفة تئن تحت وطأة التلاحق الفكري. وتنشد آمالاً جسام، تود لو أنها تتحقق على مستوى الأفراد والمجتمعات، والمؤسسات، وقد صاغ الشاعر تلك الآمال، وهذه التطلعات بأسلوب فلسفي رائع.

وشعر الثبتي يتدرج من الوضوح في ديوانه (عاشقة الزمن الوردية)، وفي هذا الديوان تتجلى المباشرة والوضوح، يتوارى في طياتهما فكره الفلسفي وفلسفة تكوينه المعاصر. وهذا النهج الأسلوبى راق جداً، ينبئ عن قدرة وموهبة شاعرية فذة، فتحويل المضامين الفلسفية إلى معان شائعة سهلة، وقريبة إلى الحد الذي يتمكن المتلقي من قراءتها على النحو الذي أراده الشاعر موهبة شعرية، لاشك فذة، وتشبي بشاعر مبدع وقدير. استمع إليه حين يقول:

وفاضت بالدم القاني قلوب
ولا على مفاتها شحوب
مع الآلام واختلفت دروب⁽¹⁾

إذا نذفت جراح الحب يوماً
وغامت في جوانحنا الأماني
وقادتنا الحياة الى صراع

بيد أن ملامح الحداثة التي ألمسها شائعة في إبداع الثبتي ليس من ذلك النوع الصادم مع الموروث، أو الراض للمعتقد، إنما هي حادثة تنهل من القديم، وتنطلق في ركاب المعاصرة تحكي قضاياها، وتسرد همومها.

(1) عاشقة الزمن - ص71

من هنا انطلق الثبتي ليفجر الفكر في تجربته الشعرية، فتارة ناقدًا، وتارة مصادمًا، وتارة يموج شعره مثل النسيمات التي تعبر بلا حدود ولا سدود، وتارة تتشكل كل هذه الملامح في شعره فهو يجري كالماء، ولكن التركيبة المعرفية للماء توحى مكوناتها بالعمق، فشعره حدائي يولد الصدام والصراع، ومن ثم الاكتشاف للمكونات المتضادة، لكي يتولد الإبداع الداعي للتغيير... إنه يقول:

أجهشت باللحن اللذيذ
تشابكت...

والذي يُسجل لشعر الثبتي هو توظيف الماضي لتفجير الحاضر، فهو غير رافض للماضي، وإنما يريد أن يكشف سلبياته ويسقطها على الحاضر المتوتر. وهو يجري في بناء لغته وتراكيبه ذات الطرائق في فكره، فهو غير رافض للغة، وغير محطم للتراكيب، وإنما يشحن اللفظة والتراكيب بدلالات جديدة، وكذلك يولد صوراً جديدة من خلال بناء السياقات، فشعره مشحون بالدلالة مع سلامة في اللغة والتراكيب، محافظ على مكون الجذرة الموضوعية للغة مع القدرة على التعبئة الدلالية المعاصرة.

وحين نبحر في ديوانه الآخر (تهجيتُ حرفاً) تطالعنا تلك النقلة الجمالية في شعره، حيث الصور وبنائها الذي يفيض بالدلالات، وحيث الشحن اللفظي المتلاحم مع السياق، الذي يصور العمق الفكري المتنوع المتلاحق، وينبض بالمعانة المتواترة. كأنما ديوانه أجنحة الشعر المحلق في الفضاء الإنساني الذي يضم الفكر والمعرفة والبرهان، ويتدفق بالإحساس، ويتلبس بالبيان، وتتجلى ملامح الإبداع في ذلك الديوان في تنوع الطرح الفكري، فهو تارة ذاتي، وتارة فلسفي تجريدي، وشعره يصور أحواله؛ لكنه لم يهدأ، فقد حاول الشاعر أن يمارس الهروب الرومانسي لعله يسلو ويأنس، فيقول (ص14 الأعمال الكاملة)

أصادق الشوارع

وظني أن قصيدته (موقف الرمال) مبدعة، ولو سماها موقف النخيل لكان أجمل وأقرب من مضمون القصيدة. ويبدو أنها سيرة ذاتية لفكر الشاعر وتسجيل لخواطره الذاتية ورؤاه في الحياة، بل مكانته في الحياة، فهو كالنخلة الباسقة المثمرة ليست في أوصافها الظاهرة المحسوسة، وإنما يلتقي مع النخلة في تكوينها وفلسفتها ومكانتها عند أهل الصحراء.

أنت والنخل فرعان

أنت افترعت بنات النوى

ورفعت النواقيس

هن اعترفن بسر النوى

وعرفن النواميس

فاكهة الفقراء

وفاكهة الشعراء

إن شعره يكشف عن العلاقة العضوية التي تربط ألوانا من الفكر بوصفه محركاً لموجات النفس، والذي يصطدم بالمحيط الاجتماعي المتنوع المصادم لفكر الشاعر والمتلاحم

معه

سلام عليك فهذا دم الراحلين كتاب

من الوجد تتلوه

تلك مآثرهم في الرمال

وتلك مدافن أسرارهم حينما ذلّت

لهم الأرض ما استبقوا أيهم يرد الماء

ما ابعد الماء

ما ابعء الماء
إن الشاعر يعيش ماضٍ ثقيل، يماثله حاضر ثقيل، وهكذا تتشكل الحياة المتصورة في
فكر الشاعر معالم حزينة قاسية في الماضي والحاضر.

هل نحن في كبد التيه نقضي النوافل
هل نحن نكتب تحت الثرى
مطراً وقوافل
يا كاهل الحي
طال النوى

الوطن زمانا ومكانا في ديوان مسلم فريح العطوي

الأستاذ مسلم فريح العطوي المولود عام 1370 هـ درس الابتدائية والثانوية في تبوك، وكان متفوقاً في دراسته، مسلماً في حياته، منذ طفولته حتى شيخوخته. كنت أقتدي به في حبه للقراءة، وعكوفه على المجالات القديمة في مراحل التعليم الأولى. ضمنا بيت للعزوبية في الرياض، وجمعتنا كلية واحدة هي كلية اللغة العربية. ولتفوقه اختارته المعاهد ليكون مدرساً في معهد الرياض العلمي، ثم التحق بالدراسات العليا، لكنه لم يلبث أن عاد إلى تبوك ليكون إلى جوار والده. مارس التدريس في المعهد العلمي حين كنت مديراً له، وبزغ نجمه في الشعر أمام الأمراء في احتفال أقامه المعهد العلمي، وكانت أولى قصائده في محفل كبير حضره الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز أمير منطقة تبوك، وقد أعجبتني صراحته في القصيدة التي ألقاها وقتئذ، فقد ضمنها جملة من المطالب الشعبية والأمنيات الوطنية، يقول في موضع منها:

من للمظالم بالعدالة تدحرُ
من للعراة -إذا استغاثوا- يستر
من للهدى، من للسماحة ينشر
من في الثرى وجه الطغاة يُعْفَرُ
من للمدافع، والقنابل تُمطر
في كل يوم للرعية يكثر⁽¹⁾

من للمشاكل حين يصعب حلها
من للجياح تقطعت أحشاؤهم
من للأرامل من يكفكف دمعها
من للصحاري كي يؤمن دربها
من للسيوف يهزها، من للقنا
غير الميامين الأشاوس فضلمهم

(1) وطني.. عشقتك - ديوان الشاعر - من إصدارات النادي الأدبي بتبوك - ص21

وقبل أن يطرح هذه القضايا الإنسانية الضرورية كان قد أشار في قصيدته إلى قضية إصلاح مدينة تبوك، وقد مكثتُ رداً من الزمن تعاني من سوء إدارة البلديات، وقصر نظر المسؤولين، يقول بن فريج العطوي:

أين النوافير العظيمة تهدر	أين الميادين الفسيحة عندنا
من كل غرس في الرصيف تشجر	أين الشوارع وسّعت أركانها
أين الحدائق والحزام الأخضر	أين المصانع يكفهر دخانها
في ساحها يشفي العليل الساهر ⁽¹⁾	أين المشافي بالنظافة تعتي

والشاعر مسلم بن فريج العطوي شأنه شأن المثقفين المعتدلين، الذين يرغبون التطور وينشدون النهضة في الوطن العربي والإسلامي، فقد تحدث في شعره عن الأحداث الإسلامية والعربية الكبرى؛ فقد تحدث عن فلسطين، وعاش معاناة الشعب الفلسطيني، وآلمته مشاهد القتل والتدمير للمدن والمباني والمساجد، فطفق يتحدث عن جهاد الشعب المناضل، وثورة الحجارة، وقادة الجهاد، وانتفاضة الأطفال، يقول الشاعر بن فريج العطوي في رثاء الشيخ أحمد ياسين رمز المقاومة الفلسطينية:

أشلاء جسمك في البيداء أوصالا	سالت دماؤك فوق التراب خالطها
مرّ الثمانين أبقى منه أطلالا	لم يرحموا فيك شيخاً مقعداً هرما
فجرعوا أمة الإسلام إذلالا	تكالب الكفر والأعداء في بطر
قتلاً فسالت دماء الطهر شلالا	جاست دمارا خلال الدار آلتهم
في وحدة الصف أفعالا وأقوالا	يا أمتي أمة الإسلام عزتنا
في مركب العلم ألوانا وأشكالا	وللبغاة أعدوا كل قاصمة
ويورق الصبر بعد الضيق آمالا	واستلهموا الصبر علّ الله يفرجها

(1) المرجع السابق - ص 20

صدق العزيمة والإيمان يشعلها عند اللقاء على الأعداء إشعالاً
رّباه هذي جموع الكفر جامحة فاخلف لنا من صلاح الدين أمثالا⁽¹⁾

والشاعر بن فريج العطوي يقف عند المكان في شعره، فأنت ترى ذلك واضحاً في ثنايا أحاديثه عن ربوع الجزيرة، ومعالمها، وآثارها المقدسة، ومدنها الحديثة، مثل الرياض، وتبوك، وأبها، والطائف، وغيرها.

كما يقف الشاعر في شعره على المعالم الطبيعية بما تحوي من جبال شاهقة، وأودية سحيقة، وأشجار مورقة ذات عقب فواح.

وهو ابن جبل اللوز، ذلك الجبل المشهور بضخامته، وامتداد سلسلته، وإطلاله على البحر الأحمر، وهو مأوى لأنواع الوحوش، ومركز للحياة الرعوية، وفي تلاعه كثير من الواحات الزراعية.

ولقد هياً لي القدر صحبته في رحلات متعددة، كان فيها حسن المعشر، خفيف الظل، لم أسلم من لسانه!.. ولم يكن يحمل سلاحاً فقد كان من القائمين على حراسة الأمتعة، وإعداد الأطعمة، ولقد وصف إحدى رحلاته في جبل اللوز.

توافى الصحبُ، شاقتنا المسيره
وفى أعلى جبال اللوز يتنا
صقيع البرد في الأثواب يسري
ولا من نجدة في رأس طود
تمنينا لو الأثواب صوفاً
تقرفصنا بضيق بين صخر
وما ذقنا على الإطلاق نوما
إلى المقنّاص في عز الظهيره
بليلى يصطلينا زمهريه
ظننا فوقنا سُحباً مطيره
أصابتنا لهول الأمر حيره
تمنينا بساطاً أو حصيره
وجرف تحتنا عالٍ شفيره
نبحلق في النجوم المستديره

(1) ديوان (وطني عشقتك) - ص 11

أم الأفلاك شُدَّت في ظفيره
 تعبنا من مماشيتها العسيرة
 كأن الساق من عظم كسيره
 إلى وادٍ دفيءٍ ذي حظـــــــيره
 فنفسى في المُرَيْقَةَ والصهيره
 يجر اللحن من عالي شخيره
 إلى الهيجاء من دون الذخيره⁽¹⁾

عجبنا يا ترى في الليل طول
 مع الإصباح سرنا في رضام
 وعدنا تلتوي الأقدام هلكى
 ونادي قائد الأقوام هيا
 وهاتوا التيس ذا القرنين يثغي
 ومنا في هناءٍ كل منا
 إذا ما طبطب الجمري قمنا

والشاعر مسلم بن فريج العطوي شاعر المنطقة في زمنه بلا منازع، فهو حاضر في كل المحافل، وقد ألقى قصيدة أمام الملك خالد بن عبد العزيز عند زيارته لتبوك، وكذلك كان شاعر الحفل أمام الملك فهد في إستاد الرياض في تبوك، وكثيراً ما وقف منشداً أمام الأمير سلطان بن عبد العزيز أيام كان وزيراً للدفاع يزور تبوك كل عام، ثم أضحى ولياً للعهد. وقد عايش الشاعر الذي سكن خيام الشعر، وبيوت الطين، والمباني الحديثة، وامتنى الحمار، والجمل، والسيارات الفارهة مراحل تطور المملكة، لاسيما منطقة تبوك، وقد كان لذلك كله صداه في ديوان شعره.

وهو رجل يتسم بالهدوء، غير اندفاعي، لا يقول الشعر إلا بدعوة جازمة ذات إصرار، وهو أشبه بأحمد الغزاوي؛ فجّلّ شعرهما المعلن في المناسبات، فيما تتوارى أشعارهما في الأغراض الأخرى حبيسة السطور والأوراق المهملة. ويتمتع الشاعر مسلم بقدرته على الإبداع في الوجدانيات، فهو شاعر غزلي، يموج شعره بالنزعات النفسية والحسية، يقول الشاعر في قصيدة عنوانها (ذكرى):

(1) ديوان (وطني عشقتك) - ص152

مانسيت الحب يوماً أبداً
كيف ماج الدهر صدأً بيننا
في صفاءٍ مشرقٍ أو كدرٍ
في جفاءٍ مرعبٍ للفكر

والقصيدة رقيقة عذبة، تمثل حياة الشباب عندما كان الشاعر بدوياً دارساً لم يزل،
يتلقى تعليمه، ثم يرتحل إلى ربوع البادية، والواحات الريفية. والشاعر المبدع كان مدرساً في
المعهد العلمي بتبوك.

قائمة المراجع

1. إبراهيم خليل علاف - الديوان - الطبعة الأولى - 1409هـ - 1989م
2. إبراهيم محمد سراج خراز - غناء وشجن - المكتبة الصغيرة رقم 22 - الطبعة الأولى 1397هـ - 1977م - مطابع اليمامة بالرياض
3. إبراهيم الدمغ - أسرار وأسوار - نشر مركز صالح الثقافي - عنيزة - 1426هـ
4. إبراهيم السبيل - نقش على صفحة المجتمع - الطبعة الأولى - العبيكان - 1417هـ
5. أسامة عبد الرحمن - شمعة ظمأ - الطبعة الأولى - 1403هـ - 1983م - جدة - تهامة
6. الحدائث في النقد الأدبي المعاصر - الدكتور عبد المجيد زراقات
7. الحدائث في الشعر العربي المعاصر بيانها ومظاهرها - الدكتور محمد حمود 3-3-
- الرمزية في الأدب العربي - الدكتور درويش الجندي
8. الشعر كيف نفهمه ونتذوقه - اليزابيث درو - ترجمة محمد الشوش
9. العصر الجاهلي - شوقي ضيف
10. النقد المنهجي عند العرب - د. محمد مندور
11. المنهل - جمادى الأولى - 1389هـ - ص 708 - مج 30
12. حدائث النص الشعري في المملكة العربية السعودية - الدكتور عبد الله أحمد الفيافي
13. حسين عرب - المجموعة الكاملة
14. حمزة شحاتة - ديوان حمزة شحاتة - الطبعة الأولى - دار الأصبهاني للطباعة - جدة - 1393هـ
15. ديوان قبضة من أثر جميل - الشاعر سليمان المطلق
16. ديوان عواطف إنسانية - الشاعرة مريم البغداي
17. ديوان على مشارف القلب - الشاعرة سلطنة السديري

18. ديوان الخوف - الشاعر عبد الله باسراحيل
19. منهج البحث في تاريخ الآداب - لانسون
20. ديوان بعد أن تسكن الريح - الشاعر سعد الغامدي
21. ديوان بشائر من أكناف الأقصى - الشاعر سعد الغامدي
22. ديوان إلى العرين شاخاً - الشاعر سعد الغامدي
23. ديوان شيطان ظمئة - الشاعر سعد الغامدي
24. طوق الحمامة - ابن حزم
25. ديوان صدى الأشجان - الشاعر حسن الزهراني
26. ديوان أوصاب السحاب - الشاعر حسن الزهراني
27. ديوان صوت مكسور - الشاعرة الجوهرة الحمد
28. ديوان إبحار بلا ماء - الشاعر عبد الله بن إدريس
29. ديوان زورقي - الشاعر عبد الله بن إدريس
30. ديوان في زورقي - الشاعر عبد الله بن إدريس
31. ديوان أرحل قبلك أم ترحلين؟ - الشاعر عبد الله بن إدريس
32. شعراء نجد المعاصرون - عبد الله بن إدريس
33. ديوان ثلاثون جرحاً - الشاعر غرامة
34. ديوان تفاصيل ما حدث - الشاعر غرامة
35. ديوان عاشقة الزمن - الشاعر محمد الشيبتي
36. ديوان وطني عشقتك - الشاعر مسلم فريح العطوي
37. ديوان مسارات في ذاكرة السراب - الشاعر علي آدم
38. ديوان دويّ على قبر مارية - الشاعر علي آدم
39. ديوان الريح والرماد - الشاعرة رقية ناظر
40. سعيد عبد المقصود، عبد الله بلخير - وحي الصحراء

41. سلمان الفيافي - مرافئ الحب - تحقيق عبد الله الفيافي - نشر نادي جازان الأدبي -
الطبعة الأولى - 1428هـ - 2007م
42. عبد الله عبد الجبار - المجموعة الكاملة - الطبعة الأولى - مطابع المحمودية
43. عبد الله بن خميس - على ربي الإمامة - الطبعة الثانية - 1403هـ - 1983م
44. عبدالله بن صالح عبد الله - تاريخ التعليم في مكة المكرمة - دار الفكر - الطبعة
الأولى - 1392هـ - 1973م
45. عبد الله الجشي - الأعمال الشعرية الكاملة - نشر عبد المقصود خوجة
46. عبد الرحمن السويداء - أشجان - الطبعة الأولى - دار ثقيف للنشر والتأليف -
1978م
47. عبد الله حمد الشبانة - الزفرات الحرى - دار اللواء - الطبعة الأولى - 1408هـ -
1987م
48. عمر عبد الجبار - تاريخ التعليم في مكة المكرمة
49. علي بن حسين الفيافي - رحلة العمر - الطبعة الأولى - 1397هـ - نادي الطائف
الأدبي
50. فائدة الشعر وفائدة النقد - ت.س. البيوت - ترجمة الدكتور. يوسف نور عوض
51. فاطمة القرني - مطر - نشر النادي الأبي بالرياض - 1430هـ - 2009م
52. فاطمة القرني - ديوان احتفال - نشر نادي تبوك الأدبي عام 1430هـ
53. فهد النفجان - نداء حبي - الطبعة الأولى - 1416هـ - 1996م - مؤسسة الجزيرة
الثقافية
54. مجلة إبداع - أبريل 1985م
55. مجلة العربي الكويتية - العدد 529 - ديسمبر 2002م
56. مجلة بيادر - العدد 44 - 1425هـ
57. محمد حسن عواد - الديوان - الطبعة الأولى - 1398هـ - 1978م

58. محمد جدع - المجموعة الشعرية الكاملة - دار البلاد - نادي جدة الأدبي عام 1984م
1404هـ
59. مريم البغدادي - عواطف إنسانية - تهامة - جدة - الطبعة الأولى
60. مصطفى زقزوق - مرابع الأنس - الطبعة الأولى - دار العلم للملايين
61. مفرج السيد - فيض الأحاسيس - دار ثقيف للنشر - الطبعة الثانية - 1414هـ
1994م
62. محمد المسيطير - ديوان ليالي العمر - الطبعة الأولى 1429هـ - 2008م - مطابع
الرسالة
63. موسى العبيدان - تباريح وجد - الطبعة الأولى - 1430هـ - 2009م
64. نظرية الأدب - رينيه وليك، أوستن وآرن - ترجمة الدكتور. عادل سلامة
65. نقد الشعر - قدامة بن جعفر

المؤلفات والبحوث

- 1- أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية.
- 2- تبوك قديما وحديثا.
- 3- المقطعات الشعرية في الجاهلية و صدر الإسلام.
- 4- الرمز في الشعر السعودي.
- 5- الاتجاهات الفنية للقصة القصيرة في المملكة العربية السعودية.
- 6- الاتجاهات الفنية للشعر إبان الحروب الصليبية.
- 7- الشعر والمجتمع في المملكة العربية السعودية.
- 8- الشعر الوجداني في المملكة العربية السعودية.
- 9- الغموض في الشعر العربي.
- 10- العاشق العفيف عروة بن حزام.
- 11- البنات في شعر الآباء.
- 12- العتابي حياته وأدبه.
- 13- الاتجاه الفكري في شعر الخليج العربي الحديث.
- 14- الفكر والشكل في الشعر السعودي.
- 15- تبوك المعاصرة والآثار حولها.
- 16- بناء الفكر.
- 17- بناء الفكر التربوي.
- 18- بناء الفكر الإداري.

- 19- الأدب العربي الحديث.
- 20- عدد من الأبحاث المنشورة في المجالات المحكمة.
- 21- عدد كبير من المقالات.
- 22- التحول (سيرة ذاتية).
- 23- النقد في أحضان الجامعات.
- 24- وطنيات.الواقع والامل

المؤلفات والبحوث

- ١- أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية .
- ٢- تبوك قديما وحديثا .
- ٣- المقطعات الشعرية في الجاهلية و صدر الإسلام .
- ٤- الرمز في الشعر السعودي .
- ٥- الاتجاهات الفنية للقصة القصيرة في المملكة العربية السعودية .
- ٦- الاتجاهات الفنية للشعر إبان الحروب الصليبية .
- ٧- الشعر والمجتمع في المملكة العربية السعودية .
- ٨- الشعر الوجداني في المملكة العربية السعودية .
- ٩- الغموض في الشعر العربي .
- ١٠- العاشق العفيف عروة بن حزام .
- ١١- البنات في شعر الأبياء .
- ١٢- العتابي حياته وأدبه .
- ١٣- الاتجاه الفكري في شعر الخليج العربي الحديث .
- ١٤- الفكر والشكل في الشعر السعودي .
- ١٥- تبوك المعاصرة والآثار حولها .
- ١٦- بناء الفكر .
- ١٧- بناء الفكر التربوي .
- ١٨- بناء الفكر الإداري .
- ١٩- الأدب العربي الحديث .
- ٢٠- عدد من الأبحاث المنشورة في المجالات المحكمة .
- ٢١- عدد كبير من المقالات .
- ٢٢- التحول (سيرة ذاتية) .
- ٢٣- النقد في أحضان الجامعات .
- ٢٤- وطنيات الواقع والامل
- ٢٥- السرد فكرياً وبنائاً

